في البلاغة القرآنية

خصائص النظم القرآني في عتاب النبي

صلى الله عليه وسلم

دكتور

بدر عبد العال حسين محمد طلب أبو صغير

مدرس البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر

مطبعة الكامل

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله على ما أنعم، وعلم من البيان ما لم نعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ـ ﷺ ـ القائل: (إن من البيان لسحراً) [١]، وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم.

وبعد،،،

الحمد لله الذى أكرم المؤمنين ببعثه أشرف المرسلين، سيدنا محمد ـ ﷺ ـ ليكون لهم فى الدنيا هدى ونوراً، وفى الآخرة رحمة وشفيعاً، ﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٢].

وأنزل الله ـ تعالى ـ عليه القرآن الكريم، فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، وهو حجة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وآيته الكبرى، شاهد برسالته، ناطق بنبوته، دليل على صدقه وأمانته، فهو الكتاب الحكيم، والنور المبين، والحبل المتين، والنبأ العظيم، والسراج المنير.

﴿ إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

---

[١] أخرجه الإمام البخارى فى كتاب الطب، ينظر: فتح البارى: ٦٠/٦ ط: دار الغد العربى والإمام أحمد فى مسنده: ٢٦٩/١ ط: المكتب الإسلامى بيروت.

[٢] الآيتان (١٥، ١٦) من سورة المائدة.

الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾ [1].

لذلك كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول ـ ﷺ ـ ومن الأمة جميعها، وقد اتخذت هذه العناية أشكالا متعددة، فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه، وتارة إلى كتابته ورسمه، وتارة أخرى إلى أسلوبه وإعجازه وفصاحته وبلاغته، إلى غير ذلك من أوجه الإعجاز.

وفى ضوء هذه اللفتة الأخيرة، وهى إعجازه فى أسلوبه وفصاحته وبلاغته، وفقنى الله ـ تعالى ـ لاختيار هذا الموضوع فى البلاغة القرآنية وهو:

(خصائص النظم القرآنى فى عتاب النبى ـ ﷺ ـ)

ومن نعم الله على أن جعلنى أعايش آيات من القرآن الكريم موجهة فى صورة عتاب من الله ـ سبحانه ـ إلى صفوة خلقه وأنبيائه سيدنا محمد ـ ﷺ ـ بالفهم واستيضاح بعض المعانى، ودقائق ولطائف هذا الأسلوب، وبيان كيف كان الله ـ تعالى ـ يعاتب رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عتابا لطيفا رقيقا يوحى بمدى حب الله ـ جل وعلا ـ لحبيبه ونبيه محمد ـ ﷺ ـ.

ولا شك أن الكتابة فى هذا الموضوع من أعظم الأعمال وأشرف المقاصد وأقومها، لنرى كيف جاء النظم القرآنى مشتملا على

---

[1] الآية (٩) من سورة الإسراء.

خصائص ومميزات خاصة بهذا الأسلوب، تجلى أوجه الإعجاز فى النظم القرآنى.

ومهما تعددت البحوث والأفكار فى فهم إعجاز القرآن وتحديده، فليس من المتوقع ولا من المظنون التوصل منه إلى كل شئ، بل سيبقى سر إعجاز القرآن الكريم محاطا بما يشبه الهالة القوية الكثيفة التى إن كشفت عن كل الحجم، فلن تكشف عن كل الجوهر والحقيقة.

لذا سيبقى إعجاز القرآن الكريم منهلا لا يغيض لكل باحث فيه وكل مغترف منه، وما كتابتى فى هذا الموضوع إلا محاولة استكشاف جانب من جوانب هذا الإعجاز القرآنى فى حسن نظمه ودقة تعبيره وإعجازه البيانى.

والغرض من هذه الدراسة بيان الدقائق التعبيرية والملامح البلاغية، والسمات الخاصة التى اشتمل عليها هذا اللون من النظم القرآنى البديع فى معاتبة المولى ـ عز وجل ـ لحبيبه محمد ـ ﷺ ـ هذا اللون البديع من العتاب الربانى، وانطوائه على كثير من أساليب الاستفهام التى تأتى غالبا من وسائل عرضه، بما تحمل فى داخلها من معنى اللوم، ولأنها الأكثر طواعية لجو العتاب.

كذلك تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على سمة خاصة ينفرد بها هذا الأسلوب البديع من تكثيف للمعانى عن طريق الإيجاز البليغ، لنرى كيف أن آية واحدة ذات جمل محدودة تجلى لنا موقفا كاملا من مواقف العتاب، وتكشف لنا أحاسيس كثيرة، وإيحاءات شتى، وتحمل فى طياتها

توجيها نحو قيم مثالية، وتشريعا جديدا من التشريعات الإسلامية العظيمة.

ولكى ندرك مدى رحمة الله ـ تعالى ـ ولطفه وحبه لرسوله محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث لم يخاطبه ـ سبحانه ـ بالعتاب مباشرة، وإنما يوجه إليه عتابه عن طريق الغيبة، وكأنه يعلتب نبيا آخر غيره، ونلمح ذلك ويتجلى فى أغلب مواقف العتاب.

والهدف من هذه الدراسة ـ أيضا ـ الوقوف على دقة اختيار المفردات المعبرة فى النظم القرآنى، وما لمفردات هذا العتاب من دلالات كاشفة، وإيحاءات معبرة ومترجمة لموقف العتاب، وهذا ما يلمحه ويحسه ويتنبه إليه المتذوق لبلاغة القرآن فى مفرداته وتراكيبه.

وأخيرا حتى نقف على بلاغة هذا اللون من النظم القرآنى وإعجازه من تلاحم النظم، وتآلف الصياغة على نحو يبدو فيه الترابط الواضح، والبناء المتماسك فى التعبير مما له أثر كبير فى فهم وارتياح واستجابة المتذوق لبلاغة القرآن الكريم.

وجاء الكتاب فى: مقدمة، وتمهيد، وثمانية مواقف مذيلة بخاتمة، أما التمهيد فيشتمل على أمرين:

الأول: معنى العتاب والفرق بينه وبين الأساليب الأخرى وفيه وضحت مفهوم العتاب فى كتب اللغة، وأنه يشمل: الشدة، والموجدة، واللوم، والرضا، ثم بينت الفرق بين أسلوب العتاب وغيره من الأساليب الأخرى مثل: التعنيف والتقريع والتوبيخ.

الثانى: مواقف عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى القرآن الكريم ويشتمل على ذكر المواقف التى عاتب فيها المولى ـ عز وجل ـ نبيه محمداً ـ ﷺ ـ بإيجاز مركز مع ذكر الآيات التى جاء فيها هذا العتاب.

القسم الأول: عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم.

القسم الثانى: عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى موقفه من أسرى بدر وقبوله أخذ الفداء منهم.

القسم الثالث: عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى إذنه للمنافقين أن يتخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك.

القسم الرابع : عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ حين حرم على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه.

القسم الخامس: عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى قصة زواجه من السيدة زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ.

القسم السادس: عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الكفار والمنافقين وأهل الكتاب.

وجاء هذا القسم فى ثلاثة مواضع هى:

الموضع الأول: عتابه ـ ﷺ ـ فى استغفاره للمشركين، وبيان أنه لا يهدى من يحب ولكن الله يهدى من يشاء.

الموضع الثانى: عتابه ـ ﷺ ـ على شدة حزنه على عدم إيمان قومه وتحسره عليهم وشدة حرصه على هدايتهم.

الموضع الثالث: عتابه ـ ﷺ ـ حين هم أن يحكم على اليهودى وهو برئ.

القسم السابع: عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الضعفاء من المؤمنين.

ويشتمل هذا القسم على موضعين هما:

الموضع الأول: عتابه ـ ﷺ ـ حين طلب منه كبراء قريش أن يطرد هؤلاء الضعفاء من المؤمنين.

الموضع الثانى: عتابه ـ ﷺ ـ حين أمره الله ـ تعالى ـ أن يحبس نفسه مع الفقراء ولا يتطلع إلى الكبراء.

القسم الثامن: عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الاستثناء.

وأما الخاتمة: فقد ضمنتها بعض الإرشادات والتقريرات والملاحظات التى يحسن تسجيلها كنتائج لهذه الدراسة، والسمات والخصائص التى تميز بها النظم القرآنى فى هذا الأسلوب البديع من العتاب. وما لمفردات هذا العتاب من دلالات كاشفة عن المشاعر النفسية، وما لها من إيحاءات معبرة ومترجمة لمواقف العتاب، وما يحسه ويتنبه إليه المتلقى والمتذوق لبلاغة القرآن وإعجازه فى مفرداته وتراكيبه، ومدخل هذا الأسلوب البديع فى إعجاز القرآن.

وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وحباً فى رسول ـ ﷺ ـ

﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾

دكتور
بدر عبد العال حسين
قسم البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر
فى ٢٠٠٣/٤/٢٨ م

التمهيد

أولاً: معنى العتاب وافرق بينه وبين الاساليب الاخرى

إن المتأمل فى آيات القرآن الكريم يلاحظ أنها تشتمل على الكثير من المخاطبات التى يبدو منها الشدة على المخاطبين، ويلتبس عليه معرفة هذا اللون من الخطاب أهو عتاب أم غير ذلك، لذا أعرض هذا لبيان معنى العتاب، والفرق بين أسلوب ا لعتاب وغيره من الأساليب الأخرى.

أما العتاب فهو فى اللغة يطلق على عدة معان هى:

١-الشدة: جاء فى لسان العرب "وأصل العتب: الشدة، يقال: ما فى هذا الأمر رتب ولا عتب أى شدة"[١].

٢-الموجدة: يقال: عتب عليه يعتب أى: وجد عليه.

٣-اللوم: يقال: عاتبه معاتبة وعتابا، كل ذلك لامه، قال الشاعر:

أعاتب ذا المودة من صديق ... إذا ما رابنى منه اجتناب
إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقى العتاب[٢]

وينطق البيتان بهذه الأحوال التى تجرى أحيانا بين أهل المودات، وهى: أن العتاب إنما يكون بين ذوى المودات، فهو يعاتب ذا المودة من صديق.

---

[١] لسان العرب مادة (ع ت ب): ٢٧٩٢/٤.

[٢] لسان العرب مادة (ع ت ب): ٢٧٩٢/٤، وينظر: معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس: ٧٢/٥ تح/ عبد السلام هارون ط: مكتبة الخانجى.

- أن العتاب إنما يكون إذا أخل الصديق بمقتضى من مقتضيات الصداقة.
- أن الهدف من العتاب بقاء الود، وعلى قدر الود يكون العتاب، فإذا كان الود عظيما كان هناك مكان للعتاب ولو على شئ صغير، وإذا كان الود قليلا لا يكون العتاب إلا على الأشياء الكبيرة.

يقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى: "فأنت لا تلوم رجلا تعرفه على هفوة صغيرة ارتكبها، ولكن إن حدث هذا من أخ عزيز عليك جدا فأنت تتأثر بقدر حبك له وودك إليه، ومن هنا فأنت تعاتب أخاك على مالا تعاتب عليه صديقا، وتعاتب صديقك على ما لا تعاتب عليه غريبا، وبقدر الود يكون اللوم على الأشياء الصغيرة"[١].

٤-الرضا: جاء فى لسان العرب "العتبى: الرضا، وأعتبه: أعطاه العتبى ورجع إلى مسرته، والعتب: الرجل الذى يعاتب صاحبه أو صديقه فى كل شئ إشفاقا عليه، ونصيحه له[٢] .

إن من يتدبر ويتأمل هذه المعانى التى جاءت فى معنى العتاب يدرك أن بينها ترابطا وانسجاما، وأن الباعث عليها جميعا هو الود أو بقاء الود، فإذا انتفى منها عنصر الود فلا يمكن أن نطلق عليها معنى العتاب، وإنما قد يكون توبيخا أو تقريعا، أو تعنيفا أو ما شابه ذلك من

---

[١] معجزة القران لفضيلة الشيخ/ محمد متولى الشعراوى ص ٢٤٨ ،ط: كتاب اليوم.

[٢] ينظر: لسان العرب مادة (ع ت ب): ٢٧٩٣/٤، ومختار الصحاح: ٤١٠.

الخطابات التى لم يكن الباعث عليها الود أو بقاء الود.

فإن قيل: فما وجه الاختلاف بين هذه المخاطبات مع كونها جميعا تحمل معنى الشدة فى الخطاب؟ الجواب أنه وإن جمع هذه المخاطبات معنى الشدة من حيث الأسلوب، وطبيعة المنهج لكن بينها فروقا، فالتعنيف والتقريع والتوبيخ ألفاظ متقاربة ويطلق بعضها على بعض لأن بينها تداخلا وترابطا، فهى كلها خطابات تحمل معنى الشدة والتبكيت، وأن الباعث عليها ليس الود والحب، وليس الغرض منها بقاء الود واستمراره كما هو الحال فى أسلوب العتاب.

وكان الرسول ـ ﷺ ـ يجتهد فيما لم ينزل فيه تشريع من قبل الله ـ تعالى ـ قال القاضى عياض: "اجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شئ ولم يشرع له قبل"[1]، وإذا اجتهد ـ ﷺ ـ فوقع منه خلاف الأولى كان يصحح الله ـ تعالى ـ اجتهاده حتى يوافق مراده ـ سبحانه تعالى ـ وأحيانا كان يعاتب عليه والعتاب حينئذ ليس لأنه ارتكب جرما، وإنما كان فى كل الأحوال لمخالفته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لما هو أكمل وأفضل وأولى.

وأنسب معنى لعتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ هو ما جاء فى المصباح المنير حيث عرف العتاب بأنه "مخاطبة الإدلال وكلام المدلين إخلاءهم طالبين حسن مراجعتهم ومذاكرة بعضهم بعضا ما كرهوه مما

---

[1] الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٢/٧٣٣ ط: الحلبى.

كسبهم الموجدة"[١].

وعلى ضوء هذا التعريف اللغوى يفهم أن عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه وحبيبه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ معناه "تذكيره ـ ﷺ ـ فى تلطف وإشفاق بما يقع من الخطأ فى اجتهاده توصلاً إلى تصحيح هذا الخطأ الذى يعود به الرسول ـ ﷺ ـ إلى موافقة مراد الله ـ تعالى ـ وتحقيق المطلوب منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فينال كامل الرضا".[٢]

---

[١] المصباح المنير للفيومى: ١٩/٢ مادة (ع ت ب) ط: مطبعة التقدم العلمية بمصر.

[٢] ايات عتاب المصطفى ـ ﷺ ـ فى ضوء العصمة والاجتهاد، د/ عويد بن عايد بن عياد الطرفى: ص ١٠٤ ط: دار الفكر العربى.

ثانيا: مواقف عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى القرآن الكريم

عاتب المولى ـ عز وجل ـ نبيه محمدا ـ ﷺ ـ عتابا رقيقا لطيفا يستهدف إعلاء مثالية من المثاليات التى ينبغى أن يتحلى بها رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أو يستهدف تقرير قيمة من قيم هذا الدين، أو يستهدف إحداث تغيير فى المجتمع من تشريع جديد لم يكن فى الجاهلية، أو يستهدف أن يكون الرسول ـ ﷺ ـ على الوجه الأمثل، وأن يكون القدوة والأسوة الحسنة للناس جميعا، وكان هذا العتاب فى مواقف متعددة فى القرآن الكريم يمكن أن نشير إليها بإيجاز فيما يلى:

الموقف الأول

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى إعراضه عن عبد الله ابن أم مكتوم

قال تعالى: ﴿ عبس وتولى* أن جاءه الأعمى* وما يدريك لعله يزكى* أو يذكر فتنفعه الذكرى* أما من استغنى* فأنت له تصدى* وما عليك ألا يزكى* وأما من جاءك يسعى* وهو يخشى* فأنت عنه تلهى* كلا إنها تذكرة ... ﴾ [1].

هذا العتاب الرقيق اللطيف كان منطلقا ملائما لغرس القيم الإسلامية، وتربية الجماعة الإسلامية الناشئة على قيم ومبادئ سامية وسديدة تقوم على أساس المساواة بين الخلق جميعا، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ... إلا بالتقوى والعمل الصالح، ويقرر المبدأ العام (إن أكرمكم عند الله اتقاكم)[2].

---

[1] سورة عبس، الآيات من (١ -١١).

[2] من الآية (١٣) من سورة الحجرات.

إن من يدقق النظر فى أسلوب هذا العتاب يجد أنه يحتوى على نظم بديع عال، حيث عدل النظم القرآنى من التعبير بضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة فى قوله ـ جل وعلا ـ ﴿ عبس وتولى * إن جاءه الأعمى ﴾ وذلك للتلطف فى عتابه ـ ﷺ ـ مراعاة لفضله، وتعظيما لقدره، وتعليما للخلق جميعا كى يتأدبوا معه، ويعلموا مدى قدره ومكانته عند الله ـ تعالى ـ.

فالمقام فى أول السورة للخطاب، ولكنه عدل عما يقتضيه المقام لغرض بلاغى، وهو الإجلال له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره، لأنه لا يصدر عنه ـ ﷺ ـ مثله، ولما كان مقام النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أجل وأكرم على الله ـ تعالى ـ من أن يواجه فى مقام العتاب بأسلوب الخطاب لما فيه من صراحة وجفاء لذلك عدل النظم القرآنى إلى طريق الغيبة تعظيما لقدره وتلطفا فى عتابه ـ ﷺ ـ.

كذلك نلمح ما لمفردات هذا العتاب من دلالات كاشفة عن المشاعر النفسية، ومن إيحاءات معبرة ومترجمة لهذا الموقف من العتاب، وهذا ما يتجلى لنا من خلال الدراسة التحليلية لخصائص النظم فى هذا الموقف من العتاب وما يحسه ويتنبه إليه المتلقى والمتذوق لبلاغة القرآن فى مفرداته وتراكيبه.

الموقف الثانى

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى موقفه من أسرى بدر وقبوله أخذ الفداء منهم

قال ـــ سبحانه ـــ : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم* لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ [١].

حيث اختار رسول الله ـــ ﷺ ـــ قبول أخذ الفداء من الأسرى على القتل والإثخان فى الأرض، لأنه من اليسر والرحمة، (وكان رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما)[٢]، وقد خفى على النبى ـــ ﷺ ـــ شئ لم يعلمه إلا الله، وهو إضمار بعضهم أن يتأهبوا لقتال المسلمين بعد أن يرجعوا إلى قومهم، فكان هذا العتاب للنبي ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ولأصحابه ـــ رضوان الله عليهم أجمعين ـــ الذين أشاروا عليه بقبول الفداء.

فعاتبه الله ـــ سبحانه ـــ عتابا رقيقا لطيفا جاء فى أبلغ صورة وفى أدق تعبير، حيث لم يخاطبه بالعتاب مباشرة، وإنما وجه عتابه إليه بصيغة الغيبة وكأنه يعاتب نبيا آخر سواه، وفى ذلك غاية التكريم لرسوله ـــ ﷺ ـــ إلى غير ذلك من دقائق وخصائص النظم القرآنى فى هذا العتاب.

---

(١) الآيتان (٦٧، ٦٨) من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ينظر : عمدة القارى بشرح صحيح البخارى : ١٦ / ١١٢ .

الموقف الثالث

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى إذنه للمنافقين أن يتخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك

قال ـ جل شأنه ـ:

﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ [1].

وكان هذا العتاب حينما استأذن فريق من المنافقين النبى ـ ﷺ ـ أن يتخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك، فأذن لهم النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ اجتهادا منه حملا للناس على الصدق، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، فكشف الله أمرهم فى صورة عتاب للنبى ـ ﷺ ـ.

وجاء هذا العتاب فى صورة بديعة، لأن فى تصدير الخطاب بهذا التعبير (عفا الله عنك) تعظيم لقدر النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتوقير له، وتوقير لحرمته، حيث افتتح العتاب بالإعلام بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب، وفى ذلك تكريم وتشريف عظيمين لمكانة الرسول ـ ﷺ ـ عند الله ـ تعالى ـ إلى غير ذلك من دقائق التعبير فى هذا العتاب.

الموقف الرابع

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ حين حرم على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه.

قال ـ عز من قائل ـ: ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي

---

[1] الآية (٤٣) من سورة التوبة.

مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾ [١].

فنجد أن هذا العتاب قد بدأ بالنداء (يا أيها النبى) وفى ذلك تنبيه على أن ما سيذكر عقبه أمر مهم يجب أن يهتم به النبى ـ ﷺ ـ والأمة، وأسلوب النداء يعد طريقا من طرق التشويق إلى المعنى فى القرآن الكريم، لأنه يهيئ المنادى وينبهه، فيصغى بعناية وتشوق إلى ما يوجه إليه بعد النداء ويترقبه.

كذلك نلاحظ من دقائق التعبير فى هذا العتاب أنه بدأ بخطاب الرسول ـ ﷺ ـ بقوله (يا أيها النبى) مع أن الموقف عتاب ولوم، وهذا دليل على ما للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من مكانه فى التكريم والتعظيم عند الله تعالى ـ حيث ناداه بأشرف وصف وهو وصف النبوة والاصطفاء، فهذا من حسن التلطف به والتنويه بشأنه ـ ﷺ ـ إلى غير ذلك من خصائص النظم القرآنى فى هذا الأسلوب من العتاب.

الموقف الخامس

عتابه ـ ﷺ ـ فى قصة زواجه من السيدة زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ

قال ـ جل وعلا ـ: ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا﴾[٢].

---

[١] الآية الأولى من سورة التحريم.

[٢] سورة الأحزاب الآية رقم (٣٧).

وكان هذا العتاب يستهدف إعلاء مثالية من المثاليات التى ينبغى أن يتحلى بها رسول الله ـ ﷺ ـ مهما يكن من مشقة نفسية، ويستهدف تقرير قيمة من قيم هذا الدين، يحرص الله على أن تسود، ويستهدف إحداث تغيير فى المجتمع بما يشرعه الله من تشريع لم يكن قائما فى الجاهلية، هذا العتاب يستهدف أن يكون النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على الوجه الأمثل، وأن يكون القدوة والأسوة الحسنة للناس جميعا.

وسوف نرى كيف جاء هذا العتاب فى ثوب الحكاية، وما تجوى عليه من سرد فيه تشويق، وتآلف فى الصياغة على نحو يبدو فيه الترابط الواضح والبناء المتماسك، مما له أثر كبير فى انتظام المتابعة، وارتياح المتلق، حتى يتعرف على أوجه الإعجاز القرآنى فى نظم هذا الأسلوب من العتاب.

الموقف السادس

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الكفار والمنافقين وأهل الكتاب وجاء هذا العتاب فى ثلاثة مواضع هى:

الموضع الأول: عتابه ـ ﷺ ـ فى استغفاره للمشركين، وبيان أنه لا يهدى من يحب ولكن الله يهدى من يشاء.

قال تعالى: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ [1]

---

[1] الآية (١١٣) من سورة التوبة.

وقال سبحانه: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ [١].

الموضع الثانى: عتابه ـ ﷺ ـ على شدة حزنه على عدم إيمان قومه وتحسره عليهم وشدة حرصه على هدايتهم.

قال ـ عز وجل ـ: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [٢].

الموضع الثالث: عتابه ـ ﷺ ـ حين هم أن يحكم على اليهودى وهو برئ.

قال ـ جل شأنه ـ: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخآئنين خصيما* واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما* ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ... ﴾ الآيات[٣].

لنرى كيف يضرب الإسلام أروع الأمثلة فى العدل والإنصاف فى الوقت الذى تسرى فيه التعصب الأعمى للديانات الأخرى ضد الإسلام، والعمل هلى تشويه صورته ـ خاصة فى وقتنا هذا بما يدور فى المحيط العالمى ـ وليت هؤلاء الذين يتعصبون لدينهم وجنسهم ضد الإسلام، بل يحملهم التعصب الأعمى إلى إدانة واضطهاد البرآء من

---

[١] الآية (٥٦) من سورة القصص.

[٢] الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

[٣] الآيات من (١٠٥ ـ ١٠٩) من سورة النساء.

غير جنسهم بغير حق لأنهم مسلمون.

ليتهم يتفهمون ويتدبرون ما جاء به الإسلام من حث على العدل والإنصاف، حتى مع الأعداء، وكيف كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من أول المنفذين والمطبقين لتلك التعالم، وتلك القيم والمبادئ الرشيدة التى يقع عليها صلاح الأمة والمجتمع والحياة، ولا توجد عدالة تقترب من عدالة الإسلام فى سموها ونقائها واستقامة منهجها.

هذا بالإضافة إلى السمات والخصائص التى تميز بها النظم القرآنى فى هذا العتاب.

الموقف السابع

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الضعفاء من المؤمنين

ويشتمل هذا العتاب على موضعين بالإضافة إلى موقف العتاب الأول فى إعراضه ـ ﷺ ـ عن عبد الله ابن أم مكتوم، وهذان الموضعان هما:

الموضع الأول: عتابه ـ ﷺ ـ حين طلب منه كبراء قريش أن يطرد هؤلاء الضعفاء من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾ [١].

---

[١] الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

الموضع الثانى: عتابه ـ ﷺ ـ حين أمره الله ـ تعالى ـ أن يحبس نفسه مع الفقراء ولا يتطلع إلى الكبراء.

قال ـ سبحانه ـ: ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا* وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ...** ﴾ الخ الآية [1].

إن هؤلاء الفقراء والضعفاء لهم خير عند الله ـ تعالى ـ ولم يقف الأمر عند حد نهى النبى ـ ﷺ ـ عن طردهم، بل أمره أن يزيد من حفاوته لهم وأن يحبس نفسه معهم، وألا تتجاوز عيناه النظر عن أولئك الصفوة طلبا لإسلام الكبراء، وهكذا يضرب أروع الأمثلة فى العدل والمساواة بين الخلق جميعا، وأن العبرة فى التفوق والتفضيل بالتقوى والعمل الصالح.

ونرى كيف كان موقف العتاب فى سورة الكهف متمم ومكمل لموقف العتاب الذى جاء فى سورة الأنعام بشأن هؤلاء الضعفاء وما فيها من نظم بديع.

الموقف الثامن

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الاستثناء

قال ـ عز وجل ـ: ﴿ **ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا* إلا أن يشاء**

---

[1] الآيتان (٢٨، ٢٩) من سورة الكهف.

الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا﴾ [١].

وذلك حين سئل النبى ـ ﷺ ـ عن أمور فى علم المغيبات، وهى: الروح وأصحاب الكهف وذو القرنين ، فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ غدا سأخبركم ولم يستثن نسيانا، لذا أرشده الله ـ تعالى ـ فى صورة عتاب رقيق لطيف بأن لا يقول قولا ولا يفعل فعلا إلا مقرونا بمشيئة الله ـ تعالى ـ وإرادته.

وهكذا يعلمنا الله ـ تعالى ـ أن مقام الأدب مع الله ـ سبحانه ـ يقتضى أن يرد الإنسان كل شئ إلى مشيئة الله ـ تعالى ـ علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأن هذا هو المنهج القيم الذى يأخذ به قلب المؤمن.

وبمشيئة الله ـ تعالى ـ سوف أقوم بتحليل هذه المواقف من عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ـ ﷺ ـ حتى يتسنى لنا معرفة دقائق وخصائص النظم القرآنى فى هذا الأسلوب البديع، وما اشتمل عليه من سمات خاصة ينفرد بها من تكثيف للمعانى عن طريق الإيجاز البليغ، مع ما يحفل به التعبير ـ على إيجازه ـ من مؤثرات وكيف أن آية واحدة ذات جمل محدودة نراها تحكى موقفا يبعث على العتاب، وتحمل فى طياتها توجيها نحو قيم مثالية، وأحاسيس كثيرة، وجلت لنا موقفا كاملا من مواقف العتاب، وتشريعا جديدا من التشريعات الإسلامية العظيمة.

---

[١] الآيتان (٢٣، ٢٤) من سورة الكهف.

وبالتأمل فى هذه المواقف السابقة من العتاب يتضح لنـــا أن هـــذا الأسلوب من النظم القرآنى ينطوى على كثير من أساليب الاســـتفهام ، وكثيرا ما يأتى الاستفهام من وسائل عرضه بما يحمله أسلوب الاستفهام من معنى اللوم، ولأنه الأسلوب الأكثر طواعية لجو العتاب ، وســـوف يظهر لنا المزيد من اللطائف التعبيرية لأسلوب الاســـتفهام ومطابقتـــه لموقف العتاب .

كذلك نقف على بلاغة هذا اللون من النظم القرآنى وإعجازه مـــن تلاحم النظم وتآلف الصياغة على نحو يبدو فيه الترابط الواضح والبناء المتماسك فى التعبير مما له أثر كبير فى انتظـــام المتابعـــة وارتيـــاح المتلقى .

وحتى نقف على دقة اختيار المفردات المعبرة فى النظم القرآنى ، وما لمفردات هذا العتاب من دلالات كاشفة عن المشاعر النفسية ، وما لها من إيحاءات معبرة ومترجمة لهذا الموقف من العتاب ، وهذا مـــا يحسه ويتنبه إليه المتلقى والمتذوق لبلاغة القرآن فى مفرداته وتراكيبه.

ونرى كيف كان المولى ـ سبحانه وتعـــالى ـ رحيمـــا لطيفـــا برسوله ـ ﷺ ـ حيث لم يخاطبه ـ عز وجل ـ بالعتـــاب مباشـــرة ، وإنما يوجه إليه العتاب على سبيل الغيبة ـ فى أغلب مواقف العتاب ـ وكأنه يعاتب نبيا آخر سواه ، وذلك غاية الترفق والتلطف مع الحبيـــب المصطفى ـ ﷺ ـ .

الموقف الأول

عتاب الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - فى إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى إعراضه عن عبد الله ابن أم مكتوم

هذا موقف من المواقف التى عاتب الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه محمداً ـ ﷺ ـ لأن فيه ما يدعو إلى هذا العتاب الرقيق اللطيف ، ولأن هذا الموقف العتابى كان منطلقاً ملائماً لغرس القيم الإسلامية ، وتربية الجماعة الإسلامية الناشئة على قيم ومبادئ سامية وسديدة ، تقوم على أساس المساواة بين الخلق جميعاً ، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، .. إلا بالتقوى والعمل والصالح.

ذلك الموقف وتلك المناسبة التى نزلت فيها الآيات الأولى من سورة " عبس " حيث يقول المولى ـ عز وجل ـ :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَن جَاءهُ الْأَعْمَى*وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى*أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى*أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى*فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى*وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى*وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى*وَهُوَ يَخْشَى*فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى*كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ (١)

وسبب نزول هذه الآيات ، وهذا العتاب من الله ـ تعالى ـ لنبيه محمداً ـ ﷺ ـ ما روى أن عبد الله بن أم مكتوم(٢) أتى النبى

---

(١) سورة عبس ، الآيات من (١-١١) .

(٢) اسمه عمر بن قيس وهو ابن خال السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وأم مكتوم كنيه أمه ، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، وكان أعمى ، وعمى بعد نور ، وقيل ولد أعمى ، لذا قيل لأمه أم مكتوم ، ولاّه النبى ـ ﷺ ـ على المدينة ، ومات بالقادسية شهيداً يوم فتح المدائن أيام عمر رضى الله عنه ، ينظر : ترجمته فى : أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير : ٢٦٣/٤، ٢٦٤ ، ط : الشعب .

ـ ﷺ ـ وعنده صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعه ، وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ؛ يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال يا رسول الله : أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ـ تعالى ـ وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله ـ ﷺ ـ قطعه لكلامه وعبس وأعرض فنزلت الآيات .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يكرمه ويقول إذا رأه : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ، ويقول هل لك من حاجه ، واستخلفه ـ ﷺ ـ على المدينة ، ومات بالقادسية شهيدا يوم فتح المدائن أيام عمر ـ رضى الله عنه ـ ورآه أنس بن مالك يومئذ وعليه درع وله راية سوداء[1].

ونلمح من هذا العتاب التنويه بضعفاء المؤمنين وعلو قدرهم ، ووقع الخير من نفوسهم والخشية ، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس ، وأنهم أحرياء بالتحقير والذم ، وأنهم أصحاب الكفر والفجور.

فتجاهل راغب فى التذكى والتذكر والإقبال على من لا ترجى هدايته ليس مما يرتضيه الله ـ تعالى ـ ولأن الانصراف عن فقير أعمى ولتصدى لسادة أغنياء ليس مما يتفق مع القيمة والمبدأ أو الأساس الذى يقرره قوله ـ جل وعلا ـ : ﴿ إن أكرمكم عند الله

---

[1] راجع ذلك فى : أسباب النزول للسيوطى ص ٥٢٦، ٥٢٧ ، والكشاف :٤/٢١٧ ، ومفاتيح الغيب :٣١/٢١٤ ، وروح المعانى :٣٠/٣٩ ، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية :٣/١٧٨٣، ١٧٨٤ .

أتقاكم ﴾ [١] ، فلهذا جاء العتاب .

ونحن بصدد التحليل هذا الموقف العتابى ، نقف أمام تعبير قرآنى فيه سمات الأسلوب القرآنى الذى بلغ الدرجة العليا من البراعة والبلاغة ، ومع ذلك نلمح فيه خصائص وسمات تبرزه كأسلوب عتاب متفرد فى ظواهره يمكن أن نشير إلى هذه الدقائق وتلك السمات فيما يلى :

أولا ـ دلالة المفردات وإيحاءاتها :

من يتدبر هذه الآيات يجد أن أول ما يتنبه إليه المتلقى الذواقة ويحسه ما للألفاظ من دلالات كاشفة عن المشاعر النفسية لشخوص الموقف.

فكلمة (عبس) بدلالتها اللغوية ، وما تنطق به من تغير الوجه ، وأن معناها (قطب ما بين عينيه) وما جاءت عليه مشتقاتها من دلالة على الشدة كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا** ﴾[٢] فهذه الكلمة تدل واضحة على غضب النبى ـ ﷺ ـ وكراهته فعل ابن أم مكتوم ، وإعراضه عنه .

وتجئ كلمة (تولى) بعدها مؤكدة ذلك المعنى ومتممة له وكاشفة

---

[١] من الآية رقم (١٣) من سورة الحجرات .

[٢] الآية رقم (١٠) من سورة الإنسان ، وينظر : لسان العرب مادة (ع ب س) : ١٢٨/٦ .

عن مدى إعراض الرسول ـ ﷺ ـ عن هذا الرجل[١].

فإذا ذهبنا إلى كلمات أخرى فى الآيات مثل قوله ـ تعالى ـ (فأنت له تصدى) ووقفنا عند الفعل (تصدى) وجدناه موحيا بشدة إقبال النبى ـ ﷺ ـ على هؤلاء السادة الكبار ، ويأتى هذا الإيحاء من دلالاتها المعجمية فهى ذات معان من بينها : تصدى الرجل للرجل تعرض له وتضرع ، وهو الذى يستشرفه ناظرا إليه ... ومنها المصادة قال أهل الكوفة هى المداراة ، وقال الأصمعى : هى العناية بالشئ[٢].

وأحسب أن مجئ المداراة من بين معانيها يلمح إلى دافع من دوافع الإقبال وهو مداراة هؤلاء الوجوه استمالة لهم ،وحرصا على إسلامهم به : إدارية ، وتقول : من صاداك فقد صادك "[٣].

وكما تلمح الكلمات إلى نفسية الرسول ـ كما ذكرنا ـ تشير كذلك إلى ما انطوت عليه نفس ابن أم مكتوم ـ رضى الله عنه ـ من حرص على الانتفاع بالذكرى ، واستعداده للتزكى ، ولنأخذ من ذلك دلالة كلمة (يسعى) على الدأب المستمر بدافع الرغبة والحرص.

ويؤكد ذلك ما يعكسه تعلق الفعل (جاء) بكاف المخاطب وهو الرسول ـ ﷺ ـ فذلك يوضح أن حركة الساعى كانت موجهة إليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خاصة رجاء الاسترشاد .

---

(١) راجع ذلك فى التفسير الوسيط : ١٧٨٤/٣ ، والتحرير والتنوير :١٠٤/٣٠ .

(٢) لسان العرب مادة (ص د د) :٢٤٧/٣ ، ومختار الصحاح مادة (ص د د) ص ٣٥٧ .

(٣) أساس البلاغة مادة (ص د د) ص ٤٢٣ ط الشعب

وعند الحديث عن السادة ، فقد كانت كلمة واحدة قادرة على كشف نفوسهم ، وما انطوت عليه من استعلاء وصد ، وهى كلمة (استغنى) ، ويدعم ذلك حذف المتعلق ، ولنا أن نتصوره (استغنى بماله وجاهة فاستعلى أو استغنى عن الهدى ، فلم يجد نفسه بحاجة إليها)فمهما يكن استغناء موجها ،فهو دال على صدهم واستعلائهم[١].

ثانيا ـ الطاقة التصويرية التى تحفل بها الكلمات :

وسمة أخرى تتبدى واضحة جلية لمن يحرك فى تلقية المشاهدة ، وأعنى بها الطاقة التصويرية التى تحفل بها الكلمات فى ذاتها ، وفى تراكيبها ونلمح ذلك جليا فيما يلى :

فالكلمة (عبس) ترسم صورة واضحة لقسمات الوجه فى حالة الإعراض وكراهة الإصغاء للمتحدث ، ولعل وقع الكلمة وجرسها هو الذى دفع مفسرا له وزنه هو الإمام القرطبى أن يقول فى تفسيرها : "عبس : أى كلح بوجهه "[٢] ، وينقله عنه الإمام النسفى فى تفسيره[٣].

وتفسير الكلمة على هذا النحو ينافى الدقة اللغوية ، ولا يلائم إطلاق الكلمات فى مقام الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ .

أما منافاة هذا التفسير للدقة اللغوية فلأن المادة إنما تأتى بمعنى (كلح) إذا جاءت مضعفة لتفيد المبالغة ، أو حينما يكون العبوس

---

(١) راجع ذلك فى : روح المعانى :٣٠/٤٠ ، ٤١ ، والتفسير الوسيط :٣/١٧٨٥، والتحرير والتنوير :٣٠/١٠٧،١٠٨ .

(٢) الجامع لأحكام القران :٣٠/٢١٣.

(٣) ينظر : تفسير النسفى :٤/٥٧٣ .

مصحوبا بحركة فى الوجه ، جاء فى لسان العرب " عبس بالتشديد تعبيسا .. شدد للمبالغة ، فإن كشر عن أسنانه فهو كالح ، وقيل عبس بالتشديد كلح ، وفى صفته ـ ﷺ ـ (لا عابس ولا مفند) العابس : الكريه الملقا الجهم المحيا والمفند : من يقابل أحدا فى وجهه بما يكره ، ونفى ذلك يدل على الخلق العظيم[١].

ولعل هذا الاستطراد كان مفيدا حتى نتمكن من اختيار الأدق والأنسب فى تفسير الكلمات ، وخير ما نفسر به كلمة (عبس) هو "قطب ما بين عينيه ، وهذا التفسير كاف فى رسم صورة حية للتغير الذى بدأ على الرسول ـ ﷺ ـ[٢].

ثم بعد ذلك تجئ كلمة (تولى) حين تتعدى بـ (عن) لفظا أو تقديرا بمعنى : الإعراض بالجسم بترك الإصغاء[٣] ، والكلمة مصورة تصويرا بارعا ، فهى تنقل لنا إعراضا فى حركة محسة نشهدها ، ونتمثلها فى أعراض النبى ـ ﷺ ـ عن هذا الرجل .

ثم تأتى بعد ذلك كلمة (تصدى) فترسم صورة لإقبال الرسول ـ ﷺ ـ على الكبراء ، وأما كلمة (تلهى) فتعرض صورة لتشاغله ـ ﷺ ـ عن الأعمى.

وهكذا تتلاقى طاقة الكلمات المصورة بذاتها مع العبارات فى

---

(١) لسان العرب مادة (ع ب س) : ١٢٨/٦.

(٢) ينظر : التفسير الوسيط :١٧٨٤/٣ ، والتحرير والتنوير :١٠٤/٣٠ .

(٣) ينظر : لسان العرب مادة (و ل ى) : ٤١٥/١٥ ، وأساس البلاغة مادة (و ل ى) ص ٥٢٥ .

صياغتها فيستدعينا العرض لنتابع مشهداً كاملاً حافلاً بالحركة نابضاً بالمشاعر ، فنرى الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى تغيره وإعراضه عن الفقير المسترشد ، ونشهد ابن أم مكتوم فى خطواته الدؤوب وفى حرصه على التعليم ، ورغبته الملحة فى الانتفاع ، ونكاد نسمع دوى الصوت وهو يهتف : يا رسول الله : علمنى مما علمك الله ، وفى المشهد نفسه تتراءى لنا كبرياء السادة الزائفة فى استغنائهم الواهم ، ويتبدى لنا الرسول ـ ﷺ ـ فى حرصه على هدايتهم يقبل عليهم فى عناية واهتمام إقبال الظامئ على الماء ، كما يلمح الأصل اللغوى للصدى وهو العطش[1]، ويشغله الاهتمام الشديد بهم عمن كان أولى بعنايته فيعبث ويتلهى ، إنه لمشهد حى متحرك حافل بالمفارقات المثيرة ، ولعل هذه المقابلة بين العبوس فى وجه المقبل الراغب ، والإقبال الشديد على المستغنى المعرض هى التى تبرز الغرابة التى تجعل العتاب يلتقى بموقفه ، ويأتى فى حينه ، مستجيباً لدافعه .

والتولى أصله تحّول الذات عن مكانها ، ويستعار لعدم اشتغال المرء بكلام يلقى إليه أو جليس يحل عنده ، وهو هنا مستعار لعدم الاشتغال بسؤال سائل ولعدم الإقبال على الزائر ، وحذف مفعول تولى لظهور أنه تول عن الذى مجيئه كان سبب التولى .

لماذا عبر عن ابن أم مكتوم بالأعمى ؟

نلاحظ أن التعبير القرآنى قد عبر عن عبد الله ابن أم مكتوم

---

(١) ينظر : لسان العرب مادة (ص د ى) : ٤٥٣/١٤ والقاموس المحيط مادة (ص د ى) :٣٤٤/٤ ، وصفوة البيان لمعانى القران للشيخ حسنين مخلوف :٧٨٣/٢.

بالأعمى ولم يسمه باسمه وذلك ترفيقا للنبى ـ ﷺ ـ ليكون العتاب ملحوظاً فيه أنه لما كان صاحب ضرارة فهو أجدر بالعناية به ، لأن مثله يكون سريعاً إلى انكسار خاطره ، والعلم بالحادثة يدل على أن المراد مجئ خاص وأعمى معهود ، أضف إلى ذلك ما فيه من الإشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلام الرسول ـ ﷺ ـ .

روعة وجمال أسلوب الالتفات فى الآيات :

فى قوله تعالى : ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ نلمح أن التعبير جاء بضمير الغيبة ففيه التفات على مذهب السكاكى[1] دون جمهور البلاغيين ، وذلك لأن المقام فى أول السورة هنا للخطاب ، فالأصل أن يقال فى غير القرآن " عبست وتوليت أن جاءك الأعمى " ولكنه عدل عما يقتضيه المقام لغرض بلاغى وهو الإجلال له ـ ﷺ ـ لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره ، لأنه لا يصدر عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مثله .

ولما كان مقام النبى ـ ﷺ ـ أجل وأكرم على الله ـ تعالى ـ من أن يواجهه فى مقام العتاب بأسلوب الخطاب ، لما فيه من صراحة وجفاء ، لذلك عدل النظم القرآنى عن التعبير بضمير الخطاب إلى

---

(١) حيث وسع دائرة الالتفات ورأى أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم أو الخطاب أو الغيبة) بعد التعبير عنه بطريق اخر منها ، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره ، ينظر : مفتاح العلوم ص ١٩٩ص، ومفتاح المفتاح للعلامة الشيرازى : ٢٥٨/١ ، والإشارات والتنبيهات ص ٥٦ ، وبغية الإيضاح : ٢٥٢/١ ، و البلاغة القرانية فى تفسير الزمخشرى ص ٣٧٠ ، وخصائص التراكيب ١٩٤،١٩٥ .

ضمير الغيبة وذلك للتلطف فى عتابه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مراعاة لفضله ، وتعظيماً لقدره ، وتعليماً للخلق جميعاً كى يتأدبوا معه ويعلموا مدى قدره ومكانته عند الله سبحانه وتعالى[١].

وصيغة الخبر مستعملة فى العتاب على الغفلة عن المقصود الذى تضمنه الخبر وهو اقتصار النبى ـ ﷺ ـ على الأغنياء بالحرص على تبليغ الدعوة إلى من يرجو منه قبلوها مع الذهول عن التأمل فيما يقارن ذلك من تعليم من يرغب فى علم الدين ممن آمن ، ولما كان صدور ذلك من الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام ، فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثاً على أن يترقب المعنى من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب.

وهذا تلطف من الله ـ جل وعلا ـ برسوله ـ ﷺ ـ ليقع العتاب فى نفسه مدرجاً وذلك أهون وقعاً ، ونظير هذا قوله ـ سبحانه وتعالى : ـ ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾[٢] أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب حتى سكن قلبه وبمشيئة الله ـ تعالى ـ وتوفيقه سوف يأتى توضيح هذا الموقف من العتاب بالتفصيل فى حينه ، فكذلك توجيه العتاب إليه مسنداً إلى ضمير الغائب ، ثم جئ بضمائر الغيبة ، فذكر الأعمى تظهر

---

(١) راجع ذلك فى : الكشاف : ٢١٨/٤ ، ومفاتيح الغيب : ٢١٧/٣١ ، وروح المعانى : ٣٩/٣٠ .

(٢) الآية رقم (٤٣) من سورة التوبة ، وكان هذا العتاب حينما أستأذن فريق من المنافقين النبى ـ ﷺ ـ فى أن يتخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك .

المراد من القصة ، واتضح المراد من ضمير الغيبة .

ويظهر أن النبى ـ ﷺ ـ رجا من المجلس أن يسلموا فيسلم بإسلامهم جمهور قريش أو جميعهم ، فكان دخول ابن أم مكتوم قطعاً لسلك الحديث ، وجعل يقول للنبى ـ ﷺ ـ يا رسول الله ، علمنى أرشدنى ، ويناديه ويكثر النداء والالحاح فظهرت الكراهية فى وجه الرسول ـ ﷺ ـ لعله لقطعه عليه كلامه وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون[(١)].

وفى قوله تعالى : ﴿ **وما يدريك لعله يزكى** ﴾ نلاحظ أن التعبير قد انتقل من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب ، فهو من قبيل الالتفات على رأى الجمهور والسكاكى[(٢)].

والقيمة البلاغية من هذا التحول وهذا الالتفات الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض ، وقيل إن التعبير بالغيبة أولاً وبالخطاب ثانياً لزيادة الإنكار ، وذلك كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ثم يقبل على الجانى إذا حمى على الشكاية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجة ، وفى ذكر الأعمى نحو من ذلك لأنه وصف يناسب الإقبال عليه والتعطف ، وفيه أيضاً دفع إيهام الاختصاص بالأعمى المعين

---

(١) راجع ذلك فى : التفسير الوسيط : ١٧٨٤/٣ ، والتحرير والتنوير : ١٠٤/٣٠، ١٠٥ .

(٢) راجع تعريف الالتفات والقيمة البلاغية لهذا اللون فى : مجموعة شروح التلخيص : ٤٧٢/١ وما بعدها ، والبرهان : ٣١٤/٣ ، وفن البلاغة ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ودراسات منهجية فى البلاغة العربية للمؤلف ص ٢٢٠ .

وإيماء إلى أن كل ضعيف يستحق الإقبال عليه والرأفة به[١].

وقوله (لعله يزكى) أى : أى يتطهر من أوضار الإثم بما يسمع منك من نصح وإرشاد وعلم ومعرفة (أو يذكر فتنفعه الذكرى) أى : يتعظ بتذكيرك : إياه فتنفعه ذكراك وموعظتك وإن لم تبلغ إلى درجة التزكى التام .

والترجى فى الآية للدلالة على أن رجاء تزكية أو كونه ممن يرجى منه ذلك كاف فى الامتناع عن العبوث له والإعراض عنه ، فكيف وقد كان تطهره محققاً لأنه من السابقين إلى الإسلام .

وفى الآية تعريض وإشعار بأن من تعرض ـ ﷺ ـ لتزكيتهم وتذكيرهم من أشراف قريش لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلاً ، والمعنى : انظر فقد يكون تزكية مرجواً ، أى إذا أقبلت عليه بالإرشاد زاد الإيمان رسوخاً فى نفسه وفعل خيرات كثيرة مما ترشده إليه فزاد تذكية ، فالمراد به يتزكى تزكية زائدة على تذكية الإيمان بالتملى بفضائل شرائعه ومكارم أخلاقه مما يفيضه هديك عليه ، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ : " لو أنكم تكونوا إذا خرجتم من عندى كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة "[٢].إذ الهدى الذى يزداد به المؤمن رفعة وكمالاً فى درجات الإيمان هو كاهتداء الكافر إلى الإيمان لا سيما إذ الغاية من الاهتداءين واحدة .

---

(١) ينظر الكشاف : ٢١٨/٤ ، وتفسير أبى السعود : ١٠٧/٩ ، وروح المعانى : ٣٩/٣٠، ٤٠.

(٢) أخرجه الترمذى ، ينظر : سنن الترمزى : ٥٨٠/٤ ، ح رقم ٢٥٢٦ .

وجملة (أو يذكر) عطف على يزكى ، أى : ما يدريك أن يحصل أحد الأمرين وكلاهما مهم ، أى : تحصل الذكرى فى نفسه بالإرشاد لما لم يكن يعلمه ، أو تذكر لما كان فى غفلة عنه ، وفى قوله تعالى : ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ اكتفاء ، عن أن يقول : فينفعه التزكى وتنفعه الذكرى لظهور أن كليهما نفع له .

والذكرى : هو القرآن الكريم ، لأنه يذكر الناس بما يغفلون عنه قال تعالى ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ [١] ، فقد كان فيما سأل عنه ابن أم مكتوم آيات من القرآن [٢].

وقوله تعالى ﴿ لعله يزكى﴾ استئناف وارد لبيان ما يلوح به ما قبله ، فإنه مع إشعاره بأنه ليس شأنا منافيا للإعراض عنه خارجا عن دراية الغير ، وإدرائه مؤذن بأنه تعالى يدريه ذلك ، واعتبر فى التزكى الكمال ، فقال : أى لعلة يتطهر بما يقتبس من أوضار الاثم بالكلية ، أو يتذكر فتنفعه موعظتك إن لم تبلغ درجة التزكى التام .

وقدم التزكى على التذكر لتقدم التخلية على التحلية ، وخص بعضهم الثانى بما إذا كان يتعلمه من النوافل ، والأول بما إذا كان سوى ذلك وهنا نلمح جمال التعريض بهؤلاء الكفرة الذين لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلا فهى كقولك لمن يقرر مسئلة لمن لا يفهمها وعنده آخر قابل لفهمها لعل هذا يفهم ما تقرر ، فإنه يشعر بأنه قصد تفهيم غيره وليس بأهل لما قصده ، وقيل جاء بالتعريض من جهة أن

---

[١] الآية رقم (٩٠) من سورة الأنعام .

[٢] راجع ذلك فى : روح المعانى : ٣٠/٤٠ ، والتحرير والتنوير : ٣/١٠٦،١٠٧ .

المحدث عنه كان متزكياً من الآثام متعظاً[١].

كذلك نلاحظ من السمات العامة على هذه الآيات السابقة قدرة الأسلوب القرآنى على تحريك تصورات فنية لدى المتذوق لكلام الله ـ تعالى ـ وذلك بما تلقيه هذه التعبيرات الكريمة من إيحاءات تختلف باختلاف حال المتلقى واستعداده الحسى ، ودرجة استلهامه ، تلك الإيحاءات تلمح إليها الأساليب .

والذى ينظر هنا إلى سياق الآيات يجد أنه قد استهل القصة بالحكاية عن الغائب فى آيتين : ﴿ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى ﴾ .

وبعده يجئ الخطاب مبتدئاً بأسلوب الاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ ، ثم بعد ذلك ينتقل الأسلوب إلى مواجهة الرسول ـ ﷺ ـ بما كان منه من التصدى والتلهى ، ولقد أثار هذا المنهج التعبيرى إيحاءات متعددة ومختلفة مما أدى إلى اختلاف درجة التلقى عند المفسرين وتذوقهم لهذا التغاير فى الأسلوب .

فيرى القرطبى أن مجئ (عبس وتولى) بلفظ الإخبار بضمير الغيبة فيه تعظيم لقدره ـ ﷺ ـ ، فلم يقل : (عبست وتوليت) ، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً فقال : ﴿ وما يدريك ... ﴾ [٢].

أما الزمخشرى فيرى أن " الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى

---

[١] ينظر : تفسير أبى السعود : ١٠٨،١٠٧/٩ ، وروح المعانى : ٤٠/٣٠ .

[٢] الجامع لأحكام القران : ٢١٣/٣٠ .

عليه ثم يقبل على الجانى إذا حمى بالشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلـــزام الحجة "[١].

وعندما ننظر إلى التفاوت بين وقع التعبير عند كل من القرطبـــى والزمخشرى نرى كيف اختلف التصور فى القيمة الفنية والدلالة التـــى يحملها هذا النسق التعبيرى ، فبينما يراه القرطبى يستهدف التعظيم أولاً والتأنيس ثانياً ، يراه الزمخشرى موحياً بالإنكار الزائد أولاً وأخـــيراً ، ويضرب للتعبير مثلاً بما يجرى بين المتخاصمين من شـــكاية تحمـــل روح التوبيخ .

فإذا انتقلنا إلى رأى الألوسى رأيناه يقول :" والتعبير عنه — ﷺ — بضمير الغيبة إجلال له — ﷺ — لإيهام أن من صدر عنه ذلك غـــيره ، لأنه — صلوات الله وسلامه عليه — لا يصدر عنه مثله ، كما أن فـــى التعبير عنه — ﷺ — بضمير الخطاب فى قوله سبحانه (وما يدريـــك) ، ذلك لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض "[٢].

ورأى الألوسى هذا هو ما رجحه أكثر المفسرين ، وهو يجـــرى على مقربة من القرطبى ، فهو يلتقى معه فى الدلالة المســـتوحاه مـــن الاستفهام ، ويكاد يلتقى به فى إيحاء الإخبار لولا ما عقب به بعد قولـــه (إجلال له) فكلماته بعد ذلك تشعرنا بأنه أحس فى الإخبار شيئاً من لوم خفى فكأن مؤداه (مثلك يا محمد لا يصدر عنه ذلك) .

---

[١] الكشاف : ٢١٨/٤ ، ووافقه فى رأيه هذا الإمام فخر الدين الرازى : ينظر : مفـــاتيح الغيب : ٢١٧/٣١ .

[٢] روح المعانى : ٣٩/٣٠ .

ومن يدقق النظر فى نظم هذه الآيات يجد أنها استهدفت العتاب وهو يعنى أن أمراً يستدعى توجيه النظر إلى الأسلوب الأمثل فى رعاية حال المؤمن الفقير الراغب فى الاسترشاد ، ويتبع ذلك بالضرورة تضمن الأسلوب ما يشعر بأن ما حدث كان ينبغى ألا يحدث.

ولا شك أن العدول فى الأسلوب عن الخطاب أولاً يشعر بأن العبوس والتولى ليس مما يبعث الرضا ، ويجئ الخطاب من بعده مشعراً باللوم على ما كان ، وذلك ببيان الغرابة فى هذا التصرف ، وهنا فالحديث عن التعظيم والإيناس على أن الأسلوب مشعر بهما — لا يلتقى مع روح العتاب التى يناسبها اللوم ، ولكنه لوم لا يصل إلى زيادة الإنكار وشدته تلك التى استشعرها صاحب الكشاف ، ذلك أن دوافع النبى — ﷺ — فى إقباله وفى إعراضه كانت للدعوة وحدها .

وللشيخ محمد عبده رؤية لدلالة التراوح بين الخبر والإنشاء يقول فيها : " وذكر خبر العبوس والتولى بالحكاية عن الغائب ليلفته إلى النظر فى الموقف ذاته صادراً من أى شخص نسب إليه ثم أقبل عليه بالخطاب بعد هذا تشديداً فى العتاب "[١].

وذلك رأى له وجه فهو يخرج بالموقف عن حدود الحدث والأشخاص ويكسبه رحابة وانفساحاً بلا حدود فى اتساعها ، لتكون منهج المسلمين أينما كانوا ، ومتى كانوا .

---

[١] ينظر : تفسير الشيخ محمد عبده : ١٦/٣٠ .

كذلك نجد المرحوم الشيخ سيد قطب يؤيد ما قاله الآلوسى فيقول : " عبس وتولى بصيغة الحكاية عن أحد غير المخـــاطب ، وفـــى هـــذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيـــث لا يحب ــ سبحانه ــ أن يواجه به نبيه وحبيبه عطفاً عليه ، ورحمة به ، وإكراماً له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه"(١)

هكذا تجلى لنا كيف أوحى التعبير القرآنى بدلالات متنوعة وكـــل قد استلهمها بما لديه من حاسة وتذوق ، والتعبير فيه من الثراء الـــذى يفى بأكثر من هذه الدلالات ، وسيبقى مع الزمن متجدداً كل يحـــاول أن يستشرف ويستلهم ، ويتذوق ومع كل استشراف واستلهام وتذوق يـــأتى بجديد ، فهو لا يزال بكراً إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ تفصيل لما وقع منـــه ــ ﷺ ــ والمعنى : مهما يكن الذى استغنى فأنت لـــه تصـــدى ، أى : مهما يكن شئ فالذى استغنى تتصدى له ، والمقصود : أنت تحـــرص على التصدى له ، فجعل مضمون الجواب وهو التصدى له معلقاً علـــى وجود من استغنى وملازماً له ملازمة التعليق الشرطى علـــى طريقـــة المبالغة.

والاستغناء : عدّ الشخص نفسه غنياً فى أمر يدل عليه الســـياق ، قول أو فعل ، أو علم ، وأكثر ما يســـتعمل الاســـتغناء فـــى التكـــبر والاعتزاز بالقوة ، فالمراد بـــ (من استغنى) هنا من عدّ نفسه غنيـــاً

---

(١) فى ظلال القرآن : ٦/٣٨٢٤ .

عن الإيمان وعن هديك بأن أعرض عن قبوله ، وعما عندك من العلوم والمعارف التى ينطوى عليها القرآن الكريم[١] .

وقوله ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أى : تتصدر وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده مع أنه معرض عن دعوتك ، وفيه مزيد تنفير له ـ ﷺ ـ عن مصاحبتهم والإقبال عليهم.

والإتيان بضمير المخاطب مظهرا قبل المسند الفعلى دون استتاره فى الفعل يجوز أن يكون للتقوى كأنه قيل : تتصدى له تصديا ، فمناط العتاب هو التصدى القوى ، ويجوز أن يكون مفيدا للاختصاص أى : فأنت لا غيرك تتصدى له ، أى ذلك التصدى لا يليق بك وهذا قريب من قولهم : مثلك لا يبخل ، أى لو تصدى له غيرك لكان هونا ، فأما أنت فلا يتصدى مثلك لمثله ، فمناط العتاب هو أنه وقع من النبى ـ ﷺ ـ فى جليل قدره[٢].

والتصدى : التعرض ، أطلق هنا على الإقبال الشديد مجازا على طريقة الاستعارة التبعية فى الفعل[٣] ولقد سبق الحديث عن قيمة استعمال هذه الكلمة دون غيرها لما فيها من إيحاء -مناسب- للمقام.

---

(١) راجع ذلك فى : روح المعانى ٣٠ /٤٠ ، والتفسير الوسيط : ١٧٨٤/٣ .

(٢) راجع ذلك فى : الكشاف : ٢١٨/٤ ، ومفاتيح الغيب : ٢١٩/٣١ ، والتحرير والتنوير : ١٠٨/٣٠ ، والتفسير الوسيط : ١٧٨٥/٣ .

(٣) راجع تعريف البلاغيين للاستعارة التبعية فى : تجريد البنانى: ٢٣٠/٢، وشرح الجوهر المكنون للشيخ أحمد الدمنهورى ص ٨٤، والتصوير البيانى أ.د/ حفنى شرف ص ١٧٨ ونظرات فى البيان أ.د/ الكردى ص ٢٠٥، ودراسات وتطبيقات فى علم البيان ص ٢٣٩.

وقوله جل وعلا: ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أى: ليس عليك بأس فى ألا يتطهر بالإسلام، حتى تحرص على الاهتمام بأمره، والإعراض عمن أسلم وتطهر، مع أن المستغنى قد رضى لنفسه دنس الكفر والعصيان ظاناً فى ما له غنى عن هداية الله وطاعته، والمعنى: عدم تزكيه ليس محمولاً عليك، أى لست مؤاخذاً بعدم اهتدائه حتى تزيد من الحرص على ترغيبه فى الإيمان ما لم يكلفك الله به، وهذا رفق من الله - تعالى - برسوله - ﷺ -.

وهذه الجملة (وما عليك ألا يزكى) جملة معترضة[1] بين جملة (أما من استغنى) وجملة (وأما من جاءك يسعى ... الآية) والواو اعتراضية ، ويجوز أن تكون (ما) استفهامية للإنكار ، أى أى شئ عليك فى ألا يتزكى ، ومآله النفى أى : لاشئ عليك[2] .

وقوله تعالى ﴿ وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى ﴾ عطف على جملة (أما من استغنى) اقتضى ذكره قصد المقابلة مع المعطوف عليها مقابلة الضدين إتماماً للتقسيم .

والمراد بمن جاء يسعى : هو ابن أم مكتوم ، فحصل بمضمون

---

(١) راجع تعريف الاعتراض وقيمته البلاغية فى الإيضاح: ٣١٣/١، ٣١٤، وشرح التلخيص للبابرتى ص ٤٥١، والأطول: ٩٦/٢، تح د/ عبد الحميد هنداوى ط دار الكتب العلمية بيروت، وعلم المعانى د/ درويش الجندى ص ١٨٥، والمعانى فى ضوء أساليب القران ص ٣٦٣.*

(٢) راجع ذلك فى : تفسير أبى السعود : ١٠٨/٩، وروح المعانى : ٤١/٣٠ ، والتفسير الوسيط : ١٧٨٥/٣، والتحرير والتنوير : ١٠٨/٣٠ .

هذه الجملة تأكيد لمضمون (عبس وتولى * أن جاءه الأعمى) ، والسعى : شدة المشى ، كنى به عن الحرص على اللقاء فهو مقابل لحال من استغنى ، لأن استغناءه استغناء المتألم والغاضب من التصدى له ، وحذف مفعول يخشى لظهوره ، لأن الخشية فى لسان الشرع تنصرف إلى خشية الله تعالى .

والمعنى : أنه جاء طلبا للتزكية لأن يخشى الله من التقصير فى الاسترشاد ، واختير الفعل المضارع لإفادته التجدد ،ومعنى تتلهى أى : تتشاغل .

وفى تقديم ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الفعل فى قوله ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيته ـ ﷺ ـ كما سبق فى قوله ﴿ فأنت له تصدى ﴾ ، وتقديم (له) و(عنه) قيل للتعريض بالاهتمام بمضمونها ، وقيل للعناية ، لأنهما منشأ العتاب ، وقيل للفاصلة ، وقيل للحصر ، ويمكن الجمع بين كل هذا حيث لا يوجد تناف بينها وكما يقول البلاغيون : النكات البلاغية تتزاحم لكنها لا تتعارض .

وذكر التصدى فى المستغنى دون الاشتغال به وهو المقابل للتلهى عن المسرع الخاشى والتلهى عنه دون عدم التصدى له وهو المقابل للتصدى لذلك قيل للإشعار بأن العتاب للاهتمام بالأول لا للاشتغال به إذ الاشتغال بالكفار غير ممنوع[1].

---

[1] راجع ذلك فى : حاشية الشهاب : ٤١٥/٩، وروح المعانى :٤١/٣٠ .

وقوله تعالى ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ مبالغة فى إرشاده — ﷺ — إلى عدم معاودة ما عوتب عليه — ﷺ — من الاهتمام بمن استغنى عما دعوته إليه من الإيمان والطاعة وما يوجبها من القرآن الكريم ، والإعراض عمن جاءك مستهديا ومسترشدا ، أى لا تعد لمثل ما وقع منك ، وفى بعض الآثار أنه — ﷺ — ما عبس فى وجه فقير ولا تصدى لغنى وتأدب الناس بذلك أدبا حسنا فقد روى عن سفيان الثورى أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء .

والضمير فى قوله تعالى (إنها) للقرآن العظيم ، والتأنيث لتأنيث الخبر (تذكرة) أى أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها ، وقيل الضمير المؤنث يراد به الهداية المودعة فى سائر الكتب السماوية ، وأجلها القرآن ، جعلها الله تذكرة وإرشادا إلى الطريق المستقيم .

وهذه الجملة المؤكدة (إنها تذكرة) تعليل للردع الذى أفادته (كلا) وذلك ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى — ﷺ — له ، وتحقيق أن شأنه أن يكون موعظة حقيقة بالاتعاظ ، فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى (فمن شاء ذكره) أى : حفظه واتعظ به ، ومن رغب عن حفظه والاتعاظ به — كما فعل المستغنى — فلا حاجة لك إلى الاهتمام بأمره ، وذكر الضمير لكونه عائدا على القرآن أو على التذكرة لأنها بمعنى التذكير والوعظ ، والجملة الثانية اعتراض جئ به للترغيب فى القرآن ، والحث على

حفظه والاتعاظ به[١].

ويرى الشيخ الطاهر بن عاشور أن قوله (إنها تذكرة) استئناف بعد حرف الإبطال ، وهو استئناف بيانى [٢] لأن ما تقدم من العتاب ثم ما عقبه من الإبطال يثير فى خاطر النبى ـ ﷺ ـ الحيرة فى كيف يكون العمل فى دعوة صناديد قريش إذا لم يتفرغ لهم لئلا ينفروا عن التدبر فى القرآن ، أو يثير فى نفسه مخافة أن يكون قصر فى شئ من واجب التبليغ ، ويجوز أن يكون المعنى : أن هذه الموعظة تذكرة لك وتنبيه لما غفلت عنه وليست ملاما ، وإنما يعاتب الحبيب حبيبه "[٣]

وهنا أورد الإمام الرازى سؤالا مؤداه ، كيف اتصال هذه الآية (كلا إنها تذكرة) بما قبلها ؟ والجواب من وجهين :

الأول : كأنه قيل : هذا التأديب الذى اوحيته إليك وعرفته لك فى إجلال الفقراء ، وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا أثبت فى اللوح المحفوظ الذى قد وكل بحفظه أكابر الملائكة .

الثانى : هذا القرآن قد بلغ من العظمة إلى هذا الحد العظيم ، فأى حاجة

---

(١) راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ٢٢٠،٢١٩/٣١ ، وتفسير أبى السعود : ١٠٩/٩،وحاشية الشهاب : ٤١٥/٩ ، وروح المعانى : ٤٢،٤١/٣٠

(٢) وعلى ذلك يكون الفصل فيها لشبه كمال الاتصال ، ينظر تعريفه فى : الإيضاح : ٢٥٥/١ ، وشروح التلخيص : ٥٣،٥٢/٣ ، ومذكرات فى الفصل والوصل والقصر د. سليمان نوار ص ٨٥،٨٤ ، وفى البلاغة القرانية ، أسرار الفصل والوصل أ.د/ صباح عبيد دراز ص ١١٥

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ١١٥،١١٤/٣٠ .

به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار ، فسواء قبلوه أم لم يقبلوه فلا تلفت إليهم ولا تشغل قلبك بهم وإياك وأن تعرض عمن آمن به تطييبا لقلب أرباب الدنيا [١]

وربما تستوقفنا كلمة (كلا) بما فيها من حسم وردع ، لكنها جاءت لتوحى بأن القيمة التى يرسخها الإسلام هنا فى قياس أقدار الناس لها شأنها ومن أجلها تساق كلمة الردع التى لم يستخدمها القرآن الكريم مع الرسول — ﷺ — فى غير هذا الموضع .

ذلك شئ من السمات التى ينفرد بها القرآن الكريم ، نراها ظاهرة جلية موحية ، ونرى غيرها مما لم نلم به هنا فى كل أساليبه وجميع معارضه ، نراها فى القصة : سردها وحوارها وإيحاءات مفرداتها.

جمال الإيقاع الموسيقى والسجع البديعى الموحى فى الآيات :

كذلك من الظواهر التى ينفرد بها الأسلوب القرآنى فى هذا العتاب ، ذلك الإيقاع الموسيقى المتميز ، وهذا اللون من السجع البديعى الموحى والمعبر والمناسب لسياق الكلام ومقامة ، فالآيات ذات مقاطع متوازنة ، فمع أننا نرى الحرف الذى يسبق الألف يختلف من فاصلة إلى أخرى ، فإن امتداد الحرف بتلك الألف يجعل للفاصلة وقعا منتظما ذا نغم حلو وجرس محبب يملك على النفس أقطارها ، ويتجاوز حاسة السمع ، فيصل إلى شغاف القلوب ، فيمسها مسا لطيفا ، ويهزها ممتعا لها .

---

[١] مفاتيح الغيب : ٣١/٢٢٠

ومن يدقق النظر يدرك أن شيئا من هذا الإيقاع قد جاء ثمرة لإجراءات أسلوبية لها فعل مزدوج ، فهى تحقق انتظام التوقيع من جانب ، وتحرك فى الملتقى إدراكا لبعض الدلالات من جانب آخر.

وعلى سبيل المثال نقتطف من الآيات قوله تعالى : (وهو يخشى) ، فإنه لكى يتحقق اطراد النغم يظل التعبير هكذا دون ذكر المفعول ، وفى حذفه دلالة على اهتمام تذكر صفة الخشية فى ذاتها دون نص على المتعلق ، وما عليه إلا أنه يربط بين مجيئه يسعى ويلتقط من السياق حرصه على الإرشاد ليتجه إلى أن الخشية لله[١].

وهناك من يتردد فى ذكر المفعول به فيقدره (يخشى الله) أو (يخشى الكبوة) على تصور أنه ليس معه قائد ، أو يخشى الكفار وأذاهم[٢] ، وذهاب النفس فى ذلك مذاهب متعددة فيه إثارة ذهنية ، وتحريك لإدراك المتلقى ، وهو قدر ينبغى أن يتحقق لمن يتلقى الذكر ، ويتدبر القرآن الكريم [٣].

---

(١) راجع ذلك فى التحرير والتنوير : ١١٤/٣٠ وما بعدها ، وقطوف من أسلوب العتاب فى القرآن الكريم د. محمد لطفى أحمد حويل ص ٣٤.

(٢) راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب :٢١٨/٣١،٢١٩ ، وحاشية الشهاب : ٤١٤/٩ ، وروح المعانى : ٤١/٣٠ ، والسيرة النبوية لابن هشام : ١٦/٢ ط: دار التوفيقية

(٣) راجع القيمة البلاغية لحذف المفعول فى : دلائل الإعجاز ص ١٥٤ وما بعدها والإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٢٧ وما بعدها ، والفوائد المشوق إلى علوم القران ص ٨٥ ـ٨٧ وبحوث المطابقة لمقتضى الحال د. على البدرى : ٢٣٧/١ وما بعدها .

الخصائص والسمات العامة لهذا الأسلوب العتابى :

كل ما سبق يعتبر سمات خاصة نلمحها من الخصائص التعبيرية وما فيها ، ومن دقائق المفردات وإيحاءاتها ولكن من يتأمل سياق الآيات والمقام والمناسبة التى وردت فيها هذه الآيات يمكن أن يلمح سمات أخرى تضاف إلى ما سبق مما يتسنى لنا استلهامه فى موقف العتاب ومما يجعلها تشكل طابعا يكاد يميز أسلوب العتاب ، وتبدو وكأنها سمات خاصة بهذا الأسلوب البديع من العتاب ، ويمكن أن نشير إليها فيما يأتى :

أولا : يتجلى لنا أن آيات العتاب إنما تساق مرتبطة بموقف أو حدث أو أسلوب ، فتأتى معقبة عليه باللوم أو التوجيه نحو مثاليات ومناهج ينبغى أن تعلو وتسود ، والموقف هنا يتصل بإقبال النبى ـ ﷺ ـ فى علية شديدة على من لا يقبل على دعوته ، وإعراضه عمن جاء إليه يسعى يبتغى العلم والاسترشاد . والقيمة التى ينبغى أن تسود أن على قائد الدعوة أن يخص بعنايته ، ورعايته الراغبين فيه ، ولو كانوا بمقاييس الدنيا دون غيرهم ، ولا عليه أن لا يستجيب الراغبون عن دعوته ، ولو كانوا سادة القوم وكبراءهم [١].

ثانيا : نلاحظ أن أسلوب العتاب يعكس شعورا ، فهو يعبر عن عدم ارتياح المولى ـ عز وجل ـ لأمر لا يتفق مع القيم التى قضى

---

[١] راجع ذلك فى : ظلال القران : ٦/٣٨٢٤ ، ٣٨٢٥ ، والتحرير والتنوير : ٣٠/١٠٩ وما بعدها .

أن يصاغ المجتمع المسلم الأول عليها لتكون غداً مثلاً يحتذى به ، فالله لا يرتضى أن يهمل فقير أعمى راغب فى النور ، وينال المستغنى الإقبال والعناية ولو كان الدافع إلى ذلك الحرص على استقطاب السادة والانتفاع بهم وبطاقاتهم التى يظن أنها مؤثرة ، ذلك لأن المهم أن يعلو عيار الإسلام الذى يتضمنه قوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1].

إذاً فإن التوجيه الإلهى للرسول ـ ﷺ ـ نراه يتكرر لتقرير هذه القيمة وترسيخها فقد روى أن جماعة من أشراف قريش أبوا أن يستجيبوا لدعوة الإسلام ، لأن محمداً ـ ﷺ ـ يضم إليه العبيد والضعفاء والفقراء ، وطلبوا إليه أن يطردهم فأبى ، فاقترحوا أن يخصهم بمجلس فلعل ذلك يكون أدعى لأن يستجيبوا ، ولعل الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ همّ بذلك رغبة فى إسلامهم ، فنزل التوجيه القرآنى صريحاً حاسماً ، فقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ[2] ﴾ .

ويقول الإمام القرطبى عقب تفسيره لهذه الآيات : " نظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الإنعام :﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ... الآية ﴾ ، وكذلك قوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون

---

[1] من الآية رقم (١٣) من سورة الحجرات .

[2] الآية رقم (٥٢) من سورة الأنعام ، وينظر : فى ظلال القران : ١١٠٠/٢ ، وتفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا : ٣٦٢/٤ ط الهيئة القومية للكتاب .

ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهة ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ... ﴾ [١].

وبمشيئة الله تعالى سوف يأتى الحديث عن هاتين الآيتين مع بيان ما فيها من خصائص تعبيرية عند الحديث عن عتاب النبى — ﷺ — فى شأن الضعفاء من المؤمنين ، وحثه على الصبر مع الذين يريدون وجه الله وخفض جناحه للمؤمنين.

ثالثا : من يدقق النظر يلاحظ أن صياغة الأسلوب تلائم روح العتاب ، وأن حركته تجرى وفق مقتضاه ودرجته ، ويبدو ذلك واضحا هنا حين ننظر فى اختيار الكلمات التى تتعانق مع المشهد ، وتلائم طبيعة العتاب ، وما يقتضيه من لوم .

فالكلمات : (عبس) و(تولى) ، والكلمة (تلهى) تنطق باللوم والتأنيب ويبدو هنا أيضا حين نرى الربط بين (تصدى و استغنى) ، و(جاءك يسعى ، وتلهى) ففى ذلك كله تجسيم للمفارقة المثيرة ، فلا يقبل أن يكون التصدى والإقبال الشديد حظ من أعرض ، والتشاغل والتجاهل حظ من أقبل ورغب .

ويبدو ذلك — أيضا — واضحا فى صياغة الجملة (أنت له تصدى) ، والجملة (أنت عنه تلهى) على تلك الصورة بتأسيس الجملة بضمير المخاطب (أنت) فإن ذلك يوحى بأنه ما كان يليق بك أنت خاصة هذا الفعل وقد رآها الزمخشرى ، مشعرة بالتخصيص ، فقال

---

[١] من الآية (٢٨) من سورة الكهف ، وينظر : الجامع لأحكام القران : ٣/٢١٤ .

على طريقته المألوفة : " فإن قلت : فأنت له تصدى ـ فأنت عنه تلهى ، كأن فيه اختصاصا ؟ قلت : نعم ، ومعناه : إنكار التصدى ، والتلهى عليه أى : : مثلك خصوصا لا ينبغى أن يتصدى للغنى ، ويتلهى عن الفقير "[١].

ووافقه فى رأيه هذا بعض المفسرين كالفخر الرازى والنيسابورى والشهاب الخفاجى[٢] .

رابعا : المتأمل فى نظم هذه الآيات يلاحظ الترقى فى درجة العتاب ، حيث إن نبرة العتاب تتدرج نحو الارتفاع الذى يوحى بتصاعد الاحساس بعدم الرضا ذلك أن الانتقال من الغيبة إلى الخطاب بدا معه التعبير هادئا ، ولكنه أخذ يعلو حتى يشعرنا بروح العتاب .

يقول الشيخ المرحوم سيد قطب : " ... ثم يستدير التعبير بعد موراة الفعل الذى نشأ عنه العتاب يستدير إلى العتاب فى ظل الخطاب فيبدأ هادئا شيئا ما ... ثم تعلو نبرة العتاب ، وتشتد لهجته ، وينتقل التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب ، ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر (كلا) لا يكن ذلك أبدا ، وهو خطاب يسترعى فى هذا المقام "[٣].

خامسا : أن من ينعم النظر فى هذا العتاب يلاحظ فيه تكثيف المعانى ،

---

[١] الكشاف : ٢١٨/٤ .

[٢] ينظر : مفاتيح الغيب : ٢١٩/٣١ ، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٣٢٣/٣٠ ، وحاشية الشهاب : ٤١٤/٩ ، والتفسير الوسيط : ٦٧٨٥/٣ .

[٣] فى ظلال القرآن : ٣٨٢٥/٦ .

فإن الواقعة بما تضمنته من إقبال الأعمى مسترشدا وملحا فى رغبته ، ومن اعتراض النبى ـ ﷺ ـ عند كراهة تصرفه ، ومن إقبال النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على صناديد قريش ، وما أوحى به العرض من إنكار وحفل به من عوض تصويرى بدت معه ملامح الشخوص ، كل ذلك قد جاء فى عبارات قليلة بآيات قصار تجرى فى إيقاع سريع متحرك ، فتبلغ بذلك غاية الإيجاز والإعجاز .

يقول الدكتور / محمد كامل حسن المحامى عقب تحليله لهذه الآيات معقبا على الآيتين : الأولى والثانية : " إن الضيق النفسى الذى أحس به الرسول ـ ﷺ ـ عند مجئ الأعمى ظهرت آثاره على وجهه فعبس ...ولم يكتف بالعبوس ، بل إنه أهمله وأولاه ظهره لكى ينتبه إلى ضيوفه الأغنياء ، وقد صور هذا المشهد حالة الرسول ـ ﷺ ـ وأظهر أثر انفعالاته بخمس كلمات فقط ... هى ﴿ عبس وتولى . أن جاءه الأعمى ﴾ [١]

وأخذ به الإعجاب فى نهاية تحليله للآيات إلى غايته ونهايته فقرر وهتف : " إنه إعجاز .. إعجاز ،..،..ولو كررت كلمة إعجاز هذه ألف مرة لما وفيت هذه الآيات حقها فى الوصف "[٢].

تلك كلمات من أخذ بسحر التعبير ، وانبهر بجلاله ، فأخذ يهتف

---

[١] القران والقصة الحديثة : د/ محمد كامل حسن المحامى ص ١١٧-١٢٠ طبع دار الكتب العلمية " بيروت" سنة ١٩٧٠م .

[٢] المراجع السابق ص ١٢٠ .

بإعجازه الذى أحس به فى أعماقه ... أدرك شيئا من أسرار هذا الإعجاز ، ووقف عندما أدركه ، ولعله شعر بالتوقف والعجز عن الذهاب إلى أبعد مدى وإلى أقصى شأو ، فأوجز الأمر كله فى هذه الكلمات المعبرة عن انفعاله القوى ، وهذا ليس شأنه وحدة بل شأن الباحثين جميعا فى هذه الأسرار المحاولين الكشف عنها ، وهذه فصاحة وبلاغة وعظمة القرآن وإعجازه .

وهذه سمة أخرى يمكن أن نختم بها الحديث فى رحاب هذا الموقف من مواقف العتاب القرآنى للنبى ـ ﷺ ـ وهو أن الاستفهام يجئ من وسائل عرضه ، ونرى منه ذلك الاستفهام الذى يحمل فى داخله شيئا من اللوم فى قوله جل وعلا : (وما يدريك لعله يزكى) ؟

ويجدر بنا أن نشير إلى أمرين :

أحدهما : أن هناك من رأى أن قوله تعالى فى مخاطبة النبى ـ ﷺ ـ (وما عليك ألا يزكى) ؟ أنه استفهام ، وظاهر التعبير يعطيه ـ حقا ـ أن مآل هذا الاستفهام النفى فى المعنى ، ولكنى أحسب أن ورود هذا التصوير يوضح أن الإحساس بملائمة الاستفهام لجو العتاب ربما كان دافعا إليه ، وإنما كان الاستفهام ملائما لما فيه من المساءلة فكأن المعاتب قد استدعى المخاطب ليناقشه ، وبهذا يرتفع رنين العتاب ، ويكسب حرارة قد لا يحملها السرد المباشر بالأخبار .

ثانيهما : أن هناك من قرأ (أأن جاءه الأعمى) ؟ على الاستفهام فيؤول التقدير إلى هذه الصورة (ألا جاءه الأعمى عبس وتولى) ؟

ويكون التعبير موحيا بالتعجيب من هذا الشـــأن[١] ، وذلـك أنسب فى تصورى لروح المعاتبة ، ولعلنا لو ملنا إلى القبـول بهذه القراءة لما بدا لنا من مناسبة الاستفهام للعتاب ، لوجدنـا أننا أمام آيات عتاب اعتمدت على الاستفهام الصريح ، وعلى عبارة يمكن حملها على الاستفهام ويدفعنا ذلك إلى القول بـأن للاستفهام مكانا بارزا فى أسلوب العتاب .

فخروج الاستفهام عن حقيقته وعن معناه الأصلى إلى معان أخـر كالأمر ، أو الإنكار ، أو النفى ، أو التعجب ، أو التهكم ، أو التحقير ، أو التعظيم ، أو التمنى ، أو التشويق ، أو التقرير إلى غير ذلـك مـن أساليب الاستفهام المتعددة ، لابد أن يكون لعلة بلاغية قصد إليها المتكلم ، ولم يرد أن يكاشف بها صراحة ، بل لجأ إلى التعبير عنـها متخفيـا وراء أسلوب الاستفهام ليصل إلى مراده دون حرج لنفسه ، أو لغـيره من المخاطبين .

وابن جنى يبين لنا بعض الأسباب التى تدعو إلى خروج الاستفهام عن صورته متعمقا بواطن النفس البشرية ، مدركا لأغوارها السـحيقة ومراميها المتعددة ، ليصل السائل بسؤاله إلى كل ما يبتغى الوصـول إليه فيقول :

" اعلم أنه ليس شئ يخرج من بابه إلى غيره إلا لأمر قد كـان .. ذلك أن المستفهم عن الشئ قد يكون عارفا به مع استفهامه فى الظـاهر

---

[١] راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ٢١٧/٣١ ، وروح المعانى : ٤٠/٣٠ .

عنه ، ولكن غرضه بالاستفهام عنه أشياء منها :

أن يظهر للمسئول أنه خفى الأمر عليه ليسمع جوابه منه ، ومنها : أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف به ؟ ومنها : أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد لما فى ذلك الغرض ، ومنها : أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه ، حتى إن حلف بعد ذلك أنه قد سأله عنه حلف صادقا ، فأوضح بذلك عذرا ، ولغير ذلك من المعانى التى يسأل السائل عما لا يعرفه لأجلها وبسببها[١] .

وبهذا يضع ابن جنى أيدينا على بعض الدواعى البلاغية التى اقتضت إخراج الاستفهام عن صورته إلى صورة أخرى ، ولهذا أهميته القصوى فى علم البلاغة .

فلا جدال أن الاستفهام أوفر أساليب الكلام معانيا ، وأوسعها تصرفا ، وأكثرها فى مواقف الانفعال ورودا ، ولذا ترى أساليبه تتوالى فى مواطن التأثر ، وحيث يراد التأثير ، وهيج الشعور للاستمالة والإقناع ..

وإذا صح القول : إن للكلام قمة عليا فى البلاغة ، كان أسلوب الاستفهام محتلا أعلى مكان فى تلك القمة .

والقرآن المكى يحوى من أساليب الاستفهام أروع الصور ، وأكثرها للوجدان إثارة ، وأشدها على النفس وقعا ، فترى تلك الأساليب

---

(١) الخصائص لابن جنى : ٤٦٤/٢ ط دار الكتب ، وينظر : فن البلاغة أ.د/ عبد القادر حسين محمد ص ١٤٦ ،١٤٧ ط : دار نهضة مصر .

تتوالى فى مواضع كثيرة منه ، مؤدية شتى المعانى البلاغية ، محققة هذا التلوين الكلامى الذى يهز المشاعر هزا ، ويبعث فى النفس شغفا ، وشوقا إلى تتبعه فى حركة سيرة ومجرى انتقاله[1].

وأخيرا يمكن أن نصل إلى نتيجة أن مناط العتاب الذى تؤتيه لهجة الآيات ، والذى روى عن النبى ـ ﷺ ـ ثبوته من كثرة ما يقول لابن أم مكتوم : " مرحبا بمن عاتبنى ربى لأجله " إنما هو عتاب على العبوس والتولى ، لا على ما حف بذلك من المبادرة بدعوة ،وتأخير إرشاد ، لأن ما سلكه النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى هذه الحادثة من سبيل الإرشاد لا يستدعى عتابا ، إذ ما سلك إلا سبيل الاجتهاد القويم ، لأن المقام الذى أقيمت فيه هذه الحادثة تقاضاه إرشاد أن لا محيص من تقديم أحدهما على الآخر هما : إرشاد كافر إلى الإسلام عساه أن يسلم ، وإرشاد مؤمن إلى شعب الإسلام عساه أن يزاد تزكية.

وليس فى حال المؤمن ما يفيت إيمانا ، وليس فى تأخير إرشاده على نيه التفرغ إليه بعد حين ما يناكد زيادة صلاحه ، فإن زيادة صلاحه مستمرة على ممر الأيام .

ومن القواعد المستقراه من تصاريف الشريعة والشاهدة بها العقول السليمة تقديم درء المفاسد على جلب المصالح ، ونفى الضر الأكبر قبل نفى الضر الأصغر ، فلم يسلك النبى ـ ﷺ ـ إلا مسلك الاجتهاد

---

[1] أساليب الاستفهام فى القران د. عبد العظيم فوده ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ط : المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وينظر : فن البلاغة ص ١٤٧،١٤٨ .

المأمور به فيما لم يوح إليه فيه ، وهو داخل تحت قوله تعالى لعموم الأمة : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[١] ، وهو صلى الله عليه وسلم ــ القائل : (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه فإنما اقتطع له قطعة من نار)[٢]، وهو – صلوات الله وسلامه عليه – القائل: (أنى لم أومر أن أنقب عن قلوب العباد ولا أشق بطونهم)[٣] ، فلا قبل له بعلم المغيبات إلا أن يطلعه الله على شئ منها، فلا يعلم أن هذا المشرك مضمر الكفر والعناد وأن الله يعلم أنه لا يؤمن، ولا أن لذلك المؤمن فى ذلك الوقت صفاء نفس وإشراق قلب لا يتهيأن له فى كل وقت.

وبذلك يستبين أن ما أوحى الله – تعالى – به إلى نبيه – صلى الله عليه وسلم – فى هذه السورة هو وحى له بأمر كان مغيبا عنه حين أقبل على دعوة المشرك، وأرجأ إرشاد المؤمن، وليس فى ظاهر حالهما ما يؤذن بباطنه، وما أظهر الله فيها غيب علمه إلا لإظهار مزية مؤمن راسخ الإيمان وتسجيل كفر مشرك لا يرجى منه الإيمان، مع ما فى ذلك من تذكير النبى – صلوات الله وسلامه عليه – بما عمله الله من حسن أدبه مع المؤمنين ورفع شأنهم أمام المشركين.

---

(١) من الآية رقم (١٦) من سورة التغابن

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الأقضية باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ينظر شرح صحيح مسلم للنووى: ٥/١٢ ح ١٧١٣ ط دار البيان.

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم ينظر شرح صحيح مسلم للنووى: ١٣٦/٧ ح ١٠٧٤.

فمناط المعاتبة هو العبوس للمؤمن بحضرة المشرك الذى يستصغر أمثال ابن أم مكتوم، فما وقع فى خلال هذا العتاب من ذكر حال المؤمن والكافر إنما هو إدماج، لأن فى الحادثة فرصة من التنويه بسمو منزلة المؤمن لانطواء قلبه على أشعة تؤهله لأن يستنير بها ويفيضها على غيره جمعا بين المعاتبة والتعليم، عن سنن هدى القرآن فى المناسبات[1]

والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلى وأعلم .

---

[1] راجع ذلك فى تفسير التحرير والتنوير : ٣٠/١١٣، ١١٤.

الموقف الثانى

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى موقفه من أسرى بدر ، وقبوله أخذ الفداء منهم

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى موقفه من أسرى بدر وقبوله أخذ الفداء منهم

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [١].

هذا موقف آخر عاتب الله- تعالى - نبيه محمداً - ﷺ - وصحابته - رضوان الله عليهم أجمعين - ومناسبته ذكر بعض أحكام الجهاد، وكان أعظم جهاد مضى هو جهاد يوم بدر، وينتقل السياق من التحريض على القتال فى الآيات السابقة إلى بيان حكم الأسرى، حيث نزلت هاتان الآيتان بعد قضية فداء أسرى بدر مشيرة إليها.

وهذا تشريع مستقبل أخره الله - تعالى - رفقاً بالمسلمين الذين انتصروا فى غزوة بدر الكبرى، وإكراماً لهم على ذلك النصر المبين وسداً لخلتهم التى كانوا عليها، فنزلت لبيان الأمر الأجدر فيما جرى فى شأن الأسرى فى موقعة بدر الكبرى.

وذلك ما رواه مسلم [٢] عن ابن عباس، والترمذى[٣] عن ابن مسعود، ما مختصره أن المسلمين لما أسروا الأسارى يوم بدر وفيهم صناديد المشركين، سأل المشركون رسول الله - ﷺ - أن يفاديهم بالمال، وعاهدوا على أن لا يعودوا إلى حربه، فقال رسول الله - ﷺ -

---

[١] الآيتان (٦٧، ٦٨) من سورة الأنفال.

[٢] ينظر: صحيح مسلم بشرح النووى: ١٢/١٢١ - ١٢٥ ح رقم ١٧٦٣.

[٣] ينظر: الجامع الصحيح للترمذى: ٥/٢٥١، ٢٥٢ ح رقم ٣٠٨١.

للمسلمين: "ما ترون فى هؤلاء الأسارى، قال أبو بكر: "يا نبى الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام"، وقال عمر: أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها".

وروى أنه — ﷺ — قال: "إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿ **فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم** ﴾ [١]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ [٢]، ومثلك يا عمر كمثل نوح – عليه السلام – إذ قال: ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا** ﴾ [٣]، ومثلك يا عمر مثل موسى — عليه السلام — إذ قال: ﴿ **ربنا أطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ [٤]، فهوى رسول الله ما قال أبو بكر فأخذ منهم الفداء، كما رواه الإمام أحمد[٥] عن ابن عباس، فأنزل الله ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى ... الآية** ﴾ [٦].

---

[١] من الآية (٣٦) من سورة إبراهيم عليه السلام.

[٢] من الآية (١١٨) من سورة المائدة.

[٣] الآية رقم (٢٦) من سورة نوح عليه السلام.

[٤] من الآية (٨٨) من سورة يونس عليه السلام.

[٥] ينظر: مسند الإمام أحمد: ١/٣٠.

[٦] راجع ذلك فى: تفسير القران لأبى المظفر السمعانى: ٢/٢٧٩، والكشاف: ٢/١٦٨، ومفاتيح الغيب: ١٤/٥٣٨، ٥٣٩، والجامع لأحكام القران: ٨/٤٩، وأسباب النزول

ومعنى قوله (هوى رسول الله ما قال أبو بكر) أن رسول الله أحب واختار ذلك لأنه من اليسر والرحمة بالمسلمين، إذ كانوا فى حاجة إلى المال، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

وروى أن ذلك كان رغبة أكثرهم، وفيه نفع للمسلمين، وهم فى حاجة إلى المال، ولما استشار رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – أهل مشورته تعين أنه لم يوح الله إليه بشئ فى ذلك، وأن الله أوكل ذلك إلى اجتهاد الرسول – عليه الصلاة والسلام– فرأى أن يستشير الناس، ثم رجح أحد الرأيين باجتهاد وقد أصاب الاجتهاد، فإنهم قد أسلم منهم حينئذ، سهيل بن بيضاء، وأسلم من بعد العباس وغيره.

وقد خفى على النبى ـ ﷺ ـ شئ لم يعلمه إلا الله، وهو إضمار بعضهم ـ بعد الرجوع إلى قومهم ـ أن يتأهبوا لقتال المسلمين من بعد، وربما كانوا يضمرون اللحاق بفل المشركين من موضع قريب ويعودون إلى القتال فينقلب انتصار المسلمين إلى هزيمة كما كان يوم أحد، فلأجل هذا جاء قوله تعالى ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾.

والمعنى أن النبى إذا قاتل فقتاله متمحض لغاية واحدة، هى نصر الدين ودفع عدائه، وليس قتاله للملك والسلطان، فإذا كان اتباع الدين فى قلة كان قتل الأسرى تقليلا لعدد أعداء الدين، حتى إذا انتشر الدين

للواحدى ص ١٣٦ وما بعدها، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٦٣.

وكثر اتباعه صلح الفداء لنفع اتباعه بالمال، وانتفاء خشية عود العدو إلى القوة، فهذا وجه تقييد هذا الحكم بقوله (ما كان لنبى).

والكلام موجه للمسلمين الذين أشاروا بالفداء، وليس موجها للنبى ـ ﷺ ـ لأنه ما فعل إلا ما أمره الله به من مشاورة أصحابه فى قوله ـ جلا وعلا ـ : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ [١] ، ويدل لذلك قوله فى الآية التى معنا (تريدون عرض الدنيا)، فإن الذين أرادوا عرض الدنيا هم الذين أشاروا بالفداء، ـ وليس لرسول الله ـ ﷺ ـ فى ذلك حظ[٢] .

الخصائص التعبيرية فى هاتين الآيتين:

من يدقق النظر فى نظم هاتين الآيتين اللتين عاتب الله ـ تعالى ـ فيهما نبيه محمدا ـ ﷺ ـ ومن كان معه من الصحابة الذين أشاروا عليه بقبول الفداء من أسرى بدر يجد كثيرا من اللطائف والدقائق التعبيرية، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ... الخ الآية﴾ جاءت هذه الآية على سبيل الاستئناف الابتدائى المناسب لما قبله، والمناسبة ذكر بعض أحكام الجهاد، سواء نزل بعقبه أم تأخر نزوله عنه، فكان موقعه هنا بسبب موالاة نزوله لنزول ما قبله، حيث مازال الحديث متصلا عن الجهاد.

ومعنى قوله ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ﴾ نفى اتخاذ الأسرى عن استحقاق نبى لذلك الكون، وجئ بـ (نبى) نكرة مع أن الخطاب

---

[١] من الآية (١٥٩) من سورة ال عمران.

[٢] راجع ذلك فى: حاشية الشهاب: ٤/٥٠٤، والتحرير والتنوير: ١٠/٧٤.

لرسول الله ـ ﷺ ـ إشارة إلى أن هذا حكم سابق فى حروب الأنبياء فى بنى إسرائيل.

ويمكن أن يحمل الكلام على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة[١]،والقيمة البلاغية لهذا التحول من الخطاب إلى الغيبة أن فيه ترفقا وتلطفا فى عتابه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث لم يخاطب الله ـ تعالى ـ نبيه بالعتاب مباشرة وإنما وجه عتابه إليه على سبيل الغيبة، وكأنه يعاتب نبيا آخر سواه.

ومثل هذا النفى فى القرآن قد يجئ بمعنى النهى نحو قوله تعالى: ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ...** ﴾ [٢] ، وقد يجئ بمعنى أنه لا يصلح، كما هنا، لأن هذا الكلام جاء تمهيدا للعتاب، فتعين أن يكون مرادا منه ما لا يصلح من حيث الرأى والسياسة.

ومعنى هذا الكون المنفى بقوله ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى** ﴾ هو بقاؤهم فى الأسر، أى بقاؤهم أرقاء أو بقاء أعواضهم وهو الفداء، وليس المراد أنه لا يصلح أن تقع فى يد النبى أسرى، لأن أخذ الأسرى من شؤون الحرب، وهو من شؤون الغلب، إذا استسلم المقاتلون، فلا يعقل أحد نفيه عن النبى ـ ﷺ ـ فتعين أن المراد نفى أثره، وإذا نفى أثر الأسر صدق بأحد أمرين: وهما المن عليهم بإطلاقهم، أو قتلهم، ولا

---

[١] ويكون هذا الالتفات على رأى السكاكى وليس على رأى الجمهور، لأن دائرة الالتفات أوسع عند السكاكى، حيث أضاف فى تعريفه أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره، وقد سبق تفصيل هذه القضية بمراجعها ينظر ص

[٢] من الآية (٥٣) من سورة الأحزاب.

يصلح المن هنا لأنه ينافى الغاية وهى (حتى يثخن فى الأرض)، فتعين أن المقصود قتل الأسرى الحاصلين فى يده، أى أن ذلك الأجدر به حينئذ خضداً لشوكة أهل العناد، وقد صار حكم هذه الآية تشريعاً للنبى ـ ﷺ ـ يمن يأسرهم فى غزواته[١] .

وقوله جل وعلا: ﴿ حتى يثخن فى الأرض ﴾ الإثخان: الشدة والغلظة فى الأذى، يقال أثخنته الجراحة وأثخنه المرض: إذا ثقل عليه، وقد شاع إطلاقه على شدة الجراحة على الجريح[٢] .

وقد حمله بعض المفسرين فى هذه الآية على معنى الشدة والقوة، فالمعنى: حتى يتمكن فى الأرض، أى يتمكن سلطانه وأمره، فآثر المولى ـ عز وجل ـ التعبير بهذه الكلمة (يثخن) لما توحيه هذه المادة من الشدة والغلظة والقوة والتمكن، ولما فيها من الدلالة على المبالغة فى قتل الكفار، ولأن كثرة القتل توجب قوة الرعب وشدة المهابة، وذلك يمنع من الجراءة ومن الإقدام على ما لا ينبغى، فلهذا السبب أمره الله ـ تعالى ـ بذلك[٣] .

وقوله (يثخن فى الأرض) يجوز حمله على حقيقته فيعيد معنى الطرفية، أى يتمكن فى الدنيا.

---

[١] راجع ذلك فى تفسير التحرير والتنوير: ١٠/٧٤.

[٢] ينظر: لسان العرب مادة (ث خ ن): ١٣/٧٧، والقاموس المحيط مادة (ث خ ن): ٤/٢٠٣.

[٣] ينظر: الكشاف: ٢/١٦٨، ومفاتيح الغيب: ١٤/٥٤٤، والجامع لأحكام القران: ٨/٤٩، وفتح القدير للشوكانى: ٢/٣١٠، والفتوحات الإلهية: ٢/٥٧.

ويرى جار الله الزمخشرى حمله على معنى إثخـــان الجراحـــة، ويكون ذلك جرياً على طريقة الاستعارة التمثيلية بتشبيه حال الرســـول ـ ﷺ ـ والمقاتل الذى يجرح قرنه جراحاً قوية تثخنه، أى حتى يثخـــن أعداءه فتصير له الغلبة عليهم فى معظم المواقع، وعلى ذلك يكون قوله (فى الأرض) قرينة للاستعارة التمثيلية[١] .

وكلمة (حتى) لانتهاء الغاية، فقوله تعالى ﴿ ما كان لنبى أن يكون لـــه أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾ يدل على أن بعد حصـــول الإثخـــان فـــى الأرض له أن يقدم على الأسر.

ومن نظم الآية يتبين لنا أن الكلام عتاب للذين أشـــاروا باختيـــار الفداء والميل إليه وغض النظر عن الأخذ بالحزم فى قطع دابر صناديد المشركين، فإن فى هلاكهم خضداً لشوكة قومهم، فهذا ترجيح للمقتضى السياسى العرضى على المقتضى الذى بنى عليه الإسلام وهو التيســـير والرفق فى شؤون المسلمين بعضهم مع بعض كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [٢]، وقد كان هذا المسلك السياسى خفيـــاً حتى كأنه مما استأثر الله به.

والخطاب فى قوله (تريدون) للفريق الذى أشاروا بـــأخذ الفـــداء،

---

[١] راجع ذلك فى: الكشاف: ١٦٨/٢، وحاشية الشهاب: ٥٠٥/٤، والاستعارة التمثيليـــة هى اللفظ المركب المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعـــة من إرادة المعنى الحقيقى، ينظر: حاشية الشيخ محمد الخضرى على الســـمرقندية ص ٨٢، ٨٣٦، والبيان فى ضوء أساليب القران ص ١٨٦.

[٢] من الآية (٢٩) من سورة الفتح.

وفيه إشارة إلى أن الرسول ـ ﷺ ـ غير معاتب لأنه إنما أخذ برأى الجماعة من أصحابه[١] .

وجملة (تريدون) إلى آخرها واقعة موقع العلة للنهى الذى تضمنته آية(ما كان للنبى ...) فلذلك جاءت مفصولة عما قبلها ولم تعطف بالواو، لما بينهما من كمال الاتصال[٢]، لأن العلة بمنزلة الجملة المبينة، فبينهما رابط داخلى معنوى فلا حاجة إلى مجئ الواو.

و (عرض الدنيا) هو المال أو حطام الدنيا، وإنما سمى عرضاً لأن الانتفاع به قليل اللبث، فأشبه الشئ العارض، إذ العروض مرور الشئ وعدم مكثه، لأنه يعرض للماشين بدون تهيؤ، والمراد: عرض الدنيا المحض وهو أخذ ا لمال لمجرد التمتع به.

والإرادة هنا بمعنى المحبة، أى تحبون منافع الدنيا، والله يحب ثواب الآخرة، ومعنى محبة الله إياها محبته ذلك للناس، أى يحب لكم ثواب الآخرة، فعلق فعل الإرادة بذات الآخرة، والمقصود نفعها بقرينة (تريدون عرض الدنيا) فهو حذف من قبيل حذف المضاف لغرض

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ٥١٨/٤، وحاشية الشهاب: ٥٠٤/٤، والتحرير والتنوير: ٧٥/١٠.

(٢) كمال الاتصال هو مواضع الفصل بين الجمل ويتحقق بأن تتحد الجملتان خبراً أو انشاء وتكون الثانية منهما له صلة وثيقة بالتى قبلها بحيث تنزل منها منزلة نفسها، ينظر: خلاصة المعانى ص ٢٦١، ومفتاح البلاغة ص ٥٤، ودراسات منهجية فى البلاغة العربية د/ أحمد الحفنى ص ١٥٦ والبحث البلاغى عند العرب تأصيل وتقييم د/ شفيع السيد ص ٢٠٨، وعلم المعانى فى لغة القران والأدب أ.د/ عبد الفتاح محمد سلامة القسم الثانى ص ٢١٤.

الإيجاز[١]، ومما يحسنه أن الآخرة المرادة للمؤمن لا يخالط نفعها ضر ولا مشقة بخلاف نفع الدنيا.

وإنما ذكر مع (الدنيا) المضاف ولم يحذف، لأن فى ذكره إشعاراً بعروضه وسرعة زواله.

وفى قوله تعالى: (والله يريد الآخرة) الإرادة هنا بمعنى الرضا، وإنما عبر بالإرادة للمشاكلة[٢] .

وإنما أحب الله ـ تعالى ـ نفع الآخرة لأنه نفع خالد، ولأنه أثر الأعمال النافعة للدين الحق، وصلاح الفرد والجماعة.

وقد نصب الله ـ سبحانه ـ على نفع الآخرة أمارات، هى أمارات أمره ونهيه ، فكل عرض من أعراض الدنيا ليس فيه حظ من نفع الآخرة وغير محبوب لله ـ تعالى ـ وكل عرض من الدنيا فيه نفع من الآخرة ففيه محبة من الله ـ تعالى ـ وهذا الفداء الذى أحبوه لم يكن

---

(١) الإيجاز بالحذف عرفه البلاغيون بأنه عرض المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة بحذف بعض الكلام تخفيفاً لقوة الدلالة على معناه، ينظر: المثل السائر: ٢٦٤/٢، والمصباح فى المعانى والبيان والبديع ص ٧٤، وعلم المعانى د/ درويش الجندى ص ١٦٨، والمعانى فى ضوء أساليب القرآن ص ٣٤٥.

(٢) أى ليشاكل التعبير بقوله (تريدون عرض الدنيا) ينظر: البحر المحيط ٥١٨/٤ ، وحاشية الشهاب: ٢٩٢/٤، والمشاكلة لون من المحسنات البديعية المعنوية التى تضفى على العبارة جمالاً وروعة وحسناً، عرفها البلاغيون بأنها ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً ينظر: مفتاح العلوم ص ١٧٩، وتحرير التحبير ص ٣٩٣، والإيضاح: ٣٩٣/٣، والبديع من المعانى والألفاظ د/ عبد العظيم المطعنى ص٧٩ودراسات وتطبيقات فى علم البديع ص ١١٣.

يحف به من الامارات ما يدل على أن الله لا يحبه، ولذلك تعين أن عتاب المسلمين على اختيارهم إياه حين استشارهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما هو عتاب على نوايا فى نفوس جمهور ا لجيش، حين تخيروا الفداء، أى أنهم ما راعوا فيه إلا محبة المال لنفع أنفسهم فعاتبهم الله على ذلك لينبههم على أن حقيقاً عليهم أن لا ينسوا فى سائر أحوالهم وآرائهم الالتفات إلى نفع الدين وما يعود عليه بالقوة، فإن أبا بكر قال لرسول الله ـ ﷺ ـ عند الاستشارة "قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى بها أ صحابك" فنظر إلى مصلحة دينية من جهتين، ولعل هذا الملحظ لم يكن عند جمهور أهل الجيش[1] .

ويجوز أن يكون قوله (تريدون عرض ا لدنيا) مستعملاً فى معنى الاستفهام الإنكارى، والمعنى: لعلكم تحبون عرض الدنيا، فإن الله يجب لكم الثواب وقوة الدين، لأنه لو كان المنظور إليه النفع الدنيوى لكان حفظ أنفس الناس مقدماً على إسعافهم بالمال، فلما وجب عليهم بذل نفوسهم فى الجهاد، فالمعنى: يوشك أن تكون حالكم كحال من لا يحب إلا عرض الدنيا، تحذيراً لهم من التوغل فى إيثار الحظوظ العاجلة.

هذا ولأسلوب الاستفهام الإنكارى مزية على التعبير بالنفى أو النهى الصريح، ومما يدل على بلاغة التعبير بالاستفهام الإنكارى وتفوقه على النفى أو النهى الصريح ما يلى:

---

[1] راجع ذلك فى التحرير والتنوير : ٧٦/١٠.

١-أن للإنكار بالاستفهام مزية بها كان أبلغ أثراً، وأوقع فى النفس من النفى الصريح لأنه يقتضى جواباً، فيتنبه المخاطب، ويرجع إلى نفسه ليجيب، فيعيا بالجواب ويخجل، ويعلم أنك قصدت تكذيبه أو تخطئته وتوبيخه.

٢-أن أسلوب الإنكار بالاستفهام يشعر بثقة المتكلم واطمئنانه وأنه لا يخشى تكذيباً، ولا مخالفة، لإيهامه أن السامع أعلم منه بحقيقة الأمر.

٣-ذكر الشيخ عبد القاهر أن مما يؤيد الفرق بين الأسلوبين أن النفى الصريح لا يقال فى المستحيل، وفيما لا يقول به عاقل، فلا تقول مثلاً لمن يحاول أمراً بعيداً (أنت لا تصعد إلى السماء) ولكنك تقول (أتصعد إلى السماء)؟ فلو كان معنى الأسلوبين واحداً من كل وجه، لامتنع الإنكار بالاستفهام كما امتنع بالنفى[١] .

وجملة (والله عزيز حكيم) عطف على جملة (والله يريد الآخرة) عطفا يؤذن بأن لهذين الوصفين أثراً فى أنه يريد الآخرة، فيكون كالتعليل، وهو يفيد أن حظ الآخرة هو الحظ الحق، ولذلك يريده العزيز الحكيم.

فوصف (العزيز) يدل على الاستغناء عن الاحتياج، وعلى الرفعة

---

[١] راجع ذلك فى : دلائل الإعجاز ص ١١٩، ١٢٠ تح د/ شاكر، ودراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير د/ عبد الهادى العدل ص ٢٥٤، ٢٥٥ ، والشواهد القرانية فى كتاب مفتاح العلوم للسكاكى، مواطن الاستشهاد ومسائل الخلاف ص ١٩٨. ١٩٩.

والمقدرة، ولذلك لا يليق به إلا محبة الأمور النفيسة، وهذا يومئ إلى أن أولياءه ينبغى لهم أن يكونوا أعزاء كقوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[١]، ولأن القوى العزيز يكون كذلك من اتبعه فجله كناية عن هذا المعنى بقرينة المقام، فلأجل ذلك كان اللائق بهم أن يربأوا بنفوسهم عن التعلق بسفاسف الأمور، وأن يجنحوا إلى معاليها.

ووصف (الحكيم) يقتضى أنه العالم بالمنافع الحق على ما هى عليه، لأن الحكمة: العلم بحقائق الأشياء على ما هى عليه، فالله عزيز يغلب أولياءه على أعدائه، ويتمكنون منهم قتلا وأسرا ويطلق لهم الفداء، ولكنه (حكيم) يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا وهم يعجلون[٢] .

وقوله تعالى ﴿ لولا كتاب من الله سبق ... ﴾ جملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن الكلام السابق يؤذن بأن مفاداة الأسرى أمر مرهوب تخشى عواقبه ، فيستشير سؤالا فى نفوسهم عما يترقب من ذلك فبينه قوله (لولا كتاب من الله سبق) الآية .

فالفصل هنا لشبه كمال الاتصال ، وعرفه البلاغيون بأن تكون الجملة الثانية كالمتصلة بالأولى لكونها جوابا من سؤال اقتضته الجملة

---

(١) من الآية (٨) من سورة (المنافقون).

(٢) ينظر : الكشاف: ١٦٨/٢، ومفاتيح الغيب: ٥٤٤/١٤، وحاشية الشهاب: ٢٩٢/٤، وفى ظلال القران: ١٥٥٢/١٠، والتحرير والتنوير: ٧٧/١٠، والتفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج أ.د/ وهبة الزحيلى : ٧٢/١٠ ط: دار الفكر بيروت ط أولى ١٩٩١م.

الأولى فتنزل منزلته فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال لما بينها من ربط معنوى[١].

ومعنى قوله ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ لو لا حكم منه سبق إثباته فى اللوح وهو أنه لا يعاقب أحدا بخطأ ، وكان هذا خطأ فى الاجتهاد لأنهم نظروا فى أن استبقاءهم ربما كان سببا فى إسلامهم وتوبتهم ، وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد فى سبيل الله ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم ، وأقل لشوكتهم .

وقيل كتابه أنه سيحل لهم الفدية التى أخذوها ، وقيل إن أهل بدر مغفور لهم ، لقول الرسول — ﷺ — : " وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "[٢] ، وقيل : الكتاب السابق هو ألا يعذب أحدا بذنب أتاه جاهلا حتى يتقدم إليه ، وقيل : هو ما قضى الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر ، وقيل أنه لا يعذب قوما إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهى ، ولم يتقدم نهى عن ذلك ، وذهب الطبرى على أن هذه المعانى كلها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمها ، وهو الأولى بالقبول ، حيث لا يوجد نص صريح يبين المراد بالكتاب ، ولعل الحكمة فى هذا الإبهام لتذهب الأفهام فيه إلى كل ما يحتمله

---

[١] راجع هذا الموضع من مواضع الفصل فى : شروح التلخيص : ٥٣/٥٢/٣ ، ومذكرات فى الفصل والوصل والقصر د. سليمان نوار ص ٨٥،٨٤ ، ودلالات التراكيب ص ٣٠٩،٣٠٨ .

[٢] أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ، ينظر : عمدة القارى : ٩٥/١٧ ، ومسلم فى الفضائل باب من فضائل أهل بدر : ١٩٤١/٥ ، ١٩٤٢ ، وأحمد فى مسنده : ٨٠/١

اللفظ ، ويدل عليه المقام[١] .

ويرى أبو حيان أن المعنى لولا كتاب من الله سبق فـــى تـــأييدكم ونصركم وقهركم أعدائكم حتى استوليتم عليهم قتلا وأسرا علـــى قلـــة عددكم وعددكم لمسكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذاب عظيم منهم لكونهم أكثر عددا منكم وعددا ولكنه سهل عليكم بالحكم الســـابق فـــى قضائه أنه يسلطكم عليهم ولا يسلطهم عليكم[٢] .

و(لولا) حرف امتناع لوجود ، أى يمتنع جوابها لوجود شـوطها ، والمعنى : لولا وجود حكم من الله مكتوب بإحلال الغنائم لمسكم ... الخ ، فهو عتاب على ترك الأولى لا على فعل منهى عنه تنزيها لرســول الله ـ ﷺ ـ عن مثل ذلك[٣]

فالمراد بالكتاب المكتوب وهو من الكتابة التى هى التعيين والتقدير ، وقد نكر الكتاب تنكير نوعية وإبهام ، أى : لولا وجود سنة تشـــريع سبق عن الله ، وذلك الكتاب هو عذر المستشار وعذر المجتـــهد فـــى اجتهاده إذا أخطأ ، وهذه الآية تدل على أن لله حكما فى كل حادثة وأنه نصب على حكمه أمارة هى دليل المجتهد ، وأن مخطئه من المجتهدين

---

[١] راجع ذلك فى : جامع البيان للطبرى : ٣٤/١٠ ، وتفسير القـــرآن لأبـــى المظفـــر السمعانى ٢٨٠/٢ ، والكشـــاف : ١٦٩،١٦٨/٢ ، ومفـــاتيح الغيـــب : ٥٣٩/١٤ ، وحاشية الشهاب ٢٩٣/٤ وفى ظلال القران : ١٥٥٣/١٠ .

[٢] ينظر : البحر المحيط : ٥١٩/٤ .

[٣] ينظر : بغية الرجال فى تفسير سورة الأنفال أ.د/ على محمد نصـــر ص ٢٣٩ ط : الأمانة

لا يأثم بل يؤجر[١].

وقوله تعالى : ﴿ لمسكم فيما أخذتم عـــذاب عظيـــم ﴾ المـــراد أى : أصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب عظيـــم لا يقادر قدره فى شدته وألمه .

والعذاب يجوز أن يكون عذاب الآخرة ، ويجوز أن يكون العـذاب المنفى عذابا فى الدنيا ، أى : لولا قدر من الله سبق مـــن لطفـــه بكـــم فصرف بلطفه وعنايته عن المؤمنين عذابا كان من شأنه أخذهم الفـــداء أن يسببه لهم ، وهذا العذاب عذاب دنيـــوى ، لأن عـــذاب الآخـــرة لا يترتب إلا على مخالفة شرع سابق ، ولم يسبق من الشرع مـــا يحـــرم عليهم أخذ الفداء ، فالمراد بالعذاب أن أولئك الأسرى يسعون إلى أخـــذ ثأر قتلاهم واسترداد أموالهم ، فلو فعلوا لكانت دائرة عظيمـــــة علـــى المسلمين ، ولكن الله سلم المسلمين من ذلك ، فصرف المشركين عـــن محبة أخذ الثأر وألهاهم بما شغلهم عن معاودة قتال المســـلمين فذلـــك الصرف هو من الكتاب الذى سبق عند الله تعالى[٢] .

وقد حصل من هذه الآية تحذير للمسلمين من العود للفداء فى مثل هذه الحالة وبذلك كانت تشريعا للمستقبل.

فالآية الكريمة تعتب على المؤمنين لأنهم آثروا الفداء على القتـــل والاثخان فى الأرض ، وذلك لأن غزوة بدر كنت أول معركة حاســـمة

---

[١] راجع ذلك فى : زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى : ٢٥٩/٣ ، ٢٦٠ ط: دار الفكر " بيروت " ط أولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ والتحرير والتنوير : ٧٧/١٠ .

[٢] راجع ذلك فى البحر المحيط : ٥١٨/٤ ، وحاشية الشهاب : ٥٠٨،٥٠٧/٤ .

بين الشرك والإيمان ، وكان المسلمون فيها قلة والمشركون كثرة ، فلو أن المسلمين آثروا المبالغة فى إذلال أعدائهم عن طريق القتل لكان ذلك أدعى لكسر شوكة الشرك وأهله ، وأظهر فى إذلال قريش وحلفائها وأصرح فى بيان أن العمل على إعلاء كلمة الله كان عند المؤمنين فوق متع الدنيا وأعراضها .

والخلاصة أن غزوة بدر ـ بظروفها وملابساتها ـ كان الأولى بالمسلمين فيها أن يبالغوا فى قتل أعدائهم لا أن يقبلوا منهم فداء حتى يذلوهم ويعجزوهم عن معاودة الكرة فهذا الحكم إنما كان يوم بدر لأن المسلمين كانوا قليلين ، فلما كثروا وقوى سلطانهم أنزل الله ـ تعالى ـ بعد ذلك فى الأسارى قوله ـ جل وعلا ـ : ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾[١] .

وقد يتوهم البعض أن قوله تعالى : ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ يزيد على حكم الآية التى نحن فى تفسيرها وليس الأمر كذلك ، لأن الآيتين متوافقتان ، فإن كلتيهما تدل على أنه لابد من تقديم الإثخان ، ثم بعده أخذ الفداء[٢] .

ثم زاد الله تعالى ـ رسوله ـ ﷺ ـ وصحابته فضلا ومنة ،

---

[١] سورة محمد ـ ﷺ ـ الآية رقم (٥) .

[٢] راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ٥٣٩/١٤ والجامع لأحكام القران : ٥٠،٤٩/٨ ، وفى ظلال القران : ١٥٥٣/١٠ ، والتفسير الوسيط للشيخ طنطاوى : ١٥٨،١٥٧/٦ ، ودستور الحرب فى الإسلام . دراسة تحليلية من سورة الأنفال د. منيع عبد الحليم محمود ص ١٨٨ ط : مطبعة الفجر الجديد ط أولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

فجعل غنائم الحرب حلالا لهم ـ ومنها هذه الفدية التى عوتب فيها ـ مذكرا إياهم بتقوى الله ، وهو يذكر لهم رحمته ومغفرته ، لتتوازن مشاعرهم تجاه ربهم فلا تغرهم المغفرة والرحمة ، ولا تنسيهم التقوى والمخافة .

وهكذا جاء العتاب من الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ ولصحابته ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ فى أبلغ صورة وفى أدق تعبير ، حيث وضع المولى ـ عز وجل فى هاتين الآيتين أنه ما ساغ لنبى ، نظرا لمقامة وعلو مكانته ورفعة شأنه ـ أن يكون له أسرى يأخذ منهم الفداء حتى يبالغ ويكثر من قتل الكفار لتربية المهابة للدين وللمؤمنين ولإيقاع الرعب فى قلوب المتمردين.

تريدون بهذا الفداء أيها المؤمنون ابتاع رسول الله حطام الدنيا الفانى والله يريد لكم الجنة بعمل الآخرة ، وهو إعزاز الدين وتوطيده بالإثخان فى القتل ، والله عزيز يغلب أولياءه على أعدائه ، ويمكنهم منهم قتلا وأسرا ويطلق لهم الفداء ولكنه حكيم يؤخر إلى أن يكثروا ويعزوا كما يأتى العتاب على ترك الواجب ، فقد يأتى أيضا على ترك الأولى ـ كما هنا ـ فالأولى فى ذلك الوقت الإثخان وترك الفداء قطعا للأطماع وحسما للنزاع ، ولولا أن ذلك من باب الأولى لما فوض النبى ـ ﷺ ـ ذلك إلى الأصحاب.

والله سبحانه أعلى وأعلم

الموقف الثالث

عتاب الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إذنه للمنافقين أن يتخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أذنه للمنافقين فى القعود عن الخروج فى غزوة تبوك

هذا موقف آخر من المواقف التى عاتب فيها المولى ـ عز وجل ـ رسوله محمدا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فقال الله ـ جل وعلا ـ : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾[1] .

وكان هذا العتاب حينما استأذن فريق من المنافقين النبى ـ ﷺ ـ أن يتخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك ، ومنهم : عبد الله بن أبى سلول ، والجد بن قيس ، ورفاعة بن التابوت ، وكانوا تسعة وثلاثين ، واعتذروا بأعذار كاذبة .

وأذن النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ اجتهادا منه لمن استأذنوه حملا للناس على الصدق ، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان ، وعلما بأن المعتذرين إذا ألجئوا إلى الخروج لا يغنون شيئا كما قال ـ تعالى ـ :﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ﴾[2].

فعاتب الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ـ ﷺ ـ فى أن أذن لهم لأنه لو لم يأذن لهم لقعدوا ولأحرجهم ، فينكشف أمرهم ، ولعلم أنهم الكاذبون فيما اعتذروا به ، فيكون ذلك دليلا للنبى ـ صلوات الله

---

(١) الآية رقم (٤٣) من سورة التوبة .

(٢) من الآية (٤٧) من سورة التوبة .

وسلامه عليه ـ على نفاقهم وكذبهم فى دعوى الإيمان[١]

ومما يؤيد ذلك ما ذكره الإمام السيوطى فى سبب نزول هذه الآية فقد أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدى قال : اثنتان فعلهما الرسول ـ ﷺ ـ لم يؤمر فيهما بشئ : إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسرى ، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى قوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ ؟[٢].

والآية الكريمة ـ التى نحن بصددها قبل كل شئ أسلوب قرآنى فيها ما فى أسلوبه المعجز من سمات وخصائص نورد بعضا منها .

بالنظرة المدققة فى افتتاح العتاب فى الآية بقوله تعالى : ﴿ عفا الله عنك ﴾ نلمح تفاوت النظر فى التعبير القرآنى فى دلالاته ، وما يلقيه فى نفوس السامعين من إيحاءات يبدو فيها هذا التفاوت ، وكأنه التناقض والاختلاف ، فعندما نقف أمام قوله تعالى ﴿ عفا الله عنك ﴾ ونتأمل ما فيها من معان خفية نجد فيها رأيين مختلفين .

الرأى الأول : يرى بعض المفسرين أن هذه العبارة (عفا الله عنك) كناية عن الذلة ، يقول الإمام البيضاوى ، وتبعه الإمام النسفى " وهو كناية عن الذلة لأن العفو رادف لها ، وقوله (لم أذنت لهم) بيان لما كنى عنه بالعفو ومعاتبة عليه ، والمعنى لأى شئ أذنت لهم فى

---

[١] راجع ذلك فى : جامع البيان : ٣٨١/٦ ، والكشاف : ١٩٢/٢ ، ومفاتيح الغيب : ٢٠/١٥ ، والجامع لأحكام القران : ١٤٤/٨ ، والتحرير والتنوير : ٢١٠/١٠ .

[٢] لباب النقول فى أسباب النزول ص ١٦٨ " بهامش تفسير الجلالين ، وينظر جامع البيان : ٣٨١/٦ ، والمحرر الوجيز : ٣٨/٣ ، وتفسير البغوى : ٤٤١/٣ .

القعود حين استأذنوك واعتلوا بأكاذيب وهلا توقفت[١] ، وإلى قريب من هذا ذهب صاحب التفسير المنير ، حيث يرى أن الكلام كناية عن خطئه فى الأذن لأن العفو يعقب الخطأ[٢] .

وفى هذا الاتجاه يبالغ الزمخشرى بما يراه جمهور المفسرين تجاوزا حيث يرى أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه : أخطأت وبئسما فعلت[٣].

وحاول بعض العلماء توجيه كلام الزمخشرى بأن قوله (كناية عن الجناية) مراده أن الأصل فيه ذلك فأبدله بالعفو تعظيماً لشأنه ، ولذا قدم العفو على ما يوجب الجناية ، فلا خطأ فيه ولو اتقى هو والبيضاوى موضع التهم كان أحرى وأولى[٤].

الرأى الثانى : وهو الرأى الراجح لما فيه من مراعاة الأدب مع الحبيب المصطفى ـ ﷺ ـ ومضمونه أن تصدير الخطاب بهذا التعبير فيه تعظيم لقدر النبى ـ ﷺ ـ وتوقير له ، وتوقير لحرمته ، وكثيراً ما يصدر الخطاب بنحو ما ذكر لتعظيم المخاطب ، فيقال : عفا الله عنك

---

[١] تفسير البيضاوى : ٣٢٩/٤ " بهامش حاشية الشهاب " وينظر تفسير النسفى : ٢٢٨/٢ .

[٢] التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج أ.د/ وهبة الزحيلى : ٢٢٨/١٠ .

[٣] ينظر : الكشاف : ١٩٢/٢ .

[٤] ينظر : حاشية الشهاب : ٣٢٩/٤ .

ما صنعت فى حاجتى ؟ ورضى الله عنك ، هلا زرتنى ؟[١]

وافتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم له ـ ﷺ ـ ولطافة شريفة ، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب وفى هذا الافتتاح كناية عن خفة موجب العتاب لأنه بمنزلة أن يقال : ما كان ينبغى ، وتسمية الصفح عن ذلك عفواً ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة : حسنات الأبرار سيئات المقربين[٢].

وهكذا نرى مدى التفاوت بين أن يكون التعبير موحياً بالجناية ، وأن يكون مشعراً بالتعظيم والتوقير ، وربما كان الخلاف فى التصور راجعاً إلى تفاوت الأذواق ، وحين يقف المتأمل أمام هذا النص القرآنى الكريم بنظرة متأنية مدققة فإنه يشعر بأنه عتاب المحب الذى يعرف فيه الطاعة والحرص على الرضا ، ولذا يعاتبه فى رفق حرصاً على مشاعره .

لذا نجد ابن المنير صاحب الإنصاف يعلق على كلام الزمخشرى السابق فيقول : " ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير ، وهو بين أمرين : إما أن لا يكون هو المراد ، وإما أن يكون هو المراد ، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، وخصوصاً فى حق المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالزمخشرى على كلا

---

(١) وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين ، ينظر : زاد المسير : ٣٠٢/٣ ، والجامع لأحكام القران ٣٢٩، وروح المعانى : ١٠٧/١٠ ، وفى ظلال القران : ١٦٦٢/١٠ .

(٢) الجواهر الحسان فى تفسير القران للثعالبى : ١٨٣/٣ ، ١٨٤ ، والتحرير والتنوير : ٢١٠/١٠ .

التقديرين ذاهل عما يجب من حقه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، ولقد أحسن من قال فى هذه الآية : إن من لطف الله ـ تعالى ـ بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء (لم أذنت لهم) لتفطر قلبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البشر ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ[1] .

وقيل إن قوله (عفا الله عنك) استفتاح كلام كما تقول : أصلحك الله ، وأعزك الله ، ولم يكن منه ـ عليه السلام ـ ذنب يعفى عنه ، لأن الاستغفار وقبول الأعذار مصروفة إلى اجتهاده ، فهو خبر قصد به تقديم المسرة على المضرة ، فهو من لطف الله ـ تعالى ـ بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتاب.

وكان تقديم العفو على العتاب واللوم لطفا عظيما من الله ـ تعالى ـ برسوله ـ ﷺ ـ ومبالغة فى تعظيمه وتوقيره ، وهو أخف من العتاب على قبوله مفاداة أسرى بدر ، الذى صدر بتقرير حازم صارم ، كما سبق بيان ذلك وتوضيحه فى قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى .. ﴾[2] .

وأورد ابن الجوزى وابن كثير فى تفسيريهما : " هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة ، فقال : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ ، وقال قتادة : عاتبه كما تسمعون : ثم أنزل الله ـ تعالى

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال : ١٩٢/٢ .

(٢) الآية (٦٧) من سورة الأنفال ، وراجع ذلك فى : الجواهر الحسان : ١٨٤،١٨٣/٣ ، والتفسير المنير : ٢٢٨/١٠ .

ـ في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم .. ﴾ [١] .

شبه والرد عليها :

احتج بعضهم بهذه الآية على صدور الذنب عن الرسول ـ ﷺ ـ من وجهين الأول : أنه تعالى قال (عفا الله عنك) فأصدر العفو ، والعفو يستدعي سابقة الذنب والثاني : : أنه تعالى قال : (لم أذنت لهم) هذا الاستفهام بمعنى الإنكار ، فدل هذا على أن ذلك الإذن كان معصية وذنباً .

والجواب عن الأول : إنا لا نسلم أن قوله تعالى (عفا الله عنك) يوجب الذنب ، وإنما ذلك دليل على مبالغة الله ـ تعالى ـ في تعظيم نبيه وتوقيره كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً عنده : عفا الله عنك ما صنعت في أمري ؟ ورضي الله عنك ، ما جوابك عن كلامي ؟ وعافاك الله ، ما عرفت حقي ! فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم .

والجواب على الثاني : بأنه بعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه ، ويحمل قوله (لم أذنت لهم) على ترك الأولى والأكمل ، لا سيما وهذه الوقعة من قضايا الحرب ومصالح الدنيا التي يجوز للنبي ـ ﷺ ـ الاجتهاد فيها اتفاقاً ، فكان ما حكم به صادراً

---

[١] الآية (٦٢) من سورة النور ، وراجع ذلك في تفسير ابن الجوزي : ٣٠٢/٣ ، وتفسير ابن كثير : ٣٧،٣٦/٤ .

بمقتضى الاجتهاد[١]

دلالة الاستفهام فى قوله تعالى (لم أذنت لهم) :

ونلاحظ أن فى الآية موقفاً آخر لتفاوت وجهات النظر عند التأمل فى سياق الآية ، ونجد ذلك الموقف حول الاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ (لم أذنت لهم) ؟ حيث يرى بعض المفسرين أن الاستفهام فى الآية خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى بلاغى وهو الإنكار ، وعلى هذا فالمولى ـ عز وجل ـ ينكر على نبيه ـ ﷺ ـ صدور الإذن للمنافقين فى القعود عن الخروج إلى غزوة تبوك .

والمحققون المدققون من المفسرين يرون أن جملة الاستفهام خارجة مخرج العتاب والتلطف بالحبيب المصطفى ـ ﷺ ـ فإنه بعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجه إليه الإنكار ، وتحمل جملة الاستفهام على معنى ترك الأولى ، والأكمل ، لا سيما وهذه الوقعة من قضايا الحرب ومصالح الدنيا التى يجوز للنبى ـ ﷺ ـ الاجتهاد فيها[٢]

وألقى إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة إيماء إلى أنه ما أذن لهم إلا لسبب تأوله ورجا منه الصلاح على الجملة بحيث يسأل عن مثله فى استعمال السؤال من سائل يطلب العلم ، وهذا من صيغ التلطف فى الإنكار واللوم بأن يظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التى خفيت عليه ، ثم أعقبه بأن ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم وهو غرض

---

(١) راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ١٥/٢٠،٢١ ، والتفسير المنير : ١٠/٢٣٣ .

(٢) راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ١٥/٢٠،٢١ ، والجامع لإحكام القران : ٨/١٤٤ ، وتفسير أبى السعود : ٤/٦٨،٦٩ ، وحاشية الشهاب : ٤/٣٢٩ .

آخر لم يتعلق به قصد النبى ـ ﷺ ـ [١]

وعلى الرغم من هذا الخلاف الذى وقع فى دلالة الاستفهام فى الآية ، ومهما تكن أسباب هذا الخلاف ، وسواء كانت نظرة تذوقية أم كانت انعكاساً لنظرة العلماء الناظرين فى أمر العصمة ، فالذى يمكن أن نستنتجه من هذا الخلاف أن التعبير القرآنى يعطى دلالته ، وكل متأمل يستشفها باستعداده أو بنظرته المتأنية ، أو بنظرة مجردة ،وكل هذا يدل دلالة واضحة على أن عبارات القرآن ثرية بالايحاءات والدلالات لكل من يدقق النظر ويتأمل فى النسق القرآنى

من روعة وجمال النظم أو السبك فى الآية :

ونلمح من دقائق التعبير فى هذا العتاب أن كل كلمة فيه تأخذ كأنها فى إحكام متفرد لا نراه فى غير القرآن ، فعندما نتأمل قوله تعالى : ﴿ **حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ وما فيه من دقة التعبير فى تغيير الأسلوب ، فنلاحظ الآتى :

أولاً : من يدقق النظر يلاحظ أنه حين عبر عن حالة صدقهم ـ إن كان ـ استخدم اسم الموصول مع الفعل الدال على الحدوث فقال : ﴿ **حتى يتبين لك الذين صدقوا** ﴾ ، وحين عبر عن حالة كذبهم المتيقن استخدم اسم الفاعل الدال على الدوام فقال : ﴿ **وتعلم الكاذبين** ﴾ ، وذلك يعطى إحساساً لدى المتلقى بأنه لما كان الكذب دأبهم وهو جار على عاداتهم المستمرة ناسبه الوصف الدال على

---

[١] راجع ذلك فى : تفسير أبى السعود : ٦٨/٤ ، والتحرير والتنوير : ٢١٠/١٠ .

الدوام .

فاختيار اسم الفاعل يوحى وينطق بأن الكذب صفتهم اللازمة التى لا تفارقهم ، وذلك ما لا نراه فى الصدق الذى استخدمه مع الفعل الدال على الحدوث[١].

ثانياً : كذلك نلمح بنظرة متأملة أخرى دقة اختيار نظم الكلمات ، فنرى اختيار الفعل (يتبين) مع (الصدق) ، ومجئ الفعل (تعلم) مع (الكاذبين) ، وما فى ذلك من الدقة لأن ذلك راجع إلى مدلول الخبر فالمشهور فيه هو الدلالة على الصدق ، أما الكذب فهو احتمال فيه فظهور صدقهم ـ إن كان ـ يعد (تبييناً) لذلك المدلول ، وانقطاع احتمال نقيضه ، وأما كذبهم فأمر حادث لا دلالة فيه للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبييناً له ، بل نقيض لمدلوله ، ولذلك كانت المعرفة به تعد (علماً مستأنفاً)[٢].

ثالثاً : من يدقق النظر أيضاً فى هذه الآية ﴿ **حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ يلمح إسناد العلم له ـ ﷺ ـ دون المعلومين ، بأن يبنى الفعل للمفعول مع إسناد التبيين للأولين لما أن المقصود ههنا علمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهم ومؤاخذتهم بموجبه ، بخلاف الأولين حيث لا مؤاخذة عليهم ، فلا داعى لبناء الفعل

---

(١) راجع ذلك فى : تفسير أبى السعود : ٦٨/٤، ٦٩ ، وروح المعانى : ١٠٨/١٠ ، وتفسير المنار : ٤٠٣/٥ ، والتفسير الوسيط للشيخ الطنطاوى : ٣٠١/٦ .

(٢) ينظر : تفسير أبى السعود : ٦٤/٤ ، وروح المعانى : ١٠٨/١٠ ،والتفسير الوسيط ٣٠١/٦ ، ٣٠٢ .

للمفعول[١]

رابعاً : كذلك نلاحظ أنه حذف مفعول (أذنت) لظهوره من السياق ، أى لم أذنت لهم فى القعود والتخلف ، و(حتى) غاية لفعل (أذنت) لأنه لما وقع فى حيز الاستفهام الإنكارى ، كان فى حكم المنفى ، فالمعنى : لا مقتضى للإذن لهم إلى أن يتبين الصادق من الكاذب .

خامساً : فى زيادة (لك) بعد قوله (يتبين) زيادة ملاطفة بأن العتاب ما كان إلا عن تفريط فى شئ يعود نفعه إليه ، والمراد بالذين صدقوا : الصادقون فى إيمانهم ، وبالكاذبين : الكاذبين فيما أظهروه من الإيمان وهم المنافقون ، فالمراد بالذين صدقوا المؤمنون[٢]

السمات الخاصة بأسلوب العتاب فى الآية :

كل ما سبق يعتبر سمات عامة لأسلوب القرآن الكريم فى جملته ، وسواء فى ذلك أسلوب العتاب وغيره فما الذى يتبين لنا من سمات تبدو لنا وكأنها الخاصة بأسلوب العتاب ؟

أولاً : أول هذه السمات ارتباط الآية بحدث وموقف ، فهى هنا مرتبطة بموقف هو أن أذن الرسول — ﷺ — لمن استأذنوه دون انتظار للوحى ، وكان جديراً به أن يتلبث حتى يأتيه خبر المساء ، ذلك

---

[١] ينظر : تفسير أبى السعود : ٦٩/٤ ، وروح المعانى : ١٠٨/١٠ ، وتفسير المنار : ٤٠٣/٥ .

[٢] راجع ذلك فى : التحرير والتنوير : ٢١١/١٠ ، والتفسير الوسيط : ٣٠٢/٦ .

أن الأناة أقرب إلى الحزم اللائق بشأنه ـ ﷺ ـ وأنسب للسياسة وأنفع للضبط العسكرى .

ثانيا : ومن تلك السمات أن العتاب يستهدف غاية ، وهى هنا تربية الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على الأناة فى الأمر وانتظار كلمة الوحى فى الشؤون العليا المتصلة بالحرب ، وسياسة القيادة العسكرية ،والتوجيه لا يعنى مصادرة الاجتهاد ، فهو مباح للأنبياء ، والخطأ فيه احتمال ، وليس هذا الخطأ ـ إن وقع ـ مجال مؤاخذة[1].

ثالثاً : من هذه السمات أيضاً ملاءمة صيغة العتاب فى وقعها لباعث العتاب ، وهو هنا ليس إلا العجلة إلى الأذن اجتهاداً والذى كان ينبغى هو الأناة فى الأمر حتى ينزل الوحى ، فقد كان هذا الانتظار كفيلاً بتعرية موقف المنافقين ، وكشف كذبهم .

ولما كان ما حدث من الرسول ـ ﷺ ـ أمراً يسيراً فى ذاته ، ولكنه إذا قيس بمقامه الأسمى ، عد خلافاً للأولى على حد قول المفسرين ، فلما كان الأمر هكذا جاء أسلوب العتاب هادئاً ليناً رفيقاً رقيقاً يكشف عن روح الود والمحبة ، وحرص الله ـ تعالى ـ المربى نبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على المثالية العليا فى مصطفاه وخاتم رسله .

---

[1] راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ١٥/٢١،٢٢ ، والتفسير الوسيط : ٦/٣٠٢ ، والتفسير المنير : ١٠/٢٣٣ .

والله ـ تعالى ـ تكرماً منه يفيض من وده على أصفيائه ، ألا تراه يخاطب نجيه موسى ـ عليه السلام ـ بكلمات تنطق بالاحتباء والرضا ، فيقول : ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى * واصطنعتك لنفسي ﴾[١] ، ويقول له أيضاً : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾[٢].

ولصفيه وحبيبه محمد ـ ﷺ ـ من المكانة بين الرسل المنزلة العظمى والدرجة العليا لذا فهو ينال منعطف الله ولطفه مما يعبر عنه فى القرآن الكريم بمثل قوله ـ تعالى ـ مخاطباً إياه : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[٣] وأيضاً فإنه حين يعاتبه فى موقف لا مؤاخذة فيه فإن عتابه يجرى فى مضمار هذا الود ، وذلك الرضا ، وأحسب أن أكثر من يتلو هذه الآية مصغياً لواقع كلماتها يحس أن مستهلها يكسب الرأفة والحنو ، ويفيض بالرقة واللطف الذى ينطق به هذا التعبير الراحم (عفا الله عنك) ، وليس أدل على هذا من التقاء المفسرين ـ أكثرهم ـ على ذلك الاستشعار .

" أخرج ابن المنذر وغيره عن عون بن عبد الله قال : سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ يبدأ بالعفو قبل المعاتبة "[٤].

ويقول القرطبى : " أخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقاً

---

[١] الآية رقم (٣٩) من سورة طه ـ عليه السلام ـ .

[٢] الآية رقم (٣٩) من سورة طه ـ عليه السلام ـ

[٣] من الآية (٤٨) من سورة الطور .

[٤] راجع ذلك فى روح المعانى : ١٠٨/١٠ ، وفى ظلال القران : ١٦٦٢/١٠ ، والتفسير الوسيط : ٣٠٢/٦ .

وهذا عتاب تلطف إذ قال : ﴿ عفا الله عنك ﴾ [١] .

وقال بعض العلماء فى تقويم موقف العتاب ورؤية أسلوبه فى الآية : " إنما بدر منه ـ يعنى رسول الله ـ ﷺ ـ ترك الأولى وقدم له العفو قبل الخطاب الذى هو فى صورة العتاب "[٢].

رابعاً : أضف إلى ذلك كله مدى التناسب والتناسق العجيب بين موقف العتاب ، وأسلوبه ، وذلك شأن أسلوب العتاب فى القرآن الكريم .

خامساً: كذلك من السمات الغالبة فى أسلوب العتاب إيثار الإيجاز حتى لكأنه ظاهرة واضحة فى هذا الأسلوب ، فآية قصيرة لا تتجاوز ثلاث عشرة كلمة حملت إلينا أخباراً بأن إذناً للقاعدين قد منح ما كان ينبغى أن يقع ، وأن هذا الإذن فوت على الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يعلم كذبهم بالوسائل المعتادة دون تدخل الوحى بإخباره ثم قدمت لنا عتاباً على نحو هو غاية فى الأحكام والدقة .

فنراه يبدأ بجملة تسكب الطمأنينة فى نفس النبى ـ ﷺ ـ قبل مواجهته بالعتاب ، وهى جملة تلقى فى هذا التعبير الراقى الجميل (عفا الله عنك) وبعده يأتى بأسلوب استفهام قد يشعر بشئ من خفيف لوم ، ولكنه كسب من الجملة التى قبل صدى الصفح ورنين العفو ، فجاء

---

[١] الجامع لأحكام القران : ١٥٤/٨ .

[٢] ينظر : الجامع لأحكام القران : ١٥٤/٨ ، وتفسير أبى السعود : ٦٩/٤ ، وحاشية الشهاب : ٣٢٦/٤ .

على الرسول ـ ﷺ ـ خفيف الوقع ، ويحس من يتدبره روح الحب والحرص على النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

سادساً : ثم تأتى الإشارة إلى الثمرة المرتجاه من التلبيث والأناة ـ لو كان ذلك حدث ـ فى كلمات مركزة دقيقة " حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين "[1].

سابعاً : وأخيراً نرى للاستفهام هنا موقعه فيأتى وكأنه الأسلوب الأكثر ملائمة لجو العتاب ذلك لأن هذا الأسلوب من أكثر الأساليب طواعية فى الخروج إلى أهداف خطابية متنوعة .

فهو يصلح للتعظيم ، والتحقير ، وللتهويل ، وللتقريع ، والتقرير وللنفى والإنكار ، وهو بذلك يعكس التفجع والأسى ، ولعلنا لا نكون متسرعين إذا قلنا من وراء مالاحظناه فى أسلوب المعاتبة أن من المرامى التى يستهدفها هذا الأسلوب خروجه إلى العتاب فهو قادر على تجسيد مشاعر المعاتب حين يجد شيئاً يدفعه إلى لوم أو تأنيب ، وهو قادر على حفز من يوجه إليه العتاب على استرضاء من عاتبه ، فما أكثر أن يستجيب إلى نداء الود ، ويعطى العتبى ، ويترضى من عاتبه بالعدول عن أسباب عتبة ، فتجرى حياة الأصفياء على عهدها من حرارة القلب وصفاء الود .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلى وأعلم

---

[1] راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ١٥/٢٢،٢٣ ، وتفسير أبى السعود : ٤/٦٩،وحاشية الشهاب : ٤/٣٢٩ ، وروح المعانى : ١٠/١٠٨،١٠٩ .

الموقف الرابع

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ حين حرّم على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى تحريم ما أحل الله له ابتغاء لمرضاة أزواجه

هذا موقف آخر من المواقف التى سجلها القرآن الكريم ، والتى عاتب فيها المولى ـ عز وجل ، نبيه محمدا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حتى سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم هذا الموقف ، وهى سورة التحريم ، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ مستهلا السورة بقوله ـ جل وعلا ـ : ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم** ﴾[1]

وسبب نزول هذه السورة ما ثبت فى الصحيح من السيدة عائشة ـ رضى الله عنها أن النبى ـ ﷺ ـ كان قد شرب عسلا عند إحدى نسائه ، اختلف فى أنها زينب بنت جحش ، أو حفصة ، أو أم سلمة ، أو سودة بنت زمعة ، والأصح أنها زينب ، فعلمت بذلك عائشة فتواطأت هى وحفصة على أن أيتهما دخل عليها الرسول ـ ﷺ ـ تقول له (إنى أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير) والمغافير : صمغ شجر العرفط وله رائحة مختمرة ، وكان النبى ـ ﷺ ـ يكره أن توجد من رائحة وإنما تواطأتا على ذلك غيرة منهما أن يحتبس عند زينب زمانا يشرب فيه عسلا ، فدخل على حفصة فقالت له ذلك ، فقال : بل شربت عسلا عند فلانة ، ولن أعود له ، أراد بذلك استرضاء حفصة فى هذا الشأن وأوصاها أن لا تخبر بذلك عائشة (لأنه يكره غضبها) فأخبرت

---

[1] الآية الأولى من سورة التحريم .

حفصة عائشة فنزلت الآيات [١]

هذا أصح ما روى فى سبب نزول هذه الآيات ، والتحريم هو قوله : (ولن أعود له) لأن النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يقول إلا صدقا وكانت سودة تقول : لقد حرمناه .

وقيل إن رسول الله ـ ﷺ ـ دخل بأم ولده مارية فى بيت حفصة فوجدته حفصة معها ، فقالت : تدخلها بيتى ، ما صنعت بى هذا من بين نسائك إلا من هوانى عليها ، فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة ، فهى على حرام إن قربتها ، قيل : فقالت حفصة : كيف تحرم عليك وهى جاريتك ، فحلف لها أن لا يقربها ، فذكرته حفصة لعائشة ، فآلى أن لا يدخل على نسائه شهرا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك** ﴾ [٢] .

فالغرض الأصيل من هذه السورة (وخاصة الآية الأولى) عتاب الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عتابا رقيقا لطيفا فى التحريم والتحليل قبل ورود وحى سماوى ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك** ﴾

فما تضمنه سبب نزولها أن أحدا لا يحرم على نفسه ما أحل الله له لإرضاء أحد إذ ليس ذلك بمصلحة له ولا للذى يسترضيه ، فلا ينبغى

---

[١] راجع ذلك فى أسباب النزول للواحدى ص ٨٣١ ، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ٤٩٩ ، ٥٠٠ بهامش تفسير الجلالين .

[٢] راجع ذلك فى : الكشاف : ١٢٤/٤ ، ومفاتيح الغيب : ٥٨٥/٣ ، ٥٨٦ ، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى : ٤٩٩، ٥٠٠ ، وحاشية الشهاب : ٢٠٣/٩ ، وروح المعانى : ١٤٦/٢٨ ، ١٤٧ .

أن يجعل كالنذر إذ لا قربة فيه ، وما هو بطلاق لأن التى حرمها جارية ليست بزوجة ، فإنما صلاح كل جانب فيما يعود بنفع على نفسه أو ينفع به غيره نفعا مرضيا عند الله ، وتنبيه نساء النبى ـ ﷺ ـ إلى أن غيرة الله ـ سبحانه ـ على نبيه ـ ﷺ ـ أعظم من غيرتهن عليه ، وأسمى مقصدا ، وأن الله يطلعه على ما يخصه من الحادثات .

كذلك تناولت أمرا على جانب كبير من الخطورة ألا وهو إفشاء السر الذى يكون بين الزوجين والذى يهدد الحياة الزوجية بالتردى والتوقف ، وضربت المثل برسول الله ـ ﷺ ـ حيث أسر إلى حفصة حديثا ، واستكتمها إياه فأفشته إلى عائشة حتى شاع وذاع مما أغضبه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ [١]

عندما جرى قدر الله ـ تعالى ـ أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقى إلى آخر الخليقة ، وأن تجرى حياة المؤمنين به وفق الناموس الكونى العام ، وأن يكون هذا الدين هو الذى يقود حياة البشرية ويهيمن على نشاطها فى كل ميدان .

عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج فى هذه الصورة ، شاملا كاملا متكاملا ، يلبى كل طاقات البشر واستعداداتهم فى الوقت الذى يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللائق بخليفة الله فى الأرض ، وبالكائن الذى كرمه الله على كثير من عباده ونفخ فيه من روحه .

---

[١] راجع ذلك فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية : ١٤٨/٣ ، ١٤٩ ، وتفسير التحرير والتنوير : ٣٤٤/٢٨، ٣٤٥ .

وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام : نموا وتكاثرا ورفعه وتطهرا ، فى آن واحد ، فلم يعطل طاقة بانيـة ، ولـم يكبـت استعدادا نافعا ، بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات ، وفى الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفـاع إلـى الأفق الكريم الذى يهيئ الأرواح فى الدنيا لمستوى نعيم الآخرة ، ويعـد المخلوق الفانى فى الأرض للحياة الباقية فى دار الخلود .

وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكـذا جـرى كذلك باختيار رسولها ــ ﷺ ــ إنسانا تتمثل فيـه هـذه العقيـدة بكـل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هـو بذاتـه وبحياتـه الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها ، إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها ، ضليع التكوين الجسدى ، قوى البنية ، سـليم البنـاء ، صحيح الحواس يقظ الحس ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقى والاستجابة ، وهو فى الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفـق ، قـوى الإرادة ، يملك نفسه ، ولا تملكه ، ثم هو بعد ذلك كلـه النبـى الـذى تشرق روحه بالنور الكلى ، فينادى من السماء ، ويرى نور ربه ، ثـم تتوازن فى شخصيته هذه الطاقات كلها ، فإذا هـو التـوازن المقـابل لتوازن العقيدة التى اختير لها[١].

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشـرية كلها ، تقرأ فيه صور هذه العقيدة ، وترى فيه تطبيقاتها الواقعية ، ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا ، ولا سترا مطويا ، بل يعرض جوانـب

---

[١] راجع ذلك فى : ظلال القرآن : ٦/٣٦٠٩، ٣٦١٠ .

كثيرة منها فى القرآن الكريم ، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس فى حياة الإنسان العادى ، حتى مواضع الضعف البشرى الذى لا حيلة فيه لبشر ، بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد فى كشف هذه المواضع فى حياة الرسول ـ ﷺ ـ للناس .

إنه ليس له فى نفسه شئ خاص فهو لهذه الدعوة كله فعلام يختبئ جانب من حياته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أو يخبأ ؟ إن حياته هى المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة ، وقد جاء ـ ﷺ ـ ليعرضها للناس فى شخصه ، وفى حياته ، كما يعرضها بلسانه وتوجيهه .

ولقد حفظ عنه أصحابه ونقلوا للناس بعدهم أدق تفصيلات هذه الحياة ، فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى فى حياته العادية اليومية لم تسجل ولم تنقل ، وكان هذا طرفا من قدر الله فى تسجيل حياة هذا الرسول ، أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة فى حياة الرسول ، فكان هذا إلى جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقى للبشرية إلى نهاية الحياة .

وهذه السورة تعرض فى صدرها صفحة من الحياة البيتيه لرسول الله ـ ﷺ ـ وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات فى حياته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وفى حياة الجماعة المسلمة كذلك .. ثم فى التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع فى بيوت رسول الله وبين أزواجه .

ولكن الحياة فى جو النبوة فى بيوت رسول الله ـ ﷺ ـ لم تكن لتقضى على المشاعر البشرية والهواتف البشرية فى نفوس أزواجه ـ رضى الله عنهن ـ فقد كان يبدر أو يشجر بينهن مالا بد أن يشجر فى قلوب النساء فى مثل هذه الحال ، وهذا الحادث الذى نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التى كانت تقع فى حياة الرسول ـ ﷺ ـ وفى حياة أزواجه رضى الله عنهن[1]

من خصائص النظم القرآنى فى هذا الموقف من العتاب :

نلاحظ من خصائص النظم فى هذه الآية أنها افتتحت بخطاب النبى ـ ﷺ ـ بالنداء (يا أيها النبى) لما فيه من التنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والأمة ، ولأن سبب النزول كان من علائقه .

وأسلوب النداء يعد طريقا من طرق التشويق إلى المعنى فى القرآن الكريم ، لأن النداء يهيئ المنادى وينبهه ، فيصغى بعناية وتشوق إلى ما يوجه إليه بعد النداء ، ويترقبه ، ويتطلع إلى معرفته والإحاطه به .

وفى خطاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ بقوله (يا أيها النبى) مع أن الحال عتاب ولوم دليل على ما للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من مكانة فى التكريم والتعظيم عند الله تعالى حيث ناداه بأشرف وصف ألا وهو وصف النبوة والاصطفاء .

---

[1] راجع ذلك فى : حاشية الشهاب : ٩/٢٠٣،٢٠٤ ، وفى ظلال القران : ٦/٣٦١٠ وما بعدها .

يقول الألوسى : " وفى ندائه ـ ﷺ ـ (يا أيها النبى) فى مفتتح العتاب من حسن التلطف به والتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى "[١].

ويحتمل أن يكون الوصف بالنبوة فى هذا الموضع له دخل فى العتاب أى من حيث أنك نبى وأزواجك من أتباعك فلم تشق على نفسك مع أنك نبى والكل فى مرضاتك لا أن تشق على نفسك ابتغاء مرضاة أحد من اتباعك .

والاستفهام فى قوله تعالى:﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ ؟ إنكارى مستعمل فى معنى النفى ، أى لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك ، ذلك أنه لما التزم عدم العود إلى ما صدر منه التزاماً بيمين أو بدون يمين أراد الامتناع منه فى المستقبل قاصداً بذلك تطمين أزواجه اللائى تمالأن عليه لفرط غيرتهن ، أى ليست غيرتهن مما تجب مراعاته فى المعاشرة أن كانت فيمالا هضم فيه لحقوقهن ، ولا هى من إكرام إحداهن لزوجها إن كانت الأخرى لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإكرام فى بعض الأيام ، وهذا يومئ إلى ضبط ما يراعى من الغيرة وما لا يراعى[٢].

فهذا عتاب مؤثر موح ، فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله من متاع ، والرسول ـ ﷺ ـ لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعى إنما كان قد قرر حرمان نفسه ، فجاء هذا

---

[١] روح المعانى : ١٤٧/٢٨ .

[٢] راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ٥٨٦/٣٠ ، والتحرير والتنوير : ٣٤٦/٢٨ .

العتاب يوحى بأن ما جعله الله حلالاً فلا يجوز حرمان النفس منه عمداً وقصداً إرضاء لأحد .

والمولى ـ عز وجل ـ فى هذا العتاب يشير إلى الحديث ولا يذكر موضوعه ولا تفصيله ، لأن موضوعه ليس هو المهم ، وليس هو العنصر الباقى فيه ، إنما العنصر الباقى هو دلالته وآثاره .

ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة فى تاريخ البشرية ، الفترة التى يعيش فيه الناس مع السماء ، والسماء تتدخل فى أمرهم علانية وتفصيلاً ، ونعلم أن الله ـ سبحانه ـ قد أطلع نبيه ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث الذى أسره إلى بعض أزواجه ، وأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه ترفعاً عن السرد الطويل ، وتجملاً عن الإطالة فى التفصيل ، وأنه أنبأها بمصدر علمه ، وهو المصدر الأصيل [1].

وفعل (تحرم) مستعمل فى معنى : تجعل ما أحل لك حراماً ، أى: تحرمه على نفسك كقوله تعالى:﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾[2] ، وقرينته هنا قوله تعالى : ﴿ ما أحل الله لك ﴾.

وليس معنى التحريم هنا نسبة الفعل إلى كونه حراماً كما فى قوله تعالى:﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾[3]،وقوله ـ جل وعلا ـ ﴿ يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾[1] ، فإن

---

[1] فى ظلال القران : ٦/٣٦١٥ ، ٣٦١٦ .

[2] من الآية (٩٣) من سورة ال عمران .

[3] من الآية (٣٢) من سورة الأعراف .

التفعيل يأتى بمعنى التصيير ، ويأتى بمعنى إيجاد الشئ على حاله ، ولا يخطر ببال أحد أن يتوهم منه أنك غيرت إباحته حراماً على الناس او عليك .

وصيغة المضارع فى قوله ـ عز وجل ـ (لم تحرم) لأنه أوقع تحريماً متجدداً ويرى الآلوسى أن نسبة التحريم إليه ـ ﷺ ـ مجاز ، والمراد لم تكون سبباً لتحريم الله ـ تعالى ـ عليك ما أحل الله لك بحلفك على تركه[٢].

فالتعبير على هذا من قبيل المجاز المرسل[٣] والعلاقة المسببية ، حيث عبر بالمسبب وهو التحريم ، وأراد السبب ، وهو الحلف على الترك .

هذا وتحريم الحلال على وجهين : الأول : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل فى الحرام ، وهو محظور يوجب الكفر ، فلا يمكن صدوره عن المعصوم أصلاً ، والثانى : الامتناع عن الحلال مطلقاً أو مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله ،

---

(١) من الآية (٣٧) من سورة التوبة .

(٢) ينظر: روح المعانى : ١٤٨/٢٨ .

(٣) عرّفه البلاغيون بأنه الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له لعلاقة غير المشابهة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى ، وسمى مرسلاً لأنه أرسل عن دعوى الاتحاد المعتبرة فى الاستعارة إذ ليست العلاقة بين المعنيين المشابهة حتى يدعى اتحادهما ، أو لأنه أرسل أى أطلق عن التقيد بعلاقة واحدة ، ينظر : التصوير البيانى د. حفنى شرف ص ٨٨ ، ونظرات فى البيان ص ٢١٩ ، والتصوير البيانى أ.د/ محمد أبو موسى ص ، وعلم البيان د. فيود ص ١٤٤ .

وهذا مباح صرف ، وحلال محض ، وما وقع منه — ﷺ — كان من هذا النوع ، وإنما عاتبه تعالى على ما بدر منه رفقاً به وتنويهاً بقدره ، وإجلالاً لمنصبه — ﷺ — أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى — بنبيه ورفعه عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم اتباعه ومن اجله خلقوا ليظهر الله — سبحانه — كمال نبوته بظهور نقصانهم عنه[١] .

وفى الإتيان بالموصول فى قوله ﴿ ما احل الله لك ﴾ لما فى الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم وهو أن ما أحله الله لعبده ينبغى له أن يتمتع به ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضر أو مرض ، لأن تناوله شكر لله واعتراف بنعمته والحاجة إليه.

وجاءت جملة ﴿ تبتغى مرضات أزواجك ﴾ مفصولة عما قبلها ، ولم تعطف بالواو ، وسر الفصل شبه كمال الاتصال ، أو الاستئناف البيانى ، وذلك لأن الاستفهام فى قوله جل وعلا — :﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ ؟ ليس على الحقيقة ، بل الغرض منه معاتبة النبى — ﷺ — على ان التحريم لم يكن عن باعث مرضى ، فاتجه أن يسأل ما ينكر منه وقد فعله غيرى من الأنبياء — عليهم السلام — ألا ترى إلى قوله — سبحانه وتعالى — : ﴿ إلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[٢] ، فقيل فى الجواب

---

[١] راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ٥٨٧/٣٠ ، والإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال : ١٢٥/٤ ، وروح المعانى ١٤٨/٢٨ ، والتفسير الوسيط : ١٤٨٢/٣ ، والتحرير والتنوير : ٣٤٦/٢٨ .

[٢] من الآية (٩٣) من سورة ال عمران .

: ﴿ تبتغي مرضات أزواجك ﴾ ، ومثلك من اجل أن تطلب مرضاتهن بمثل ذلك ويجوز أن يكون الفصل هنا لكمال الاتصال على أن تكون جملة ﴿ تبتغي مرضات أزواجك ﴾ بمثابة التفسير أو البدل أو عطف البيان لجملة (تحرم) بجعل ابتغاء مرضاتهن عين التحريم مبالغة في كونه سبباً له ، وفيه من تفخيم الأمر ما فيه[١].

وفي قوله تعالى :﴿ تبتغي مرضات أزواجك ﴾ عذر للنبي — ﷺ — فيما فعله من أنه أراد به خيراً وهو جلب رضا الأزواج لأنه أعون على معاشرته مع الإشعار بأن مثل هذه المرضاة لا يعبأ بها ، لأن الغيرة نشأت عن مجرد معاكسة بعضهن بعضاً ، وذلك مما يخل به حسن المعاشرة بينهن ، فأنبأه الله أن هذا الاجتهاد معارض بأن تحريم ما أحل له يفضي إلى قطع كثير من أسباب شكر الله — تعالى — عند تناول نعمة ، وأن ذلك ينبغي إبطاله في سيرة الأمة .

ونلمح جمال التذييل في الآية ومغزاه البلاغي ، فقد ذيل الآية بجملة (والله غفور رحيم) استئناساً للنبي — ﷺ — من وحشة هذا الملام ، أي والله غفور رحيم لك ، مثل قوله — عز وجل — ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾[٢].

كذلك في التعقيب بقوله (والله غفور رحيم) أيضاً ما يوحي بأن

---

[١] راجع ذلك في : الكشاف : ١٢٥/٤ ، وحاشية الشهاب : ٢٠٣/٩ ، ٢٠٤ ، وروح المعاني : ١٤٧/٢٨ .

[٢] من الآية (٤٣) من سورة التوبة ، وقد سبق الحديث عن بلاغة النظم القرآني في أسلوب العتاب في هذه الآية ، ينظر : ص ٩١ وما بعدها .

هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة ، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته وهذا إيحاء لطيف[١].

وقد رضيت نفس النبى — ﷺ — بعد نزول هذه الآيات ، وخطاب ربه له ولأهل بيته ، واطمئنان هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة ، وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله — سبحانه — وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره فى إنشاء منهج الله فى الأرض وتثبيت أركانه.

وبعد فهذه صورة من الحياة البيتيه لهذا الرجل الذى كان ينهض بإنشاء أمة ، وإقامة دولة ، على غير مثال معروف ، وعلى غير نسق مسبوق ، أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية فى صورتها الأخيرة ، وتنشئ فى الأرض مجتمعاً ربانياً فى صورة واقعية يتأسى بها الناس .

وهى صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل القدر ، عظيم ، يزاول إنسانيته فى الوقت الذى يزاول فيه نبوته ، فلا تفترق هذه عن تلك لأن القدر جرى بأن يكون بشراً رسولاً ، حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير.

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل ، ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنساناً ، فلا تكتب طاقة من طاقاته البانية ، ولا تعطل استعداداً من استعداداته النافعة ، وفى الوقت ذاته تهذبه وتربيه ، وترتفع به إلى غاية مراقيه .

وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به ، حتى استحالوا نسخاً

---

[١] راجع ذلك فى : غرائب القران : ٣١٩٩/٤ ، وفى ظلال القران : ٣٦١٥/٦ .

حية منه ، وكانت سيرة نبيهم وحياته الواقعية ، بكل ما فيها من تجارب الإنسان ، ومحاولات الإنسان ، وضعف الإنسان ، وقوة الإنسان ، مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية ، مرتقية بها خطوة خطوة ـ كما يبدو فى سيرة أهله وأقرب الناس إليه ـ كانت هى النموذج العملى للمحاولة الناجحة يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية ، التى لا تعيش فى هالات ولا فى خيالات .

وتحققت حكمة القدر فى تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر بصورتها الكاملة الشاملة المتكاملة ، وفى اختيار الرسول الذى يطيق تلقيها وترجمتها فى صورة حية ، وفى جعل حياة هذا الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كتاباً مفتوحاً يقرؤه الجميع ، وتراجعه الأجيال بعد الأجيال[1].

ومن يدقق النظر فى هذا العتاب يجد أن فيه تعظيماً كشأن النبى ـ ﷺ ـ بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ، يعد كالذنب وإن لم يكن فى نفسه كذلك ، وأن عتاب الرسول ـ ﷺ ـ ليس إلا لمزيد الاعتناء بشأنه ومكانته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

وفى ظلال ذلك الحادث الذى كان فى بيوت النبى ـ ﷺ ـ ندرك الإيحاء المقصود هنا من وراء هذه النصوص المتضمنة لأسلوب العتاب ، ويمكن أن نوضحها فيما يلى :

---

[1] فى ظلال القرآن : ٣٦١٧/٦ ، وينظر : روح المعانى : ١٤٧/٢٨ ، والتفسير الوسيط ١٤٨٢/٣ .

أولاً : أن المؤمن مكلف بهداية أهله ، وإصلاح بيته ، كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه .

ثانياً : إن الإسلام دين أسرة ، ومن ثم يقرر تبعة المؤمن فى أسرته ، وواجبه فى بيته ، والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة وهو الخلية التى يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحى وهو المجتمع الإسلامى .

ثالثاً : إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه ، العقيدة ، ولابد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة فى ذاتها كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه ، فلا يصعب على طارق ، ولا يستعصى على مهاجم .

رابعاً : أن من واجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله ، واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها ، واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيداً .

خامساً : لابد من الأم المسلمة ، فالأب المسلم وحده لا يكفى لتأمين قلعة ، لابد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات ، فعبثاً يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامى فمجموعة من الرجال ، لابد من النساء فى هذا المجتمع فهن الحارسات على النشئ ، وهو بذور المستقبل وثماره . ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال وللنساء ، وكان ينظم البيوت وتعميمها على المنهج الإسلامى ، وكان يحمل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم.

سادساً : هناك أمر ينبغى أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيداً أن أول الجهد ينبغى أن يوجه إلى البيت ، إلى الزوجة ، إلى الأم ثم إلى الأولاد ، وإلى الأهل بعامة ، ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم ، وينبغى لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولاً عن الزوجة المسلمة ، وإلا فسيتأخر طويلاً بناء الجماعة الإسلامية ، وسيظل البنيان متخاذلاً كثير الثغرات .

سابعاً : فى الجماعة الإسلامية الأولى كان الأمر أيسر مما هو فى أيامنا هذه ، كان قد أنشئ مجتمع مسلم ـ فى المدينة ـ يهيمن عليه الإسلام ، يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية ، ويهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور ، وكان المرجع فيه ، مرجع الرجال والنساء جميعاً إلى الله ورسوله وإلى حكم الله وحكم رسوله ، فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير ، وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلاً بالنسبة للمرأة لكى تصوغ نفسها كما يريد الإسلام ، وكان الأمر سهلاً بالنسبة للأزواج كى ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الإسلام .

نحن الآن فى موقف متغير ، نحن نعيش فى جاهلية ، جاهلية مجتمع ، وجاهلية تشريع ، وجاهلية أخلاق ، وجاهلية تقاليد ، وجاهلية نظم ، وجاهلية آداب ، وجاهلية ثقافة كذلك ، والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع الجاهلى ، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حيث تهم أن تلبى

الإسلام ، سواء اهتدت إليه بنفسها أو هداها إليه رجلها : زوجها أو أخوها أو أبوها .

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع كلهم يتحاكمون إلى تصور واحد ، وحكم واحد وطابع واحد ، فأما هنا فالرجل يتحاكم إلى تصور مجرد لا وجود له فى دنيا الواقع ، والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذى يعادى ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ! وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حس المرأة أضعاف ضغطه على حس الرجل ! وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن ، إن عليه أن يقى نفسه النار ، ثم عليه أن يقى أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف .

وطبيعة الإسلام تقتضى قيام الجماعة المسلمة التى يهيمن عليها الإسلام والتى يتحقق فيها وجوده الواقعى ، فهو مبنى على أساس أن تكون هناك جماعة الإسلام عقيدتها ، والإسلام نظامها ، والإسلام شريعتها ، والإسلام منهجها الكامل الذى تستقى منه كل تصوراتها ، ومن ثم يتبين أهمية الجماعة المسلمة التى تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة محتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلى حولها ، فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الإسلامى وبين تقاليد المجتمع الجاهلى الضاغط الساحق ، ويجد فيها الفتى المسلم شريكة فى العش المسلم أو فى القلعة المسلمة ، التى يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر الإسلامى .

إنها ضرورة أن تقوم جماعة مسلمة ، تتواصى بالإسلام ،

وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراته كلها ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله ـ تعالى ـ إلى أن يأذن الله ـ سبحانه ـ بهيمنة الإسلام حتى تنشأ الأجيال فى ظله[1]

والله سبحانه أعلى وأعلم.

---

[1] راجع ذلك فى ظلال القران : ٦/٣٦١٩، ٣٦٢٠ .

الموقف الخامس

عتاب الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - فى قصه زواجه من السيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها -

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى قصة زواجه من السيدة زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ

هذا موقف آخر من المواقف التى عاتب الله — سبحانه وتعالى — فيها نبيه محمداً — ﷺ — وفيه يقول المولى — عز وجل — :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا. وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (١)

نحن أمام موقف عتاب خلاصته أن الرسول — ﷺ — زوج مولاه زيد بن حارثة(٢) من ابنة عمته زينب بنت جحش(٣)، ولأمر قدره الله — تعالى — لم تكن تجربة زواجهما على ما ينبغى، وقد ألهم الله — تعالى — نبيه — صلوات الله وسلامه عليه — أو أوحى إليه أن زيداً يطلق

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان (٣٦، ٣٧).

(٢) هو زيد بن حارثة بن كعب الكلبى مولى رسول الله — ﷺ — حيث فضل البقاء مع الرسول عن الذهاب مع قومه حراً، راجع ترجمته فى الاستيعاب: ٢/٥٤٤، وطبقات ابن سعد: ٣/٤٠.

(٣) هى زينب بنت جحش بن يعمر الأسدية الشابة الحسناء الشريفة من بنى أسد وحفيدة عبد المطلب بن هاشم، أمها أميمة بنت عبد المطلب، عمة النبى — ﷺ — راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد: ٨/١٠١ وما بعدها، والسيرة الهاشمية: ٤/٣٩٨، وجمهرة الأنساب: ص ١٨٠.

زينب، وأنه عليه السلام ـ يتزوجها، وحدث أن شكا زيد زينب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأبدى رغبته في تطليقها، وبدلاً من أن يعجل الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بذلك نصحه بإمساك زوجته، ولم يصارحه بما قضى الله ـ تعالى ـ تحرجاً من الموقف، فعاتبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا العتاب.

"روى عن علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ ﷺ ـ كان قد أوحى الله ـ تعالى ـ إليه أن زيداً يطلق زينب وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكى زيد للنبي ـ ﷺ ـ خلق زينب وأنها لا تطيقه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على جهة الأدب والوصية (اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك) وهو يعلم أنه سيفارقها، ويتزوجها، وهذا الذي أخفى في نفسه، وقد خشي رسول الله ـ ﷺ ـ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله ـ تعالى ـ على هذا القدر من أن خشي الناس في شئ قد أباحه الله بأن قال: (أمسك عليك زوجك) مع علمه بأنه يطلق، وأعلمه أن الله ـ سبحانه ـ أحق بالخشية"[1].

ولقد كان زواج زينب من زيد في ظروف خاصة، فعندما بلغ زيد سن الزواج اختار له النبي ـ ﷺ ـ بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب (زينب بنت جحش)، وكرهت زينب، وكره أخوها (عبد الله بن جحش)

---

[1] راجع ذلك في: تاريخ الطبري: ٣/٤٢ ط: الحسينية ط أولى، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/١٩٠، وطبقات ابن سعد: ٨/١٠١، وحاشية الشهاب: ٧/٤٩٠، ٤٩١.

أن تزف الشريفة المضرية إلى مولى، رغم أصله العربى الصريح، أباً وأماً، حتى نزل فيهما قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (١).

وتزوجت زينب زيداً طاعة لأمر الله ورسوله، وإلزاماً بالمبدأ الإسلامى: لا يتفاضل فيه الناس إلا بالتقوى.

لكن حياة الزوجين لم تصف لهما، فما نسيت زينب قط أنها الشريفة، لم يجر عليها رق، ولا أساغت أن تكون تحت مولى دخل البيت رقيقاً، وقاسى زيد من صدعها وترفعها ما جعله يشتكى إلى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ غير مرة ما يجد من سوء معاملة زينب، فكان يوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال حتى أذن الله ـ تعالى ـ ففارقها زيد، وتزوجها ابن خالها ـ ﷺ ـ بأمر الوحى.(٢)

ذلكم هو موقف العتاب الذى عاتب الله ـ تعالى ـ فيه نبيه محمداً ـ ﷺ ـ وهذا الموقف من العتاب فى قصته من أظهر المواقف التى عاتب فيها المولى ـ عز وجل ـ حبيبه محمداً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأشدها وروداً ووقعاً فيما يتعلق بشخص سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ وقد أجمع أهل التفسير إلا القليل منهم على أن هذه الآية عتاب للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وممن ذهب إلى ذلك: الطبرى

---

(١) الآية (٣٦) من سورة الأحزاب.

(٢) ينظر : تراجم سيدات بيت النبوة (د/ عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ) ص ٣٤٥، ٣٥٦.

والزمخشري، والقرطبي، وأبو السعود، والجمل، والألوسي، والقاسمي، والشيخ الشعراوي[١].

ولم يخالف في ذلك ـ فيما قرأت ـ إلا الشيخ الطاهر بن عاشور، حيث زعم أن هذه الآية ليست عتاباً للنبي ـ ﷺ ـ فقال: "وليس في قوله (وتخشى الناس) عتاب ولا لوم ولكنه تذكير بما حصل له من توقيه قالة المنافقين ثم قال: "وحمله كثير من المفسرين على معنى العتاب وليس في سياق الكلام ما يقتضيه فأحسبهم مخطئين فيه"[٢].

والشيخ الطاهر بن عاشور قد جانب الصواب في رأيه هذا، لأنه بذلك خالف جمهور العلماء وزعم أن ليس في سياق الكلام ما يقتضيه مع أن سياق الكلام يقتضيه لأن الخطاب الذي وجه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فيه شي من الشدة والحزم، بل قد ورد ما يفيد أن هذه الآيات التي نزلت في هذا الشأن هي أشد ما نزلت على النبي ـ ﷺ ـ فيما رواه الإمام البخاري والإمام أحمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "لوكان رسول الله ـ ﷺ ـ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآيات على نفسه ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه .. ﴾

---

[١] ينظر: جامع البيان: ١٠/٢٢، والكشاف: ٢٦٣/٣، والجامع لأحكام القران: ١٩٠/١٤، وتفسير أبي السعود: ١٠٥/٧، وحاشية الجمل على الجلالين: ٤٣٨/٣، وتفسير القاسمي: ٤٨٦١/١١، وروح المعاني: ٥٤/٢١، وتفسير الشعراوي: ٢٢/

[٢] التحرير والتنوير: ٣٤/٢٢.

الآيات[١] وذلك لأن فيها عتاباً شديداً من الله ـ عز وجل ـ لنبيه ـ ﷺ ـ

هذا هو الموقف الذى عاتب فيه المولى ـ عز وجل ـ نبيه محمداً ـ ﷺ ـ فكيف جاء أسلوب العتاب فيه؟ نلمح فيه من السمات العامة التى نراها فى أكثر مواقف العتاب، كما نراها فى غيره من الأساليب القرآنية، ويمكن أن نشير إلى ذلك فى وضوح فيما يلى: قوله تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ... ﴾**

تأمل هذا الأسلوب وأحسن الإصغاء إليه، ومعناه: ما ينبغى للمؤمن والمؤمنة أن يكون لهم الاختيار فى أمر من أمورهم بعد ما يقضى فيه الله ورسوله، وهذا التركيب (ما كان) أى ما يصح وما استقام ومعناه الحظر والمنع، فيجئ الحظر لشى والحكم بأنه لا يكون، ولهذا كان تعبيراً قوياً فى أداء المعنى، لأن فيه أثرة غضب ونبرة تهديد من حيث أفاد أن الشأن فى المؤمن والمؤمنة الاستجابة والإذعان لأمر الله والتسليم بحكمه وقضائه فى كل أمر من أمور الحياة جليلها وصغيرها[٢] .

وهذه الآية عامة فى جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشى، فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأى ولا قول،

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ١٩٢/٢٨، والإمام أحمد فى مسنده: ٢٤٠/١٨، والترمذى فى كتاب التفسير: ٦٩/٩ شرح تحفة الأحوذى.

(٢) راجع ذلك فى كتاب من أسرار التعبير القرانى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب أ.د/ محمد أبو موسى ص ٢٢٣، ٢٢٤.

كما قال الله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ [١]، وفى الحديث الشريف: "والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"[٢].

والمعنى: لا يصح ولا يحل لأى مؤمن، ولا لأية مؤمنة إذا أراد الله ورسوله أمراً، أن يختاروا ما يخالف ذلك، بل يجب عليهم أن يذعنوا لأمره، وأن يجعلوا رأيهم تابعاً لرأيه فى كل شئ.

وقال سبحانه: ﴿ إذا قضى الله ورسوله أمراً ﴾ للإشعار بأن ما يفعله الرسول ـ ﷺ ـ إنما يفعله بأمر الله ـ تعالى ـ لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، وجاء الضمير فى قوله (لهم) وفى قوله (من أمرهم) بصيغة الجمع رعاية للمعنى، إذ أن لفظى (مؤمن) و(مؤمنة) وقعا فى سياق النفى، فيعمان كل مؤمن وكل مؤمنة[٣] .

والقضاء من الله أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع.

وقوله تعالى: ﴿إذا قضى الله ورسوله﴾ المراد قضى رسول الله، لأنه هو الناطق بقضاء الله وفصله، وذكر لفظ الجلالة للإشارة بأن الرسول من الله بمكان عظيم، وهذه عادة فى لغتهم يذكرون المعطوف عليه وهو

---

(١) الآية (٦٥) من سورة النساء.

(٢) أخرجه الإمام البغوى فى كتاب شرح السنة كتاب الإيمان: ٤٦٩/١ ح ١٠٤

(٣) ينظر تفسير ابن كثير: ٤١٧/٤، وتفسير أبى السعود: ١٠٤/٧، والتفسير الوسيط: ٧٠/٢٢، ٧١.

غير مراد بالحكم ليشير بذلك إلى عظيم الصلة وقوة العلاقة بين المعطوف والمعطوف عليه كما قال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله﴾ [١]، أى لا تقدموا بين يدى رسول الله، وكما قال عز من قائل: ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ [٢]، أى لا يحطمنكم جنود سليمان.

ونلاحظ أن المولى ـ عز وجل ـ قد آثر التعبير بالخيرة فى قوله ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ ولم يعبر بالاختيار أو التخيير، وذلك لأمرين:

الأول: يرجع إلى معنى الآية وخصائص تركيبها، فإن بناءها قد تداخل وصار فيه شئ من التراكب، فتقدم خبر كان وهو جار ومجرور، وأخر اسمها وهو مصدر مؤول واعترض بينهما ظرف فيه معنى الشرط وجوابه محذوف لدلالة الجملة عليه، وهذا كله جعل لكلمة الخيرة بخفتها وقصرها أنسب لهذا التركيب.

والثانى: أن الاختيار أكثر حروفاً وأوفر معنى، والخيرة أقل حروفاً، وهم يقولون أن زيادة المبنى تدل غالباً على زيادة المعنى، والآية الكريمة تنفى أقل قدر من الاختيار بعد ما يقضى الله ورسوله، فناسب ذلك أن يذكر الخيرة الذى يفيد هذا القدر القليل من الاختيار [٣].

---

[١] من الآية الأولى من سورة الحجرات.

[٢] من الآية (١٨) من سورة النمل.

[٣] راجع ذلك فى: حاشية الشهاب: ٤٨٩/٧، ٤٩٠، وروح المعانى: ٢٢/٢٢، ٢٣، ومن أسرار التعبير القرانى د/ أبو موسى ص ٢٢٤، ٢٢٥.

وقوله تعالى: ﴿إذا قضى الله ورسوله﴾ ظرف فيه معنى الشرط، وقد وقع معترضا، ثم أن لموقع الظرف هنا معترضا مغزى جليلا، لأن نفى الاختيار وسلب المؤمن هذا الحق من التدبير والحرية والقبول والرفض لا يكون فى ظرف من الظروف إلا حين يقضى الله فى الأمر أمرا، أما فيما عدا ذلك فإن الاختيار والتدبير لا حرج فيه، بل أنه واجب المؤمن ولهذا بادر بذكر هذا الظرف أو الشرط قبل ذكر الخيرة[١] .

وقوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾ تذييل تعميم للتحذير من مخالفة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سواء فيما هو فيه الخيرة أم كان عمن عمد للهوى فى المخالفة، فهو بيان لسوء عاقبة من يخالف أمر الله ورسوله، أى ومن يعص الله ورسوله فى أمر من الأمور، فقد ضل عن الحق والصواب ضلالا واضحا بينا[٢] .

وجواب الشرط هنا ماض مسبوق بقدر المقرونة بالفاء، وقد تفيد التحقيق أى: تحقيق وقوع الفعل، والماضى حين يستعمل مكان المضارع يفيد تأكيد وقوع الفعل، أى أن الفعل الذى سيقع فى المستقبل كأنه وقع الآن، وهو يخبر عنه، فقوله (فقد ضل) يشير إلى أن مخالفة قضاء الله فى أمر من الأمور التى قضى فيها سواء كان ذلك فى سلوك الفرد أو سلوك الجماعة يعقبه حتماً الضياع والضلال، ومن هنا يبدو لنا

---

[١] راجع ذلك فى: حاشية الشهاب: ٤٨٨/٧، ٤٨٩، ومن أسرار التعبير القرانى ص ٢٢٥.

[٢] راجع ذلك فى: روح المعانى: ٢٣/٢٢، والتحرير والتنوير: ٢٨/٢٢، والتفسير الوسيط: ٧١/٢٢.

أن العقوبة التى يمثلها جواب الشرط أى: عقوبة من يختار فى أمر حياته شيئا بعد ما قضى الله فيه أمره ليست إعداد عذاب أليم فحسب، وإنما هى ضلال بعيد، أى هى عقوبة أقرب إلى أن تكون دنيوية فضلا عن أنها عذاب أليم فى الآخرة.

والآية نصت هنا على الضلال البعيد، وهو متضمن للعذاب الأليم فى الآخرة، وكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينبه الأمة الإسلامية أفراداً وجماعات بأن انسلاخكم عن أمر الله وقضائه وجد كم فى البحث عن أصول للسلوك والسياسة والتعامل والحياة فيما قضى فيه القرآن والحديث، يعقبه ضلالكم وضياعكم فى هذه الحياة الزاخرة، وذهاب شملكم وقوتكم وتخلفكم عن أداء دوركم فى حركة الوجود، وعلى الجماعة المؤمنة أن تذهب إلى القرآن الذى يتضمن أمر الله، والحديث الصحيح الذى يتضمن أمر رسول الله ـ ﷺ ـ وتبحث وتفتش وتجتهد فى الفهم، وأن تأخذ منهما وهى تعتقد أنه ليس لها الخيرة فى أمرها ما دام قد وقع القضاء فيه من جهة السماء[1].

ومن مظاهر الإعجاز فى هذه الآية ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ... ﴾ أن تكون مرتبطة بحادثة، ثم تنزل منزلتها من السورة فتقع من الآيات السابقة واللاحقة موقعاً متلائماً، فهى بالنسبة للآية السابقة : ﴿إن المسلمين

---

[1] راجع ذلك فى: ظلال القران: ٢٨٦٦/٥، ٢٨٦٧، ومن أسرار التعبير القرانى ص ٢٢٦.

والمسلمات ... إلخ الآية [١]﴾ امتداد لها، حيث أنها وقعت بعد ذكر الموصوفين بهذه الصفات، والذين هم صفوة المجتمع المسلم، وبعدما استشرفت القلوب إلى أن تكون فى صحبة هذه الصفوة وكأنها كانت إشارة حاسمة لمن أراد أن يكون منهم، أى كأنها تقول للنفس المستشرفة لهذه الكوكبة إنه لن يتحقق أصل الإيمان الذى يمكن به أن يؤذن بشرف الصحبة إلا بإلقاء المقادة فى طواعية لله ـ سبحانه ـ وألا يكون هناك خيرة بعدما يقضى الله أمراً.

ثم هى من وجه تمهد لهذا الأمر الحاسم، أى: زواج النبى ـ ﷺ ـ من مطلقة متبناه زيد بن حارثة، لأن الأمر فى هذا الزواج كان قضاء من الله وكان تشريعاً يستأصل ما تقرر فى النفوس من تحريم زواج مطلقة المتبنى، وما كان للرسول أن يكون له خيار فى هذا الزواج بعدما قضى الله فيه أمراً[٢] .

وأظن أن اللحمة التى تصل الآيات بما بعدها وما قبلها قد اتضحت فى غير تكلف والآن نبدأ الحديث فى آية زواج النبى ـ ﷺ ـ من زينب ـ رضى الله عنها ـ فقد ذكر المولى ـ عز وجل ـ قصة زواج النبى ـ ﷺ ـ من السيدة زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ وما ترتب على هذا الزواج من هدم لعادات كانت متأصلة فى الجاهلية

---

[١] الآية رقم (٣٥) من سورة الأحزاب، وهى الآية السابقة لهذه الآية التى نحن بصددها مباشرة.

[٢] من أسرار التعبير القرانى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب د/ محمد أبو موسى ص ٢٢٨.

لبقايا آثار التبنى الذى أبطله قوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ [١]، وقوله جل وعلا: ﴿ادعوهم لآبائهم ...﴾[٢].

وكان زيد بن حارثة يدعى زيد بن محمد، فلما نزلت الآيات المبطلة للتبنى صار زيد يدعى زيد بن حارثة، ولكنهم ظلوا يحرمون مطلقة المتبنى بعد إبطال التبنى، فكان لابد من تشريع عملى ليواجه هذه العادة المتأصلة ــ أعنى تحريم زوجة المتبنى، ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك ــ فيما يحمل من أعباء الرسالة ــ مؤنة إزالة آثار نظام التبنى، فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة، ويواجه المجتمع بهذا العمل، الذى لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به، على الرغم من إبطال عادة التبنى فى ذاتها! فانتدب لذلك الأمر الصعب سيدنا رسول الله ــ ﷺ ــ فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [٣]. هذا ولقد كثر الكلام وكثرت الروايات حول مضمون هذه الآية وهذه القصة، وفى تأويل قوله تعالى: ﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾، وهذه الروايات منها ما هو مقبول يليق بحضرة النبى ــ ﷺ ــ وأخلاقه

---

[١] من الآية (٤) من سورة الأحزاب.

[٢] من الآية (٥) من سورة الأحزاب.

[٣] الآية رقم (٣٧) من سورة ا لأحزاب.

الربانية النبوية، ومنها ما هو مردود ومرفوض، لأنه يتعارض مع أخلاق النبى — صلوات الله وسلامه عليه — الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه، ووصف خلقه بقوله — جل وعلا — ﴿وإنك لعل خلق عظيم﴾ [١].

فقد روى عن على بن الحسين أن النبى — ﷺ — قد أوحى الله إليه أن زيداً يطلق زينب وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما شكا زيد للنبى — ﷺ — خلق زينب وأنها لا تطيعه وأعلمه بأنه يريد طلاقها قال له رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — على جهة الأدب والوصية : (اتق الله فى قولك وأمسك عليك زوجك) وهذا هو الذى أخفى فى نفسه وخشى رسول الله — ﷺ — أن يلحقه قول من الناس فى أن تزوج زينب بعد زيد وهو مولاه لو أمره بطلاقها ، فعاتبه الله على هذا القدر من أن خش الناس فى شئ قد أباحه الله تعالى بأن قال أمسك عليك زوجك مع علمه بأنه يطلقها وأعلمه الله أنه أحق بخشيته أى فى كل حال[٢].

وقال ابن كثير وتبعه الجمل : وهذا القول أحسن ما قيل فى هذه الآية ، وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين كالزهرى والقاضى أبى بكر بن العلاء والقشيرى والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم ، والمراد بقوله — تعالى — (وتخش الناس) إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نهى عن التزوج بنساء الأبناء ، وتزوج هو

---

[١] الآية رقم (٤) من سورة القلم.

[٢] ينظر : تاريخ الطبرى " ٤٢/٣ ، والجامع لأحكام القران : ١٩٠/١٤ وطبقات ابن سعد ١٠١/٨ وحاشية الشهاب : ٤٩٠/٧ ، ٤٩١ .

زوجه ابنه[١].

وقال الألوسى : " والظاهر أن الله لما أراد نسخ تحريم زوجه المتبنى أوحى إليه عليه الصلاة والسلام أنه يتزوج زينب إذ طلقها زيد فلم يبادر ـ ﷺ ـ مخافة طعن الأعداء فعوتب عليه قال : وهو توجيه وجيه قال الخفاجى عليه الرحمة[٢].

يقول أستاذنا الدكتور / أبو موسى : وكان بينى وبين الاطمئنان الكامل إلى قبول هذا الرأى خاطر يمضى فى القلب يهمس ويقول إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مأمور من الله أمراً حاسماً بتبليغ ما يوحى إليه ، فلو كان المولى قد أعلمه أو أوحى إليه أن زيداً سيطلقها وأنه عليه الصلاة والسلام ـ سيتزوجها لصدع بهذا البلاغ صدعاً بيناً مكشوفاً لا خشية فيه ولا مواربة ، والتبليغ من أخص أوصاف الرسل وأهمها لأن الرسالة بلاغ[٣].

وأما ما قيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** ﴾ اى تخفى نفسك حب زينب ورغبتك فى الزواج منها لما أعجبك حسنها ، فهذا خطأ كبير ذكره بعض المفسرين[٤] وهذا الكلام لا يليق بصاحب العصمة ـ ﷺ ـ لأن الذى أخفاه النبى ـ ﷺ ـ هو ما الله مبديه ،والذى

---

(١) راجع ذلك فى : تفسير القران العظيم : ٤٩١/٣ ، والفتوحات الإلهية: ٤٣٨/٣ .

(٢) راجع ذلك فى حاشية الشهاب : ٤٩١/٧ ، وروح المعانى : ٢٤/٢٢ .

(٣) من أسرار التعبير القرانى د.أبو موسى ص ٢٣٠، ٢٣١ .

(٤) راجع ذلك فى : جامع البيان : ١١،١٠/٢٢ ، والكشاف : ٢٦٢/٣ ، وغرائب القوان ٢٧٣٤/٤ ، وتفسير أبى السعود : ١٠٥/٧ .

أبداه الله هو : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ ، أى : طلاق زيد زينب وزواج النبى منها لاستئصال آثار التبنى ، ولو كان الذى أخفاه هو رغبته فى الزواج من زينب لكان الذى أبداه الله هو ذلك الهوى والحب ، أى :لأظهر الله هذا الذى خطر فى قلبه وهو إعجابه بزينب ووقعها فى نفسه .. هذا ما يدل عليه النص .

ثم إننا نرفض أن يكون محمد الذى أدبه ربه أحسن تأديبه والذى ذكر الحق ــ جل جلاله ــ أنه على خلق عظيم .. أن يكون على هذا المستوى الأخلاقى الهابط مهما قيل فى تسويفه ، وماذا نقول فى رجل يحب رجلاً كل الحب وينعم عليه نعمة يتذكرها الناس ثم هو يحب أمرأته ويشتاقها ويتمناها لنفسه ، وهو يعانى هذا الحب ولا يفصح عنه فى تصرف ولا سلوك لأن له إمامة فى قومه:ماذا نقول فى هذا ؟

اعتقد أنه ليس موقف إنسان نبيل فضلاً عن أن يكون موقف نبى هو خاتم وحى السماء إلى الأرض أى الذى تلقى أخر كلمة بقيت تنغم أنغام الحق فى ضمير الوجود ، ثم إن هذه الروايات التى روت هذه الضلالة كلها ساقطة من ناحية السند كما قال العلامة ابن كثير وهو من أهل التحقيق فى الروايات والأسانيد ، قال رحمه الله : " وهنا فى آثار عن بعض السلف ــ رضى الله عنهم ــ أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها[١] .

---

[١] ينظر : تفسير القران العظيم لابن كثير : ٤٩١/٣ ، ومن أسرار التعبير القرانى ص ٢٣٢ .

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل عن هذه الشبه التي آثارها أعداء الإسلام : " ومما يدعو إلى أشد الأسف أن هؤلاء جميعاً اعتمدوا في روايتهم على ما ورد في بعض كتب السيرة والكثير من الحديث ثم أقاموا على ما صوروا تصوراً من الخيال في شأن محمد وصلته بالمرأة "[١].

ويقول الدكتور أبو موسى : " قلت إن الوجه الأول الذي ذكره المحققون من المفسرين والعلماء الراسخين كان أدخل في القلب وأقرب إلى اليقين لولا خاطر يهمس بما ذكرناه هناك[٢] وظلت النفس تستشرف إلى ما تطمئن إليه اطمئنان اليقين حتى رأينا ما يحرر هذا الوجه وينفي عنه هذا الخاطر فيما ذكره المرحوم الشيخ سيد قطب ، فقد ذكر أن الذي أخفاه النبي — ﷺ — لم يكن وحياً ولا علماً وإنما كان إلهاماً وقع في نفسه وهو أن زيداً سيطلق زينب وأنه عليه السلام سيتزوجها ليقضي بذلك على آثار التبني في بيئة المسلمين قضاء حاسماً[٣].

يقول الشيخ قطب : " ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك — فيما يحمل من أعباء الرسالة مؤنة إزالة آثار نظام التبني ، فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة ، ويواجه المجتمع بهذا العمل ، الذي لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التبني في ذاتها .

---

(١) كتاب حياة محمد — ﷺ — د. محمد حسين هيكل ص ٣١٦ .

(٢) ينظر : ص ٣٩ وهي الصفحة السابقة حيث ذكر فيها هذا الخاطر .

(٣) راجع ذلك في : ظلال القرآن ٢٨٦٨/٥ ، ومن أسرار التعبير القرآني ص ٢٣٢

وألهم الله نبيه — ﷺ — أن زيداً سيطلق زينب وأنه هو سيتزوجها للحكمة التى قضى الله بها ، كانت العلاقة بين زيد وزينب قد اضطربت ، وعادت توحى بأن حياتهما لن تستقيم طويلاً ، وجاء زيد مرة يشكو إلى رسول الله — ﷺ — اضطراب حياته مع زينب ، وعدم استطاعته المضى معها ، والرسول — صلوات الله وسلامه عليه — على شجاعته فى مواجهة قومه فى أمر العقيدة دون لجلجة ولا خشية يحس ثقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب ، ويتردد فى مواجهة القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق ، فيقول لزيد (الذى أنعم الله عليه بالإسلام وبالقرب من رسوله وبحب الرسول له ، ذلك الحب الذى يتقدم به فى قلبه على كل أحد بلا استثناء ، والذى أنعم عليه الرسول بالعتق والتربية والحب) يقول له (أمسك عليك زوجك واتق الله) ، ويؤخر بهذا مواجه الأمر العظيم الذى يتردد فى الخروج به على الناس كما قال تعالى : ﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ ..

وهذا الذى أخفاه النبى — ﷺ — فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله ، ولم يكن أمراً صريحاً من الله ، وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله ، ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه ولكنه — ﷺ — كان أمام الهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته ، ومواجه الناس به ، حتى أذن الله بكونه فطلق زيد زوجه فى النهاية وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد ، لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمد لا تحل له ، حتى بعد إبطال عادة التبنى فى ذاتها ، ولم يكن قد

نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء ، إنما كان حادث زواج النبى بها فيما بعد هو الذى قرر هذه القاعدة ، بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار وفى هذا ما يهدم كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبث بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات ! إنما كان الأمر كما قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ ، وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها رسول الله ـ ﷺ ـ فيما حمل ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية ، حتى ليتردد فى مواجهته بها وهو الذى لم يتردد فى مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء ، وتخطئة الآباء والأجداد"[١].

ويعلق أستاذنا الدكتور أبو موسى على كلام الشيخ سيد قطب السابق فيقول : " وهذا فى تقديرنا أعدل ما يقال فى هذه الآية وهو ليس بعيداً عن رأى المحققين وإن كان فيه ما يحرره ويزيل شبهة سكوت النبى ـ ﷺ ـ عن شئ أوحاه الله إليه ، لأنه قد حدد ما وقع فى نفس النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأنه الهام ولم يكن أمراً صريحاً من الله وهذا احتراس حسن وفهم بصير بأهمية البلاغ وخطر الكتمان فى رسالة السماء[٢].

---

[١] فى ظلال القرآن : ٥/٢٨٦٨ ، ٢٨٦٩ .

[٢] من أسرار التعبير القرآنى ص ٢٣٣ .

من الخصائص التعبيرية العامة فى الموقف العتابى :

نلمح من السمات العامة التى نراها فى موقف العتاب ـ كما نراها فى غيره من الأساليب القرآنية ـ ظاهرة فى موسيقا التعبير القرآنى ، وهى أنها لا تستمد رنينها من انتظام الفواصل فحسب ، بل أن لها مصادر أخرى ، ونحن قد رأينا فى سورة " عبس " كيف أن توقيع الفاصلة يطرد ، أما هنا فالعتاب يجرى فى آية واحدة إذا قيست بالمقاطع السريعة فى عتاب سورة "عبس" ، وإذا كان التعبير هنا يأتى ويجرى فى آية واحدة فما مصادر موسيقاها ، ولم نراها ذات مذاق آخر رائع ومعجب ؟ إن ذلك يرجع إلى مصادر منها :

أولاً : مجئ التعبير فى ثوب الحكاية وما تجرى عليه من سرد فيه تشويق يدعو إلى المتابعة والاهتمام .

ثانياً : تلاحم النظم ،وتآلف الصياغة على نحو يبدو فيه الترابط الواضح والبناء المتماسك فى التعبير ، وذلك أدعى لانتظام المتابعة وارتياح المتلقى .

ثالثاً : الطاقة التصويرية التى يحفل بها التعبير ، حقاً أننا لا نرى هنا من الصور التقليدية غير تلك الكناية اللطيفة التى يطالعنا به قوله ـ تعالى ـ ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ ففيه كناية عما يكون للرجل عند زوجه مما تشتهى نفسه، وما ألطف كنايات القرآن فى هذا الموقف، إنها تؤدى هدفها فى رقى يلائم جلال التعبير القرآنى وجماله، نقرأ منها قوله ـ تعالى ـ :﴿ نساؤكم حرث

لكم ﴾[١]، وقوله ـ جل وعلا ـ : ﴿ فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به ﴾ [٢]، وقد رآها بعض العلماء كناية عن الطلاق، وهذا ما ذهب إليه الفخر الرازى[٣].

يقول الآلوسى: "فلما قضى زيد منها وطراً" أى: طلقها، وهو كناية عن ذلك مثل لا حاجة لى فيك، ولكن القول الأول أرجح، قال المبرد: الوطر: هو الشهوة والمحبة، يقال: ما قضيت من لقائك وطراً، أى: ما استمتعت منك، وأنشد:

وكيف ثوائى بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمو[٤]

وهذا ما رجحه كثير من المفسرين[٥].

حقاً إننا لا نجد غير هذه الصورة البيانية، ولكن هناك مشهداً كاملاً يجرى أمامنا فنتابعه، وهو مشهد زيد ـ رضى الله عنه ـ يشكو زينب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ والرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

---

(١) من الآية (٢٢٣) من سورة البقرة.

(٢) من الآية (١٨٩) من سورة الأعراف.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٥٩٧/٢٤، وحاشية الشهاب: ٤٩١/٧، والكناية: لفظ يطلق ويراد به لازم معناه الحقيقى، مع قرينة غير مانعة من إرادة المعنى الحقيقى، ينظر: الإيضاح: ٤٥٦/٢، ومجموعة شروح التلخيص: ٢٣٧/٤، وشرح المرشدى لعقود الجمان للسيوطى: ٦٨/٢.

(٤) روح المعانى: ٢٥/٢٢.

(٥) ينظر: الكشاف: ٢٦٣/٣، وغرائب القران: ٢٧٣٥/٤، وتفسير أبى السعود: ١٠٥/٧، والتفسير الوسيط: ٧٥/٢٢.

ينصحه بالإمساك والتقوى، ولكأنا نحس بتحرج الرسول ـ ﷺ ـ وهو يقول هذه الكلمات، ونحس بالتصور لما يجرى به من صراع بين سرعة التحرك لما قضى الله ـ تعالى ـ وما يجره ذلك عليه من حرج، أو ليس الأمر متعلقاً بحب رسول الله ـ ﷺ ـ زيد؟ أو ليس متعلقاً كذلك بصدام مع التقليد الاجتماعى الراسخ؟

ثم نحن نصغى لنغمة العتاب ونحس شدة وقعه على النبى ـ ﷺ ـ ونتابع التزويج العلوى فى جلاله تحمله كلمة واحدة (زوجناكها) وما تبع ذلك من وقع فى المجتمع حيث كانت همسات المنافقين التى تجسمت فيما بعد لتصاغ أسطورة يروج لها أعداء الإسلام[1]، كل هذا تحمله الآية وهى لا تتجاوز خمس جمل من التى تسمى كبرى بمقياس النحاة.

من السمات الخاصة بأسلوب العتاب فى الآية:

كل ما سبق يعتبر من السمات العامة، ولكن من يدقق النظر يلمح فى الآية سمات تغلب على أسلوب العتاب، ويمكن أن نجليها فيما يلى:

أولاً: من هذه السمات أن أسلوب العتاب يرتبط بموقف لم يجر على النحو الأمثل الذى يحب الله أن يسود مهما تكن التبعات النفسية التى يلاقيها الرسول ـ ﷺ ـ فمن غيره يمكن أن يتصدى لتحطيم التقاليد الموروثة فى مجتمع يقدس هذه التقاليد، ويرى فى تجاوزها خروجاً على المجتمع.

ثانياً: من هذه السمات ـ أيضاً ـ أن موقف العتاب يستهدف إعلاء

---

[1] راجع ذلك فى: قطوف من أسلوب العتاب فى القرآن الكريم ص ٤٧، ٤٨.

مثالية من المثاليات التى ينبغى أن يتحلى بها الرسول — ﷺ — مهما يكن من مشقة نفسية، أو يستهدف تقرير قيمة من قيم هذا الدين يحرص الله على أن تسود، أو يستهدف إحداث تغيير فى المجتمع بما يشرعه الله من تشريع لم يكن قائماً فيما قبلهم من جاهلية، وذلك كله نراه واضحاً، فالعتاب للنبى — ﷺ — استهدف أن يكون النبى — صلوات الله وسلامه عليه — على الوجه الأمثل "فكأن الذى أراد منه — عز وجل — حين تشكى زيد — أن يصمت عند ذلك أو يقول له أنت أعلم بشأنك حتى لا يخالف سره علانيته، لأن الله يريد من الأنبياء تساوى الظاهر والباطن أو التصلب فى الأمور، والتجاوب فى الأحوال والاستمرار على طريقة مستتبة"[١].

ثالثاً: الذى يقف عند قوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ يجده مشعراً بأن الحكاية كلها بفصولها قد كانت لتقرير قيمة مهمة، فما زوج الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — مولاه زيداً من زينب أولاً إلا ليحطم الحواجز المصطنعة التى خلقها الناس، فالإسلام لا يفاضل بين المسلمين بالأحساب والأنساب، وإنما بمقياس التقوى: ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ [٢]، وهى القيمة نفسها التى قررها ورسخها موقف العتاب فى سورة "عبس".

والذى ينظر فى التعليل لهذا الزواج بقوله ﴿لكى لا يكون على المؤمنين

---

(١) الكشاف: ٢٦٢/٣، وينظر: فى ظلال القرآن: ٢٨٦٨/٥.

(٢) من الآية (١٣) من سورة الحجرات.

حرج ..﴾ يستشعر أن الهدف كذلك أن يتصدى الرسول — ﷺ — لإبطال عادة اعتادوها بتحريم امرأة الأبن بالتبنى، ففى الإسلام لا تبنى، ولا أساس لما يترتب عليه من تحريم الزواج بامرأة من قالوا بتبنيه، وهكذا يجئ العتاب فى معرض تقرير القيم، وفى معرض التشريع[١] .

رابعاً: من تلك السمات ما يلمحه من يصغى إلى نبرة العتاب، ذلك أننا نراها ترتفع تبعاً لباعث العتاب، ونحن حين نرهف سمعنا إلى وقع الكلمات التى جاءت فى معرض العتاب وهى قوله ، تعالى — **﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾** ندرك فيها شدة، ولقد أحس بشدة وقعها جمع ممن يدركون أسرار التعبير القرآنى، فقد روى عن عائشة — رضى الله عنها — قالت: "ما أنزل الله على رسوله آية أشد عليه من هذه الآية" وقال الحسن وعائشة — رضى الله عنهما —: "لو كان رسول الله — ﷺ — كاتماً شيئاً من الوحى لكتم هذه الآية لشدتها عليه"[٢].

خامساً: سبقت الإشارة فى مواقف العتاب السابقة إلى أن أسلوب الاستفهام يلائم مواقف العتاب، ولعلنا نجد فى دراسة مواقف أخرى ما يدعم هذا التصور، ولكننا نرى هذه الآية قد جرت على

---

[١] راجع ذلك فى ظلال القرآن: ٢٨٦٩/٥، وقطوف من أسلوب العتاب فى القرآن الكريم ص ٤٩.

[٢] الجامع لأحكام القرآن: ١٨٩/١٤، والحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده: ٢٤٠/١٨، والإمام الترمذى فى كتاب التفسير ينظر: تحفة الأحوذى شرح الجامع الصحيح للترمذى: ٦٩/٩.

أسلوب الخبر، وأحسب أن ذلك راجع إلى أن الآية اتخذت أسلوب السرد على المخاطب تذكيراً بالحدث على نحو ما يجـــرى فـــى الحكاية، وهذا يلائمه الإخبار.

وللقرآن الكريم قدرة خاصة على إكساب الأسلوب تأثيره البـــالغ مهما يكن نوعه، ومما يوضح أن الآية قد جرت على أسلوب الحكايـــة أنها بدأت بـــ (إذ)، ويجعل المفسرون (إذ) متعلقة بفعل محذوف تقديـره (اذكر) ونراها بكثير استخدامها فى العرض القصصى على نحو قولـــه تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ [١]، وأحســـب أن استخدامها هنا لما فى عرض الآية من شبه بالعرض القصصى وإن لـــم يكن قصة بمفهومها المعروف[٢] .

سادساً: من هذه السمات ـــ أيضاً ـــ سمة تبدو وكأنها فى أسلوب العتاب، وهى الإيجاز وتكثيف المعانى مع ما يحفل به التعبـــير ـــ علـــى إيجازه ـــ من مؤثرات، فنحن أمام آية واحدة لا تتجاوز ـــ كمـــا أشرت ـــ خمس جمل نحوية ـــ ومع ذلك نراها تحكى موقفاً يبعث على العتاب، وتتضمن عتاباً ذا وقـــع شـــديد علـــى الرســـول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ وتحمل فى طياتها توجيهاً نحو قيمـــة مثالية، وتعلن عقداً سماوياً علوياً بالزواج، وتصدر تفسيراً لـــــهذا الزواج الذى يحمل فى جملته حكماً تشريعياً جديداً يغير وضعـــاً

---

[١] من الآية (٣٠) من سورة البقرة.

[٢] ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/٢٢، وقطوف من أسلوب العتاب فى القران الكريم ص ٥٠.

سائداً فى المجتمع الجاهلى.

ولو أردنا شاهداً أسلوبياً على الإيجاز، لوقفنا أمام قوله تعالى: ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ فأسلوب الشرط بـ (لما) الحينية ـ على وجازته ـ يتضمن هذه المعانى "فلما لم تبق لزيد فيها حاجة، وتقاصرت عنها همته، وطابت عنها نفسه، وانقضت عدتها زوجناكها"، وقد أشعر التعبير بانقضاء العدة، يقول المفسرون: "إن انقضاء الوطر يشعر بانقضاء العدة، لأن القضاء هو الفراغ من الشى على التمام"[١].

من خصائص التعبير الجزئى فى هذه الآية:

وعندما ندقق النظر فى خصائص التعبير الجزئى وما لمفرداتها من إيحاء ودلالة خاصة يمكن أن نلتمس منها ما يلى:

فى قوله تعالى: ﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه﴾ نلاحظ الإتيان بفعل القول بصيغة المضارع، والغرض من استعمال صيغة المضارعة استحضار صورة القول وتكريره، مثل قوله ـ جل وعلا ـ ﴿يجادلنا فى قوم لوط﴾، وقوله ـ عز وجل ـ ﴿ويصنع الفلك﴾، وفى ذلك تصوير لحث النبى ـ ﷺ ـ زيداً على إمساك زوجه وأن لا يطلقها، ومعاودته عليه[٢] ، ولذلك مدخله فى تقوية نبرة العتاب فى الآية.

كذلك نلاحظ القيمة البلاغية للتعبير باسم الموصول فى الآية فقال: ﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه﴾ وأراد زيداً، ولكنه ذكر باسم

---

[١] راجع ذلك فى: غرائب القران: ٢٧٣٥/٤، وتفسير أبى السعود: ١٠٥/٧، وحاشية الشهاب: ٤٩١/٧، وروح المعانى: ٢٦/٢٢.

[٢] ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٢٢، ٣١.

الموصول. ولم يقل: زيد، كما قال بعد ذلك ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾ للثناء البالغ على زيد والتنويه بقربه من الله ورسوله، فهو ممن أنعم الله عليهم، وهذه ليست منزلة قريبة، لأن زيداً بها صار من أصحاب الصراط المستقيم، وهذا رجاء كل مسلم يضرع إلى الله فى صلاته أن يهديه صراط الذين أنعم الله عليهم.

وقد أنعم الله على زيد حين هداه لما هداه إليه من أعمال البر التى صار بها صاحب منزلة عالية يذكره لسان الحق فى كتابه المبين، وقوله (أنعمت عليه) اعتداد بنعمة النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على زيد من حيث ذكرت مع نعمة الله عليه، وكان ـ ﷺ ـ يقربه ويحبه فكان يقال لزيد الحب، ويقال لابنه أسامة الحب ابن الحب، قالوا: قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ ما بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ فى سرية إلا أمره عليها، ـ ولو عاش بعده لاستخلفه، وقد روى أن العباس وعلى بن أبى طالب سألا رسول الله ـ ﷺ ـ أى أهلك أحب إليك؟ فقال ﷺ: أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد، قالا يا رسول الله: ما نسألك عن فاطمة، قال ﷺ: فأسامة بن زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه[1] .

وقوله ـ جل وعلا ـ ﴿أمسك عليك زوجك﴾ يؤذن بأنه جواب عن كلام صدر من زيد بأن جاء زيد مستشيراً فى فراق زوجه، أو معلماً بعزمه على فراقها.

---

[1] راجع ذلك فى: تفسير أبى السعود: ١٠٥/٧، وحاشية الشهاب: ٤٩٠/٥، وروح المعانى: ٢٣/٢٢، ٢٤، وتفسير الشيخ المراغى: ١٤/٨، والتحرير والتنوير: ٢٩/٢٢ - ٣١، ومن أسرار التعبير القرانى ص ١٣٥، ١٣٦.

وأمسك عليك معناه: لازم عشرتها، فإمساك مستعار لبقاء الصحبة تشبيهاً للصاحب بالشى الممسك باليد[١] ، وعلى ذلك فالاستعارة هنا تصريحية تبعية فى الفعل.

وزيادة (عليك) لدلالة (على) على الملازمة والتمكن مثل قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾[٢]، أو لتضمن (أمسك) معنى (أحبس) أى: ابق فى بيت زوجك والمراد: استمسك بها واحفظها، وإمساك الشئ التعلق له وحفظه، وأمسك الشئ حبسه، وقد جاء فى الآية الكريمة معدى بحرف الجر، وهو مما يتعدى بنفسه، قال تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ [٣]، وهم يقولون أمسك الحبل وأمسك الشئ، فإذا أرادوا منه معنى الكف قالوا: أمسك عن الأمر أى: كف عنه، وإذا أرادوا به معنى الحبس قالوا: أمسك عليه ماله: حبسه، وقد جاء فى الآية معدى بعلى لأن فيه معنى الحبس.

ووراء هذا التعبير ﴿أمسك عليك زوجك﴾ ما يشير إلى أن زيداً ـ رضى الله عنه ـ كان يشكو لرسول الله وهو ضائق وكان يبدى الرغبة فى إرسال زوجته، وكانت زينب تعيش فى بيته عيشة تبرم وضجر وضيق، وكانت كأنها حبيسة نافرة لا تطيق أن تعيش مع زيد، ولم يكن صلاحه وقربه من رسول الله وإمارته على السرايا لم يكن ذلك بقادر على أن يؤنس به قلب زينب، بل كانت برمة وضائقة وضجرة، ولعل

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٢٢، ٣١.

[٢] من الآية رقم (٥) من سورة البقرة.

[٣] من الآية رقم (٦٥) من سورة الحج.

ذلك لما منى به ـ رضى الله عنه ـ من الرق، وكانت النفوس لا تزال بها علقة من جاهلية ولا تفتؤ تلتفت إلى مثل هذا، فزيد مولى وليس من سراة القوم، وهو أيضاً قصيرأسود اللون، وكانت زينب فتاة طامحة إلى ما يعرج إلى حسبها وشبابها وجمالها، وكانت تذكر أهلها الذين هم فى القمة من قومها فيزداد ضيقها وبرمها بزيد، وقد أحست ـ رضى الله عنها ـ بقسوتها على زيد، فكانت فى بيت محمد بعد ذلك من أكثر أمهات المؤمنين خشية وأطولهن يداً أى أكثرهن براً بالضعفاء، ويمكن أن يقال إنها فى حياتها مع زيد كانت مدفوعة بقدر خفى، لأن الله اختارها لتقيم أصلين مهمين فى أصول العقيدة: الأول: تحقيق معنى المساواة فى الإسلام وتدمير تلك الفوارق الطبقية الطاغية فى هذا المجتمع، والثانى: تشريع حل مطلقة المتبنى[١] .

وقوله تعالى: (اتق الله) قيل معناه اتق الله فى الطلاق، أى:أخشه فى أمرها، فإن الطلاق يشينها، وقد يؤذى قلبها، وعلى ذلك يكون المعنى: لا تطلقها، وأراد نهى تنزيه لا نهى تحريم، لأن الأولى ألا يطلق[٢] .

وقوله (واتق الله) نلمح فيه معنى أن المرأة مهما كانت متعالية ومعتزة هى فى حاجة إلى رفق الزوج وإن كان فى تقديرها ممن لا

---

(١) ينظر: حاشية الشهاب: ٤٩٠/٧، ٤٩١، وروح المعانى: ٢٤/٢٢، ٢٥، والعتاب فى القران الكريم أساليبه ومقاصده "رسالة دكتوراة" للباحث أمير محمد أحمد حامد ص ٣٩٦ بكلية أصول الدين بأسيوط.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القران: ١٩١/١٤، وتفسير القاسمى: ٤٨٦٥/١١.

يعرجون إلى رفيع مكانتها، وفيه أن تقوى الله ومراقبته فى أمر النساء وسياسة المرأة مما يعين على إصلاح ذات البين فى بيوت المسلمين، ولولا أن طلاق زيد لزينب شئ قدره الحق ليبنى عليه أصلاً فى أصول التشريع لكان زيد بتقواه وسماعه وصية رسول الله جديراً بأن يصلح ذات بينه.

وقوله تعالى : ﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه﴾ الإتيان بالفعل المضارع فى (تخفى) للدلالة على تكرار إخفاء ذلك وعدم ذكره، ولقد اتفق أكثر العلماء على أن الذى أخفاه النبى ـ ﷺ ـ هو إخبار الله أو إلهام الله إياه أن زينب ستصير زوجاً له، وهذا ما عوتب عليه ـ ﷺ ـ وإلى هذا ذهب الخطيب الشربينى والزمخشرى والحافظ ابن حجر، والقاسمى، والقرطبى والألوسى[1] .

وقوله تعالى : ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ كلام سيق على طريقة الإثارة والإلهاب والتهييج، وفى الحق الثابت أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان أشد أهل الخشية خشية من الله، وإنما أوثر تعدية فعل الخشية إلى مفعوله بنفسه على هذا الوجه، دون تعديته بلفظ (على) المناسب للظاهر من الكلام تضميناً للفظ الخشية معنى الحذر، بمعنى تحذر فتنة الناس، أى المؤمنين فترحمهم أن يقعوا فى الفتنة، ولعل هذا الوجه من أفضل ما تحمل عليه الآية الكريمة لأن

---

[1] ينظر ١: تفسير السراج المنير : ٣/٢٥٠، والكشاف: ٣/٢٦٣، وفتح البارى: ١٨/١٤٠، وتفسير القاسمى: ١١/٤٨٧٥، والجامع لأحكام القران: ١٤/١٩٠، وروح المعانى: ٢١/٢٤.

اللائق بما جبل عليه رسول الله ـ ﷺ ـ من الرأفة والرحمة وبما كان فى المسلمين من حدثاء الإسلام الذين لم تتعمق جذور الإيمان فى قلوبهم بعد فخشى رسول الله ـ ﷺ ـ عليهم ذلك[١] .

و(أحق) اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، فهو بمعنى حقيق، إذ ليس فى الكلام السابق ما يفيد وقوع إيثار خشية الناس على خشية الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا ما يفيد تعارضاً بين الخشيتين حتى يحتاج إلى ترجيح خشية الله على خشية الناس، والمعنى: والله حقيق بأن تخشاه .

وليس فى هذا التركيب ما يفيد أنه قدم خشية الناس على خشية الله، لأن الله لم يكلفه شيئاً فعمل بخلافه، وبهذا تعلم أن النبى ـ ﷺ ـ ما فعل إلا ما يرضى الله، وقد قام بعمل الصاحب الناصح حين أمر زيداً بإمساك زوجه وانطوى على علم صالح حين خشى ما سيفترضه المنافقون من القالة إذا تزوج زينب خفية أن يكون قولهم فتنة لضعفاء الإيمان[٢] .

والتعبير على ما وضح فيه من إيجاز، قد عكس عرضاً تصويرياً يبدو مطولاً، ونلمح فيه قيماً تعبيرية، وعلى سبيل المثال نسوق هذه المطابقة والمقابلة بين الإخفاء والإبداء فى قوله تعالى: ﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه﴾، وتلك المفارقة فى قوله ـ تعالى ـ ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ وفى ذلك إثارة وتجسيم للموقف يلائم شدة العتاب، هذا

---

[١] راجع ذلك فى: ايات عتاب النبى ـ ﷺ ـ فى ضوء العصمة والاجتهاد د/ عويد بن عايد بن عياد المطرفى ص ٢٤٦، ط : دار الفكر العربى.

[٢] ينظر: التحرير والتنوير : ٣٤/٢٢.

والطباق أو المقابلة من المحسنات البديعية المعنوية التى تكسب المعنى جمالاً وروعة وتضفى على الكلام حسناً ورونقاً[١] .

ويمكن أن نعتبر فى قوله تعالى: ﴿**وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾ لوناً بديعياً آخر، وهو رد العجز على الصدر، وهو من المحسنات البديعية اللفظية التى تزيد التعبير حسناً وبلاغة يأخذ جماله اللفظى بمجامع القلوب، ويستثير ـ بعجيب لفظه ـ الحس البلاغى المرهف، كما أن له مواقعه الآثرة، فى منظوم الكلام ومنثوره على حد سواء[٢] .

وقوله ـ جل وعلا ـ ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطراً**﴾ بيان صريح للقصد الشرعى فى زواج الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من زينب، والمراد بقوله ﴿**قضى زيد منها وطراً**﴾ أى: لم تبق له فيها حاجة أى: طلقها، فالتعبير كناية عن الطلاق.

وفضل هذا الأسلوب الكنائى على قولنا "فلما طلقها زيد" هو

---

(١) راجع تعريف البلاغيين للطباق والمقابلة فى العمدة : ٥/٢، الإيضاح: ٤٧٧/٢، ٤٨٥، وروضة الفصاحة لزين الدين محمد بن أبى بكر الرازى ص ٢٣٤، ٢٣٥، والفنون البديعية فى دائرة البحث البلاغى أ.د/ فوزى السيد عبد ربه ص ٤٨، ٨٢، ودراسات وتطبيقات فى علم البديع: ٦٨، ٨٢.

(٢) عرفه البلاغيون بأن يجعل أحد اللفظين المكررين، أو المتجانسين، أو الملحقين بهما، فى أول الفقرة والآخر فى اخرها، ينظر : الإيضاح: ٥٤٣/٢، وتحرير التحبير : ١١٦/١، والبرهان: ٤٦٧/٣، والأطول: ٤٦٥/٢، وعلم البديع بين النظرية والتطبيق أ.د/ عبد الفتاح محمد سلامة ص ١٥٨، ط: دار الهلال.

الإشارة إلى أن طلاق زيد لها ثم زواج الرسول منها ليحسم أمر التبنى، ويصير محمد فى ذلك قدوة لقومه، فيقتلع تلك العادة الاجتماعية من جذورها ويستأصلها بآثارها، ولو قال: "فلما طلقها زيد" لكان يمكن أن يكون هذا الطلاق متأثراً بشئ من هذا الموقف، أى أن زيداً طلقها وله فيها حاجة، ولهذا أوثرت هذه الكناية فى هذا الموقف على لفظ الطلاق لما فيها من دلالة بينة على نفى أن يكون هناك عامل ما فى طلاق زيد لزينب إلا أن يكون فراغ حاجته منها، وأنه لم يصبح له فيها مأرب، ويؤكد هذا الذى ذهبنا إليه أن هذه الكناية لم تستعمل فى القرآن إلا فى هذا الموضع ليخلص الطلاق فيه من أى شائبة يمكن أن تتدخل فى أسباب الطلاق[١].

وقوله جل وعلا (فلما قضى زيد ..) إظهار فى مقام الإضمار، لأن مقتضى الظاهر أن يقال: فلما قضى منها وطراً، أى قضى الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه، فعدل عن مقتضى الظاهر للتنويه بشأن زيد، فقد كان يقال له زيد بن محمد، فلما نزع عنه هذا الشرف حين نزل قوله ﴿أدعوهم لآبائهم﴾ [٢]، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يخص بها أحداً من أصحاب محمد ـ ﷺ ـ فهو الصحابى الوحيد الذى سماه الله ـ تعالى ـ باسمه فى القرآن، ومن ذكره الله ـ تعالى ـ باسمه فى الذكر الحكيم فإن فى ذلك تكريماً

---

[١] راجع ذلك فى: غرائب القران: ٢٧٣٥/٤، وروح المعانى: ٢٥/٢٢، ومن أسرار التعبير القرانى ص ٢٣٨.

[٢] من الآية (٥) من سورة الأحزاب.

واضحاً له، إذا ما وضعنا فى الاعتبار أن القرآن الكريم يغفل أسماء الأشخاص والأماكن وتحديد الزمن، فالذى يعنيه هو الحدث يقول تعالى فى شأن من لهم منزلة عنده: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ... ﴾ [١]، ولا يحدد اسمه، ويقول سبحانه: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ... ﴾ [٢]، ولا يحدد اسمه، وهو لا ينص على اسم الصديق أبى بكر، فيقول ـ جل شأنه ـ: ﴿ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ [٣]، فإن تجربة زيد ومعرفة الله ـ تعالى ـ به، وقربه من النبى ـ ﷺ ـ وحب الرسول ـ صلوات الله وسلامه له، كانت وراء هذا التكريم والشرف العظيم[٤] .

وقوله ـ سبحانه ـ (زوجناكها) فيه إسناد زواج الرسول ـ ﷺ ـ من زينب ـ رضى الله عنها ـ إلى ضمير الجلال ـ سبحانه ـ ليكون ذلك مؤذناً من أول الأمر بأن زواج الرسول ـ ﷺ ـ من زينب ـ رضى الله عنها، لم يكن عملاً من أعمال محمد، وإنما هو فعل من أفعال الله، فالله هو الذى زوجه إياها، والطلاق هنا مسند إلى زيد فى صورة توحى بأنه كان من محض إرادته واختياره ـ كما سبق ـ والتزويج هنا مسند إلى الله ـ تعالى ـ فهو الذى زوج، ومحمد لا فعل له فى الحالين، وإنما عليه أن يتحمل أعباء الموقف ويواجه القوم بما لا

---

[١] الآية (٢٠) من سورة يس.

[٢] من الآية (٢٨) من سورة غافر.

[٣] من الآية (٤٠) من سورة التوبة.

[٤] راجع ذلك فى: التحرير والتنوير: ٣٨/٢٢، والعتاب فى القرآن الكريم أساليبه ومقاصده ص ٤٠٤.

عهد لهم به، وبما جرت طباعهم على خلافه.

والقرآن لم يقل: "فلما قضى زيد منها وطراً تزوجتها أو بنيت بها وما هو من هذا القبيل الذى يسند فيها الفعل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لأن القرآن يحرص على أن يوضح موقفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هذا الزواج، وإنه كان لا فعل له البتة، وإنما كانت الأحداث تجرى فيها على ما شاء القدر من غير أن يكون هناك أثر لشخصية الرسول محمد ـ ﷺ ـ فى هذا الحادث"[١] .

ونص الآية صريح فى أن التزويج كان من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذا ما كانت السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ تفاخر به على أزواج الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فقد روى الإمام البخارى ـ رضى الله عنه ـ بسنده عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: (فكانت زينب تفخر على أزواج النبى ـ ﷺ ـ تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجنى الله ـ تعالى ـ من فوق سبع سموات)[٢] .

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ بيان لعلة الزواج، وأنه نفى الحرج، أى الضيق، وفى الجمع بين اللام وكى توكيد للتعليل، كأنه يقول: ليست العلة غير ذلك، ودلّت الآية على أن الأصل فى الأحكام التشريعية أن تكون سواء بين النبى ـ ﷺ ـ والأمة حتى يدل دليل على الخصوصية.

---

(١) راجع ذلك فى: حاشية الشهاب: ٤٩١/٥، ٤٩٢، وروح المعانى: ٢٦/٢٢، والتحرير والتنوير: ٣٩/٢٢، ومن أسرار التعبير القرانى ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء: ١٩٣/٢٨.

والتعبير بالحرج هنا له دلالة مهمة، لأن أصل معناه، الموضع الكثير الشجر الذى لا يصل إليه الراعية، ومنه نقل إلى الضيق لأن الضيق لازم لهذه الحالة، ومثله الإثم، أى: الفعل الحاجب عن الرحمة، والحرج يطلق على الضيق وعلى الإثم، وإن مراد الإثم فى أصل معناه: الفعل البطئ الذى لا يصل صاحبه إلى غاياته، وهذا الأصل فى مدلول الكلمة لا يذهب عنها كاملاً، وإنما يظل فى مطاويها يومض هناك ويومئ للعين المتفحصة لدلالة الكلمات والتراكيب، والقول الجيد هو الذى تجد فيه هذا المعنى البعيد يعمق الدلالة، ويعطى الأسلوب مذاقاً خاصاً.

انظر إلى المعنى البعيد لكلمة الحرج وهو اشتجار الشجر، وصعوبة اجتيازه، وتأمل مسألة زواج مطلقة المتبنى الذى كان فى هذا المجتمع يأخذ حق الابن من الصلب، وله حرمة الابن وتحرم مطلقته كما تحرم مطلقة الأبن، والنفوس صوادف عن مطلقات الأدعياء كما هى صوادف عن مطلقات الأبناء، إذن الإقدام على هذا الزواج أمر فيه تجشم وصعوبة، هو اجتياز طريق لم يعهد وسلوك سبيل غير ممهد، هو دخول فى منطقة من السلوك كانت قبل ذلك حراماً، أليس هذا قريباً من تلك الأرض التى تكاثرت أشجارها وأشجرت فروعها، وتداخلت أغصانها فى تكاثف وكثرة فصار سلوكها غير ميسور ولا معهود[١] وهذه هى عظمة القرآن وإعجازه فى فصاحته وبلاغته وإيحاء ألفاظه

---

[١] راجع ذلك فى: حاشية الشهاب: ٤٩٢/٥، والتحرير والتنوير: ٣٩/٢٢، ومن أسرار التعبير القرانى: ص ٢٣٩، والعتاب فى القران أساليبه ومقاصده ص ٤٠٥.

ورقى نظمه.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إذا قضوا منهن وطراً﴾، وتذكر ما قلنا هناك فى فائدة هذه الكناية ومزيتها على التصريح بلفظ الطلاق، وأعلم أن مزيتها هنا كمزيتها هناك أى أنها تشير إلى ضرورة الاحتياط فى هذا الباب، فلا يطلق أحد لأدعياء زوجه لشئ يتصل برغبة مولاه.

وقوله ـ جل وعلا ـ ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ فاصلة واقعة أحسن موقع ، مثل الذى مضى من زواج زيد وطلاقه، ثم زواج محمد ـ ﷺ ـ من زينب ـ رضى الله عنها ـ كل ذلك بأمر الله ، وأمر الله مفعولاً لا محالة ، فهو يجرى على أعناق الوجود ، وليس ثمة ما يقدر على المواجهة .

وفى هذه الفاصلة صوت الربوبية الذى يعلو الوجود كله ، ومثل هذه الكلمة فى القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾[1] ، وقوله ـ جل شأنه ـ ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾[2] وقوله ـ عز وجل ـ ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ [3] إلى آخر هذه العبارات التى تصف الاقتدار الفائت والملك الأعلى .

وجملة (وكان أمر الله مفعولاً) تذييل لجملة (زوجناكها) ، وأمر الله يجوز أن يراد به من أمر الله به من إباحة تزوج من كن حلائل الأدعياء ، فهو بمعنى : الأمر التشريعى فيه ، ومعنى (مفعولا)

---

[1] من الآية (١٨) من سورة "المؤمنون" .

[2] الآية (٦٥) من سورة الواقعة .

[3] من الآية (١٦) من سورة غافر .

أنه متبع ممتثل فلا يتنزه أحد عنه ، قال تعالى — ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[١] . ويجوز أن يكون المراد : الأمر التكويني وهو ما علم الله انه يكون وقدر أسباب كونه ، فيكون معنى (مفعولاً) أى : واقعاً ، والأمر من إطلاق السبب على المسبب ، والمفعول هو المسبب[٢].

وأخيراً فهذه هى قصة عتاب النبى — ﷺ — حين أخفى ما أعلمه الله — تعالى — من زواجه بالسيدة زينب — رضى الله عنها — خشية من الناس ، ونخلص مما سبق أن الله سبحانه وتعالى أعلم نبيه محمد — ﷺ — أنه سيتزوج زينب ، وكان هذا الإعلام سراً فى نفسه — صلوات الله وسلامه عليه — لم يطلع عليه أحداً إذ لم يؤمر بتبليغه إلى أحد ، وعلى ذلك السر انبنى ما صدر منه لزيد قوله (أمسك عليك زوجك) ، فلما طلقها زيد ورام تزوجها علم أن المنافقين سيرجفونه بالسوء ، فلما أمره الله بذكر ذلك للأمة ، وتبليغ خبره بلغه ولم يكتمه مع أنه ليس فى كتمه تعطيل شرع ولا نقص مصلحة ، فلو كان كاتماً لكتم هذه الآية التى هى حكاية سر فى نفسه وبينه وبين ربه — تعالى — ولكن لما كان وحياً بلّغه ، لأنه مأمور بتبليغ كل ما أنزله الله عليه .

واعلم أن للحقائق نصابها ، وللتصرفات موانعها وأسبابها ، وأن

---

[١] من الآية (٣٢) من سورة الأعراف .

[٢] راجع ذلك فى : تفسير أبى السعود :١٠٥/٧ وحاشية الشهاب :٤٩٢/٥ ، وروح المعانى : ٢٦/٢٢ ، والتحرير والتنوير : ٣٩/٢٢، ٤٠ ، ومن أسرار التعبير القرانى ص ٢٣٩، ٢٤٠ .

الناس قد تمتلكهم العوائد ، فتحول بينهم وبين إدراك الفوائد فإذا تفشت أحوال فى عاداتهم استحسنوها ولو ساءت ، وإذا ندرت المحامد دافعوها إذا رامت مداخله عقولهم وشاءت ، وكل ذلك من تحريف الفطرة عن وضعها ، والمباعدة بين الحقائق وشرعها .

ولما جاء الإسلام أخذ يغزو تلك الجيوش ليقلعها من أقاصيها وينزلها من صياصيها ، فالحسن المشروع ما تشهد الفطرة لحسنه ، والقبيح الممنوع الذى أماتته الشريعة وأمرت بدفنه[1].

وهكذا جاء هذا النظم القرآنى فى أسلوب عتاب رقيق لطيف يستهدف إعلاء مثالية من المثاليات التى ينبغى أن يتحلى بها النبى ـ ﷺ ـ مهما يكن من مشقة نفسه ، لأنه يستهدف تقدير قيمة من قيم هذا الدين التى ينبغى أن تسود ويستهدف إحداث تغيير فى المجتمع بما يشرعه الله من تشريع ، يستهدف هذا العتاب من النبى ـ ﷺ ـ أن يكون على الوجه الأمثل ، مثلاً أعلى فى القدوة والأخلاق الربانية المحمدية ، ونسأل الله ـ سبحانه ـ أن يجعلنا ممن ينهجون على نهجه ويقتدون بسنته ، ويهتدون بأنواره ، ويلتمسون من فيضه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم.

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير ٢٢/٣٧،٣٨ .

الموقف السادس

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الكفار والمنافقين وأهل الكتاب

الموضع الأول : عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى استغفاره للمشركين وأنه لا يهدى من يحب ولكن الله يهدى من يشاء .

الموضع الثاني : عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ على شدة حزنه على عدم إيمان قومه وتحسره عليهم وشدة حرصه على هدايتهم

الموضع الثالث : عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ حين هم أن يحكم على اليهودى وهو برئ

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى امر الكفار والمنافقين وأهل الكتاب

وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه محمداً ـ ﷺ ـ بالرأفة والرحمة ، فقال ـ جل شأنه: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[٢]، فكان من رحمته وشفقته على أمته أن كان حريصاً على هدايتهم واستنقاذهم من العذاب الذى ينتظر كل كافر وعاص، لذلك كان يبذل كل طاقته فى سبيل الدعوة وتبليغها، بل أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حث المسلمين على تبليغها، فهو القائل: (لأن يهدى الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس)[٣].

لكن اقتضت سنة الله ـ تعالى ـ فى خلقه أن يكون فيهم المؤمن والكافر، كان النبى ـ ﷺ ـ يحزن ويشتد حزنه إذا رأى من بعض قومه عدم الإيمان وكان بوده ـ ﷺ ـ أن يفعل أى شئ فى سبيل إيمانهم وهدايتهم.

كذلك كان من ضمن شفقته ورحمته أنه هم أن يستغفر لأبى طالب بعد موته، فعاتبه الله ـ عز وجل ـ وعاتب الذين استغفروا لآبائهم بعد أن تبين وتأكد لهم أنهم ماتوا على غير الإسلام وبذلك يكونون من أصحاب الجحيم، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن

---

[١] الآية رقم (١٢٨) من سورة التوبة.

[٢] من الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

[٣] رواه الحاكم فى المستدرك، كتاب معرفة الصحابة: ٥٩٨/٣.

يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾[١] ، وقال — سبحانه — ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ [٢].

كذلك عاتبه المولى — عز وجل — على شدة حزنه وتحسره عليهم وحرصه المبالغ فيه على إيمانهم وأنه بذلك يكلف نفسه فوق طاقتها، وهو يعلم أن الله — تعالى — لو شاء هدايتهم لاهتدوا لكن لم يشأ هدايتهم، فأنزل الله — تعالى — قوله: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [٣].

وكذلك عاتب الله — سبحانه وتعالى — النبى والمؤمنين حين هموا أن يحكموا على اليهودى بالسرقة، فأنزل الله قوله — تعالى — : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ... ﴾ الآيات[٤].

فهذه ثلاثة مواضع عوتب فيها النبى — ﷺ — فى شأن الكفار والمنافقين وأهل الكتاب، الأول والثالث عوتب فيهما النبى — ﷺ — مع بعض المؤمنين، والثانى عوتب فيه النبى — ﷺ — وحده.

---

[١] الآية رقم (١١٣) من سورة التوبة.

[٢] الآية (٥٦) من سورة القصص.

[٣] الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

[٤] سورة النساء الآيات من (١٠٥ - ١١٣).

الموضوع الأول: عتابه ـ ﷺ ـ فى استغفاره للمشركين، وأنه لا يهدى من يحب ولكن الله يهدى من يشاء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾[١] هذا موقف آخر عاتب الله ـ تعالى ـ فيه نبيه محمدا ـ ﷺ ـ، فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه: "لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ـ ﷺ ـ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :"يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله" فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب،ـ فلم يزل رسول الله ـ ﷺ ـ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ "أما والله لاستغفرن لك ما لم أنه عنك" فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ [٢]، وأنزل الله فى أبى طالب، فقال لرسول الله ـ ﷺ ـ : ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى

---

[١] الآية (١١٣) من سورة التوبة.

[٢] أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الإيمان: ١/٢١٤، ورواه الإمام البخارى فى كتاب التفسير ينظر: فتح البارى : ١٧/٢٢٤، وذكره الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٧، ١٩٨.

من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ [١] .

يقول الفخر الرازى: "اعلم أن الله ــ تعالى ــ لما بين من أول السورة إلى هذا الموضوع وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه، بين فى هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم وإن كانوا فى غاية القرب من الإنسان، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات، والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب"[٢].

والمعنى: ما كان من شأن النبى ــ ﷺ ــ ولا من شأن أصحابه المؤمنين أن يدعو الله ــ تعالى ــ بأن يغفر للمشركين فى حال من الأحوال، ولو كان هؤلاء المشركون من أقرب أقربائهم من بعد ما تبين لهم، أى للرسول ــ ﷺ ــ ولأصحابه أن هؤلاء المشركين من أصحاب الجحيم، بسبب موتهم على الكفر، وإصرارهم عليه، وعدم اعترافهم بدين الإسلام[٣] .

وجملة (ما كان للنبى) هذا الأسلوب المكون من (كان) المنفية (بما) يأتى فى القرآن على وجهين:

الأول: بمعنى النفى نحو قوله ــ تعالى ــ : ﴿ما كان لكم أن تنبتوا

---

[١] الآية (٥٦) من سورة القصص، وينظر: الجامع لأحكام القران: ٢٥٣/٨، وروح المعانى: ٣٣/١١.

[٢] مفاتيح الغيب: ١٩٤/١٥، وينظر فى ظلال القران: ١٧٢١/١١.

[٣] ينظر: التفسير الوسيط للشيخ طنطاوى: ٤١٤/٦، ٤١٥.

شجرها﴾ [١] وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾[٢]، وقوله ـ جل وعلا ـ ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [٣].

وإلى هذا ذهب بعض العلماء فى معنى الآية التى نحن بصدد الحديث عنها، وعلى هذا يكون المعنى: "ما كان من شأن النبى ولا مما ينبغى أن يصدر منه من حيث هو نبى ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم"[٤]، فالآية على هذا الوجه لا تدل على وقوع الاستغفار، بل تدل على نفيه، وعلى ذلك فهى تبرئة وتنزيه للنبى ـ ﷺ ـ وللمؤمنين عن أن يقع منه أو منهم ذلك حسبما يدل عليه هذا الأسلوب.

الثانى: استعمال هذا الأسلوب فى القرآن الكريم متضمنا معنى النهى كقوله ـ تعالى ـ :﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ... ﴾[٥]، وقد جعل بعض العلماء منه الآية التى نحن بصددها، وعلى هذا يكون المعنى على هذا الوجه: النهى عن الاستغفار للمشركين، أى: لا تستغفر للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، فالآية على هذا الوجه واردة على أمر اقتضاها وهى من آيات العتاب[٦] وهذا هو الرأى الراجح ، وذلك لما ورد

---

[١] من الآية (٦٠) من سورة الشعراء.

[٢] من الآية (١٤٥) من سورة ال عمران.

[٣] من الآية (١٤٣) من سورة البقرة.

[٤] تفسير الشيخ المراغى: ٣٦/١١.

[٥] من الآية (٥٣) من سورة الأحزاب.

[٦] ينظر : ايات عتاب النبى ـ ﷺ ـ ص ١٨٣.

فى الصحيحين من سبب نزول هذه الآية ، وقد سبق ذكره منذ قليل

وقوله ــ سبحانه وتعالى ــ: ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا ... ﴾ هذه الآية جاءت على سبيل الاستئناف، نسخ به التخيير الواقع فى قوله ــ تعالى : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ [١]، فإن فى ذلك تسوية بين أن يستغفر النبى ــ ﷺ ــ لهم وبين أن لا يستغفر فى انتفاء أهم الغرضين من الاستغفار، وهو حصول الغفران.

وجاءت صيغة النهى بطريقة نفى الكون مع لام الجحود مبالغة فى التنزه عن هذا الاستغفار، كما فى قوله ــ تعالى ــ: ﴿قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق﴾[٢].

ويقول الفخر الرازى: ومعنى قوله ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا ... ﴾ يحتمل أن يكون المراد: ما ينبغى لهم ذلك فيكون كالوصف، وأن يكون المراد: ليس لهم ذلك على معنى النهى، والأول معناه: أن النبوة والإيمان يمنع من الاستغفار للمشركين، والثانى معناه: لا تستغفروا، والأمران متقاربان[٣] .

وزيادة قوله ﴿ ولو كانوا أولى قربى ﴾ للمبالغة فى استقصاء أقرب الأحوال إلى المعذرة، كما هو مفاد (لو) الوصلية، أى: فأولى أن لم

---

[١] من الآية (٨٠) من سورة التوبة.

[٢] من الآية (١١٦) من سورة المائدة.

[٣] ينظر : مفاتيح الغيب: ١٥/١٩٥، ١٩٦.

يكونوا أولى قربى، وهذه المبالغة لقطع المعذرة عن المخالف، وتمهيد لتعليم من اغتر بما حكاه القرآن من استغفار إبراهيم لأبيه فى نحو قوله ـ تعالى ـ : ﴿واغفر لأبى إنه كان من الضالين﴾ [١]، لذلك عقبه بقول: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ [٢].

وبين المولى ـ عز وجل ـ سبب المنع من هذا الاستغفار فى قوله ـ تعالى ـ ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [٣]، والمعنى أنه تعالى لما أخبر عنهم أنه يدخلهم النار، فطلب الغفران لهم جار مجرى طلب أن يخلف الله وعده ووعيده، وأنه لا يجوز.

أيضا لما سبق قضاء الله ـ تعالى ـ بأنه يعذبهم، فلو طلبوا غفرانه لصاروا مردودين وذلك يوجب نقصان درجة النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحط مرتبته[٤] ، وهذا غير مقبول اتفاقا.

وعلى ذلك يمكن القول إن سر الفصل لجملة (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) عما قبلها هو شبه كمال الاتصال، حيث إن جملة (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا ...) الخ مثيرة لسؤال مؤداه: ما سبب هذا المنع؟ جاءت جملة (من بعد ما تبين ...) كالجواب

---

[١] الآية (٨٦) من سورة الشعراء.

[٢] الآية (١١٤) من سورة التوبة.

[٣] من الآية (٤٨) من سورة النساء .

[٤] مفاتيح الغيب: ١٥/١٩٦.

عن هذا السؤال والسبب فى هذا المنع، ففصل بينهما كما يفصل بين السؤال والجواب لما بينهما من ربط معنوى.

وتبين أصحاب الجحيم يكون إما بموتهم على شركهم وكفرهم بالله، وإما بنزول الوحى فيهم يصفهم بأنهم من أصحاب النار، كما نزل فى أبى لهب، فقال الله عنه ﴿تبت يد أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارا ذات لهب﴾ [١]، أو بإخباره ـ سبحانه وتعالى ـ بأنه طبع على قلوبهم وختم عليها، فقال تعالى عن الكفار: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾[٢].

وبعد أن وضح المولى ـ عزم وجل ـ العلة المانعة من هذا الاستغفار، هو كونهم من أصحاب الجحيم، بين أن هذه العلة لا تختلف بأن يكونوا من الأقارب أو من الأباعد، فلهذا السبب قال تعالى: ﴿ ولو كانوا أولى قربى﴾.

وهكذا تضمن هذا العتاب قطع موالاة الكفار، حيهم وميتهم، فإن الله ـ عز وجل ـ لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين، فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز، وقال أكثر العلماء بأنه لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ما داما حيين عسى الله أن يتوب عليهما فيدخلا فى الإسلام، فأما من مات على الكفر فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى

---

[١] سورة المسد، الآيات (١ - ٣).

[٢] الآية (٧) من سورة البقرة.

له[١].

إذن إن العقيدة هى العروة الكبرى التى تلتقى فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية، فإذا انبتت وشيجة العقيدة انبتت الأواصر الأخرى من جذورها، فلا لقاء بعد ذلك فى نسب، ولا لقاء بعد ذلك فى صهر، ولا لقاء بعد ذلك فى قوم، ولا لقاء بعد ذلك فى أرض، أما الإيمان فالوشيجة الكبرى موصولة، والوشائج الأخرى كلها تنبع منها وتلتقى بها، أو لا إيمان فلا صلة إذن يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان[٢] .

اللهم قو ما بين المسلمين جميعا برباط الإيمان والتوحيد والعقيدة السلمية وحب المصطفى ـ ﷺ ـ.

الآية الثانية التى جاءت فى هذا السياق، والتى عاتب فيها المولى ـ سبحانه ـ نبيه محمدا ـ ﷺ ـ من أجل حرصه على هداية قومه، وخاصة هداية عمه أبى طالب هى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين**﴾ [٣].

ومناسبة هذه الآية أنه لما ذكر الله ـ تعالى ـ معاذير المشركين وكفرهم بالقرآن، وأعلم رسوله أنهم يتبعون أهواءهم، وأنهم مجردون عن هدى الله، ثم أثنى على فريق من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن،

---

[١] ينظر :الجامع لأحكام القران: ٢٥٤/٨، وروح المعانى: ٣٢/١١، والتفسير الوسيط: ٤١٥/٦.

[٢] فى ظلال القران: ١٧٢١/١١.

[٣] الآية رقم (٥٦) من سورة القصص.

وكان يحزن النبى — ﷺ — أن يعرض قريش وهم أخص الناس به عن دعوته، أقبل الله — تعالى — على خطاب نبيه — ﷺ — بما يسلى نفسه ويزيل كمده بأن ذكره بأن الهدى بيد الله، وهو كناية عن الأمر بالتفويض فى ذلك إلى الله تعالى[١] .

وجملة (إنك لا تهدى من أحببت) استئناف ابتدائى، وافتتاحها بحرف التوكيد (إن) اهتمام باستدعاء إقبال النبى — صلوات الله وسلامه عليه — على علم ما تضمنته، ومعلوم أن جئ (إن) فى ابتداء الكلام يعد طريقا من طرق التشويق فى القرآن الكريم، إثارة انتباه السامعين، وإيقاظ همهم لتدبر ما يلقى عليهم من أخبار.

وعن فوائد مجى (إن) فى الكلام وخصائصها، يقول الشيخ عبد القاهر: "وذلك أنه هل شئ أبين فى الفائدة، وأدل على أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل، أنك ترى الجملة إذا هى دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا، وكأن أحدهما قد سبله فى الآخر"[٢].

ومفعول (أحببت) محذوف دل عليه قوله (لا تهدى)، والتقدير: من أحببت هديه أو اهتداءه، و (من) الموصولة تشمل كل من دعاه النبى — ﷺ — إلى الإسلام فإنه يحب اهتداءه.

ومعنى قوله ﴿إنك لا تهدى من أحببت﴾ أى لا تقدر أن تدخل فى

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠/١٤٧.

[٢] دلائل الإعجاز، تح / شاكر ص ٣١٦، وينظر: نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ص ٢٤٩ وما بعدها.

الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم، لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره.

وقد تضافرت الروايات على أن من أول المراد بذلك أبا طالب عم النبى ـ ﷺ ـ إذ كان النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد اغتم لموته على غير الإسلام، وذكر الإمام الطبرى أن هذه الآية نزلت من أجل امتناع أبى طالب عمه من إجابته، إذ دعاه إلى الإيمان بالله وحده، وهذا من العام النازل على سبب خاص فيعمه وغيره[١] .

ومعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ولكن الله يهدى من يشاء﴾ أنه يخلق من يشاء قابلا للاهتداء فى مدى معين، وبعد دعوات محدودة حتى ينشرح صدره للإيمان، فإذا تدبر ما خلق الله عليه وحدده كثر فى علمه وإرادته جعل منه الاهتداء، فالمراد : الهداية بالفعل، وأما قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وإنك لا تهدى إلى صراط مستقيم﴾ [٢]، فهى الهداية بالدعوة والإرشاد فاختلف الإطلاقان، فلا تنافى بينهما، فإن الذى أثبته وأضافه إليه الدعوة والبيان، والذى نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدر، وهو نور يقذف فى القلب فيحيا به القلب، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا ... ﴾ [٣].

---

(١) راجع ذلك فى: الكشاف: ١٨٥/٣، وروح المعانى: ٩٦/٢٠، ٩٧، والتحرير والتنوير: ١٤٧/٢٠.

(٢) من الآية (٥٢) من سورة الشورى.

(٣) من الآية (١٢٢) من سورة الأنعام، وينظر: مفاتيح الغيب: ٣٠١/٢٣، والنور فى القرآن الكريم بين السياق والدلالة د/ بدر عبد العال حسين ص ١٣٩.

ومفعول فعل المشيئة محذوف لدلالة ما قبله عليه، أى: من يشاء اهتداءه، والمشيئة تعرف بحصول الاهتداء وتتوقف على ما سبق من علمه وتقديره[١] .

وفى قوله — عز وجل — ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ إيماء إلى أنه أعلم من كل أحد بالمهتدين فى أحوالهم ومقادير استعدادهم على حسب ما تهيأت إليه فطرهم من صحيح النظر وقبول الخير، واتقاء العاقبة، والانفعال لما يلقى إليه من الدعوة ودلائلها، ولكل ذلك حال ومدى، ولكليهما أسباب تكوينية فى الشخص وأسلافه وأسباب نمائه أو ضعفه من الكيان والوسط والعصر والتعقل[٢] .

يقول الشيخ سيد قطب عقب تفسيره لهذه الآية: "وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذا بصرامة هذا الدين واستقامته، فهذا عم رسول الله — ﷺ — وكافله وحاميه والزائد عنه، لا يكتب الله له الإيمان، على شدة حبه لرسول الله — ﷺ — وشدة حب رسول الله له أن يؤمن، ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة، ولم يقصد إلى العقيدة، وقد علم الله هذا منه، فلم يقدر له ما كان يحبه له رسول الله — ﷺ — ويرجوه، فأخرج هذا الأمر — أمر الهداية — من حصة رسول الله — ﷺ — وجعله خاصا بإرادته — سبحانه — وتقديره، وما على الرسول إلا البلاغ، وما على الداعين بعده إلا النصيحة والقلوب بعد ذلك بين

---

[١] ينظر: الكشاف: ١٨٥/٣، وحاشية الشهاب: ٣٠٩/٧، والتحرير والتنوير: ١٤٨/٢٠.

[٢] ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٠٢/٢٣، وروح المعانى: ٩٦/٢٠، والتحرير والتنوير: ١٤٨/٢٠.

أصابع الرحمن، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو الضلال"[١].

وهكذا عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه محمدا ـ ﷺ ـ في أسلوب رقيق لطيف بأنه لا يقدر أن يدخل في الإسلام كل من أحب، لأنه بشر لا يعلم المطبوع على قلبه من غيره، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقدر على أن يدخل من يشاء إدخاله، وهو الذي علم سبحانه أنه غير مطبوع على قلبه، وهو أعلم بالمهتدين سبحانه القادر العليم الخبير.

الموضع الثاني: عتابه ـ ﷺ ـ على شدة حزنه على عدم إيمان قومه وتحسره عليهم وشدة حرصه على هدايتهم.

أما الموضع الثاني الذي عاتب فيه المولى ـ عز وجل ـ نبيه ـ ﷺ ـ في أمر الكافرين فقد جاء في قوله ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [٢].

جاءت هذه الآية بعد بيان الله تعالى مبلغ ما وصل إليه حزن الرسول ـ ﷺ ـ على عدم إيمان قومه، فقدم الله ـ سبحانه وتعالى ـ التعزية والتسلية على حزنه مبينا له أنهم لا يكذبونه، لأنه عندهم صادق وأمين، وإنما الذي حملهم على العناد وعلى الكفر وعلى الجحود بآيات

---

[١] في ظلال القرآن: ٢٠/٢٧٠٣.

[٢] الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

الله ظلمهم فقال — جل وعلا — : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبا المرسلين﴾ [١].

هاتان الآيتان إخبار من الله — تعالى — لنبيه — ﷺ — أنه علم ما يحزنه علما أكده بحرف التحقيق (قد) التى تفيد أن هذا العلم محقق ثابت، وبدخول اللام على خبر إن المؤكدة، وإخبار أيضا بأن تكذيب هؤلاء المشركين لم يكن قط موجها له — ﷺ — بقوله (فإنهم لا يكذبونك).

والغرض من هاتين الآيتين هو قصد تسلية الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وأمره بالصبر، ووعده بالنصر، وتأييسه من إيمان المتغالين فى الكفر، وقد تهيأ المقام لهذا الغرض بعد الفراغ من محاجة المشركين فى إبطال شركهم وإبطال إنكارهم رسالة محمد — ﷺ —، والفراغ من وعيدهم وفضيحة مكابرتهم[٢] .

وفى هاتين الآيتين تلطف وتعزية للرسول — ﷺ — وتلميح إلى ما كان عليه من الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق ورفيع الشمائل التى يعترف بها هؤلاء المشركون رغم ما يكنون لدعوته من عداء.

ثم تبين هاتان الآيتان أن سبب عناد هؤلاء المشركين وتعنتهم

---

[١] الآيتان (٣٣، ٣٤) من سورة الأنعام.

[٢] راجع ذلك فى : حاشية الشهاب: ٧٦/٤، ٧٧، والتحرير والتنوير : ١٩٦/٧، وتفسير الشيخ الشعراوى: ٣٥٩٧/٦، ٣٥٩٨.

بطلب الآيات من رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إنما هو جحودهم بآيات الله ـ تعالى ـ وكأن هذا موجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم سلك الله ـ تعالى ـ نبيه ـ ﷺ ـ مسلكا آخر فى التلطف والتسلية ووجوب الصبر، وهو أن يتأسى بإخوانه الأنبياء والمرسلين، لأنه ما من نبى أتى برسالة إلا واجه العنت والعناد من الكافرين، فما كان من الأنبياء إلا انهم صبروا على تكذيب الكفار إياهم وإيذائهم لهم حتى آتاهم النظر والظفر من الله تعالى[١] .

وقوله ـ جل وعلا ـ ﴿ **ولا مبدل لكلمات الله** ﴾ كلمات الله هى آياته التى أنزلها على أنبيائه ورسله ووعدهم فيها بالنصر والتأييد، كقوله تعالى: ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى**﴾، وقوله ـ عز شأنه ـ ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون**﴾، وقوله سبحانه: ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ وهذه سنة الله ـ تعالى ـ التى لا تتبدل ولا تتغير، ﴿**ولقد جاءك من نبأ المرسلين**﴾ أى خبرهم فى القرآن فى صبرهم وتحملهم للإيذاء والتعنت[٢]

والمراد بـ (الذى يقولون) أقوالهم الدالة على عدم تصديقهم الرسول ـ ﷺ ـ كما دل عليه قوله بعده (ولقد كذبت رسل) فعدل عن

---

[١] راجع ذلك فى : المحرر الوجيز : ٤١/٦، وقبس من نور القران الكريم للشيخ محمد على الصابونى: ١٣٢/٢، ١٣٣.

[٢] راجع ذلك فى: التفسير القرانى للقران: ١٥٩/٧، والعتاب فى القران الكريم أساليبه ومقاصده ص ٣٢٠.

ذكر اسم التكذيب ونحوه إلى اسم الموصول وصلته تنزيها للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — عن ذكر هذا اللفظ الشنيع فى جانبه تلطفا معه — ﷺ —، و(الذى يقولون) هو قولهم: ساحر، مجنون، شاعر، فعدل عن تفصيل قولهم إلى إجماله إيجازا أو تحاشيا عن التصريح به فى جانب المنزه عنه، فالله — سبحانه — قد سلى رسوله — ﷺ — بأن أخبره بأن المشركين لا يكذبونه ولكنهم أهل جحود ومكابرة وكفى بذلك تسلية[١].

وقوله ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ استدراك لدفع توهم أنهم لم يصدر منهم أصل التكذيب مع أن الواقع خلاف ذلك، فاستدرك عليه بأنهم يجحدون بآيات الله، فيظهر حالهم كحال من ينسب الآتى بالآيات إلى الكذب وما هم بمكذبين فى نفوسهم، والجحد والجحود: الإنكار للأمر المعروف، أى الإنكار مع العلم بوقوع ما ينكر، فهو نفى ما يعلم النافى ثبوته، فهو إنكار مكابرة.

وعدل عن الإضمار إلى قوله (ولكن الظالمين) ذما لهم وإعلاما بأن شأن الظالم الجحد بالحجة وتسجيلا عليهم بأن الظلم سجيتهم[٢].

والظالم هو الذى يجرى على خلاف الحق بدون شبهة، فهم ينكرون الحق مع علمهم بأنه الحق، وذلك هو الجحود، وقد أخبر الله عنهم بذلك وهو أعلم بسرائرهم، ونظيرها قوله تعالى حكاية عن قوم

---

(١) التحرير والتنوير: ١٩٨/٧، والتفسير القرانى للقران: ١٥٩/٧.

(٢) راجع ذلك فى: حاشية الشهاب: ٧٨/٤، والتحرير والتنوير: ١٩٩/٧، وتفسير الشعراوى: ٣٦٠١/٦.

فرعون: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ... ﴾ [١]. وعلى ذلك يكون فى الآية محسنا المحسنات البديعية وهو الاحتباك[٢] . والتقدير فإنهم لا يكذبونك ولا يكذبون الآيات، ولكنهم يجحدون بالآيات، ويجحدون بصدقك، فحذف من كل لدلالة الآخر.

وقوله سبحانه ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك ... الخ الآية ﴾ هذا الكلام جاء على سبيل التسلية والتهوين والتكريم، وبيان أن إساءة أهل الشوك لمحمد — ﷺ — هى دون ما أساء الأقوام إلى الرسل من قبله، فإنهم كذبوا بالقول والاعتقاد، وأما قومه فكذبوا بالقول فقط.

وفى الكلام أيضا تأس للرسول — ﷺ — بمن قبله من الرسل ودلالة التنكير فى (رسل*) إما للتكثير، أى رسل ذوو عدد كثير، وإما للتعظيم أى ألو آيات ونذر، وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم، وما أشبه ذلك من موجبات التعظيم، وهذا ما ذهب إليه الزمخشرى وتبعه أكثر البلاغيين[٣] .

وفى قوله تعالى ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ رد اعتبار للنبى — ﷺ — عند هؤلاء القوم الذين اتهموه بالكذب زورا وبهتانا، وقد كشف الله ما فى نفوسهم عن النبى ورأيهم فيه، فهم فى

---

[١] من الآية (١٤) من سورة النحل.

[٢]

[٣] ينظر: الكشاف: ٣/٣٠٠، ومفتاح العلوم: ١٩٤، ومفتاح المفتاح للشرازى: ١/٢٢٣، وشرح التخليص للبابرتى: ٢١٩، وتجريد البنانى: ١/٢٤٤، والشواهد القرانية فى كتاب مفتاح العلوم للسكاكى، مواطن الاستشهاد ومسائل الخلاف ص ٧٨، ٧٩.

قرار أنفسهم لا يكذبون محمدا، إنهم يعلمون عن يقين أنه ما ما قال ولن يقول كلمة الكذب، بل هو عندهم فوق مستوى الشبهة فيما تشين الناس، وينزل من قدرهم، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، إنهم لظلمهم، وعنادهم يرون الحق ويستيقنونه ثم لا تطاوعهم أنفسهم على الإقرار به، والولاء له، ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنون بها، وهكذا يفعل العناد بأهله، ويقطع عليهم الطريق إلى الحق والهدى ويحجزهم عن الخير والفلاح.

ونلمح في قوله ـ جل وعلا ـ ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ تهديدا ووعيدا لهؤلاء المشركين، إنهم لا يكذبون محمدا، ولكنهم يكذبون بآيات الله التي بين يديه، فانظر كيف هذا التناقض العجيب منهم، يؤمنون بمحمد وبصدقه كإنسان، ويأخذون شهادته على كل ما يقول فيما هو من شؤون دنياهم، فإذا جاءهم بآيات الله ناطقة من عند الله أنكروها وقالوا سحر ساحر، مع أن العاقل المتدبر يرى بعين اليقين شواهد الصدق ودلائله ناطقة في كلام الله ـ تعالى ـ وهي مستغنية عن صدق من يجئ إلى الناس بها ويعرضهم عليها، فكيف إذا كان من يجيئهم بها ويعرضها عليهم، غير متهم بكذب، أو مجرب عليه شهادة زور عندهم؟[1]

ومن يدقق النظر في قوله ـ تعالى ـ ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك

---

[1] راجع ذلك في: الجواهر في تفسير القرآن للشيخ طنطاوي جوهر: ٢٧/، ٢٨، والتفسير القرآني للقرآن: ١٥٩/٧، ١٦٠، وتفسير الشيخ الشعراوي: ٣٥٩٧/٦ وما بعدها.

فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ يلمح ان فيه عزاء بعد عزاء للنبى الكريم، ورحمات رب رحيم تتنزل عليه، وهو فى مواجهة هـذا العناد والعنت، الذى يلقاه من قومه، وفى هذا العزاء يرى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مشاهد كثيرة لهذا المشهد الذى يعيش فيه، فهناك رسل كثيرون من رسل الله قد كذبوا من أقوامهم، وأوذوا فى أنفسهم من سفهاء قومهم، ولكنهم اعتصموا بالصبر، واحتملوا الأذى فى سبيل الرسالة الكريمة التى شرفهم الله بها.

وفى هذا أسوة للنبى ـ ﷺ ـ وللمؤمنين معه، فليحتمل الأذى وليصبر على الضر، وليحتمل المؤمنون الأذى وليصبروا على الضر، فإن العاقبة له ولهم، وأن النصر للحق ولمن ينصرون الحق، فتلك هى سنة الله، ولن تتخلف آثارها فى حاضر أو مستقبل، فإن أحكام الله لا تنقض وكلماته لا تتبدل[1].

ثم عقب المولى ـ عز وجل ـ بعد هاتين الآيتين بقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين**﴾[2] وهذه الآية فيها معاتبة للنبى ـ ﷺ ـ على شدة حرصه على إيمان الكفار لما اشتملت عليه من تحذير وشئ من الشدة فى

---

[1] راجع ذلك فى: المحرر الوجيز: ٦/٤٢، ٤٣، والأنصاف على الكشاف: ٢/ ، وتفسير القاسمى: ٦/٢٢٩٢، والتفسير القرانى للقران: ٧/١٦٠، والتحرير والتنوير: ٧/٢٠١، ٢٠٢.

[2] الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

الخطاب بلغ مبلغ التيئيس من إيمانهم . قال صاحب كتاب آيات عتاب المصطفى — ﷺ — عن هذه الآية : " إنها من عتاب التحذير باعتبار أن فيها شيئا من شدة الأسلوب وصرامته وإن كانت فيما عوتب عليه النبى — ﷺ — من شدة حرصه على إيمانهم"[١].

ومعنى الآية أنك قد استنفذت كل طرق موجبات دلائل الإيمان وآتيتهم من الآيات ما فيه الغنيمة عن طلب المزيد ، ولم يبق إلا أن تأتيهم بالمستحيلات وما ليس فى استطاعتك الإتيان به ، فقد شق عليك إعراضهم ، وإن كان بلغ بك الحرص على إيمانهم بأنك لو استطعت أن تدخل سردا فى الأرض أو ترقى فى السماء فتأتيهم بما اقترحوا من الآيات توصلا إلى إيمانهم إن استطعت أن تفعل ذلك فأفعل.

المقصود من هذا الكلام أن يقطع الرسول طمعه عن إيمانهم وألا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان وإقبالهم على الكفر[٢] وإذا استمع النبى إلى كلمات ربه وما تحمل إليه من مواساة كريمة وعزاء جميل ، فقد وجب على النبى أن يطمئن قلبه ، وتسكن نفسه ، ويذهب حزنه وحسرته على ما يلق من قومه ، فإذا كان قد بقى فى نفس النبى شيئا من تلك العوارض التى عرضت له من قومه ، وإن كانت لا تزال به نوازع الحزن والحسرة عليهم ، فإن السماء ليس عندها ما تقدمه لهم من وسائل الإقناع ، بعد أن قدمت لهم ما قدمت من آيات ، وما ساقت

---

[١] راجع ذلك فى قبس من نور القرآن الكريم للشيخ الصابونى : ١٣٣/٢، ١٣٤ ، وايلت عتاب المصطفى — ﷺ — ص ٢١٠

[٢] ينظر : مفاتيح الغيب : ٢٩٠/١١ ، وتفسير الشيخ الشعراوى ٣٦٠٥/٦ ، ٣٦٠٦.

إليهم من نذر.

فإن وجد النبى — ﷺ — القدرة من نفسه على أن يأتيهم بما يقنعهم، ويحملهم على التصديق به، وبما يدعوهم إليه، فليفعل وهذه هى الأرض تحت قدميه، والسماء فوق رأسه، فإن استطاع أن يشق الأرض أو يرقى السماء بسلم ليأتيهم بآية مقنعة، فليفعل ... هيهات هيهات.

وليس هذا دعوة من الله — سبحانه — للنبى — ﷺ — أن يفعل هذا، — وإنما هو صرف له عن هذا اللغو الذى يلغوا به قومه من مقترحات يقترحونها عليه، وتيئيس لهم من أن يكون لهذا اللغو قبول عنده[1].

و(كبر) هنا شق عليك، وأصله عظم الجثة، ثم استعمل مجازا فى الأمور العظيمة الثقيلة، لأن عظم الجثة يستلزم الثقل، ثم استعمل مجازا فى معنى (شق)، لأن الثقيل يشق حمله، فهو مجاز مرسل بلزومين.

وجئ فى هذا الشرط بحرف (إن) الذى يكثر وروده فى الشرط الذى لا يظن حصوله، للإشارة إلى أن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ليس بمظنه ذلك ولكنه على سبيل الفرض.

وقوله (فى الأرض) صفقة (نفقا) أى متغلغلا، أى عميقا، فذكر هذا المجرور لإفادة المبالغة فى العمق مع استحضار الحالة وتصوير حالة الاستطاعة إذ من المعلوم أن ا لنفق لا يكون إلا فى الأرض.

والمعنى: فإن استطعت أن تطلب آية من جميع الجهات للكائنات،

---

[1] راجع ذلك فى: المحرر الوجيز: ٤٢/٦، والتفسير القرانى للقران: ١٦٢/٧، ١٦٣.

ولعل اختيار الابتغاء فى الأرض والسماء أن المشركين سألوا الرسول — ﷺ — آيات من جنس ما فى الأرض، كقولهم: «حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً» [١]. ومن جنس ما فى السماء، كقولهم: ﴿أو ترقى فى السماء ... ﴾ [٢] وجواب الشرط محذوف، دل عليه فعل الشرط، وهو (استطعت)، والشرط وجوابه مستعملان مجازاً فى التأييس من إيمانهم وإقناعهم، لأن الله جعل على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها[٣].

وقوله — تعالى — ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ شرط امتناعى دل على أن الله لم يشأ ذلك، أى: لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم عليه، فمفعول المشيئة محذوف لقصد البيان بعد الإبهام على الطريقة المسلوكة فى فعل المشيئة إذا كان تعلقه بمفعوله غير غريب، وكان شرطاً لإحدى أدوات الشرط كما هنا، وكقوله — سبحانه — ﴿إن يشأ يذهبكم... ﴾ [٤].

ومعنى قوله — جل وعلا —: ﴿لجمعهم على الهدى﴾، لهداهم أجمعين، فوقع تفنن فى أسلوب التعبير فصار تركيباً خاصياً عدل به عن التركيب

---

[١] من الآية (٩٠) من سورة الإسراء.

[٢] من الآية (٩٣) من سورة الإسراء.

[٣] راجع ذلك فى : التحرير والتنوير : ٢٠٥/٧.

[٤] من الآية (١٦) من سورة فاطر، وراجع هذا الموضع من مواضع حذف المفعول فى : دلائل الإعجاز ص ١٦٤، ١٦٥، وبحوث المطابقة لمقتضى الحال د/ على البدرى ص ٢٤٠، ٢٤١، وخصائص التراكيب ص ٢٧٩ وما بعدها، ومعانى التراكيب ص ١٤٣، ودراسات منهجية فى البلاغة العربية للمؤلف ص ٢٦٢، ٢٦٣.

المشهور في نحو قوله تعالى: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾[١]، للإشارة إلى تمييز الذين آمنوا من أهل مكة على من بقى فيها من المشركين، أى لو شاء لجمعهم مع المؤمنين على ما هدى إليه المؤمنين من قومهم، والمعنى: لو شاء الله أن يخلقهم بعقول قابلة للحق لخلقهم بها فلقبوا الهدى، ولكنه خلقهم على ما وصف في قوله: ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً﴾ [٢] الآية، فهذا من المشيئة المتعلقة بالخلق والتكوين، لا من المشيئة المتعلقة بالأمر والتشريع.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ نهى للنبى ـ ﷺ ـ عن هذه الحالة، وهذا النهى لا يقتضى إقدامه على مثل هذه الحالة كما أن قوله ـ تعالى ـ ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ [٣] لا يدل على أنه ـ ﷺ ـ أطاعهم.

والمقصود من تغليظ الخطاب، التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة، والمعنى: لا تحزن على كفرهم ولا تجزع على إعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم، وقيل الخطاب له والمراد أمته فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وأذيتهم[٤] .

والمراد بالجاهلين يجوز أن يكون من الجهل الذى هو ضد العلم،

---

(١) من الآية (١٤٩) من سورة الأنعام.

(٢) من الآية (٥٧) من سورة الكهف.

(٣) من الآية الأولى من سورة الأحزاب.

(٤) راجع ذلك في: مفاتيح الغيب: ٢٩١/١١، والجامع لأحكام القران: ٤١٨/٦، والبحر المحيط: ١١٦/٤، والسراج المنير للخطيب الشربينى: ٤١٨/١.

كما فى قوله — تعالى خطاباً لسيدنا نوح — عليه السلام — ﴿إنى أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [١]. ورجح الشيخ الطاهر بن عاشور أن يكون المراد بالجهل هنا هو ضد الحلم فقال: "ويجوز أن يكون من الجهل ضد الحلم أى لا تضق صدراً بإعراضهم، وهو أنسب بقوله ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾ [٢].

وبالرغم من أن هذا الخطاب فيه شدة على النبى — ﷺ — إلا أننا نلمح فيه التلطف، حيث عبر المولى — عز وجل — بقوله: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾، ولم يقل: فلا تكن جاهلاً، وذلك تعظيم وتوقير له — ﷺ — يقول الإمام القاسمى: "لم يسند الجهل إليه للمبالغة فى نفيه عنه ، وما فيه شدة الخطاب سره تبعيد جنابه الكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزع فى مواطن الصبر مما لا يليق إلا بالجاهلين"[٣]

هنا وقد جاء توجيه الله — سبحانه وتعالى — للنبى — ﷺ — بأن لا يكون فى صدره ضيق ولا حرج على تكذيب الكفار وعدم إيمانهم اكثر من مرة فى القرآن الكريم ، لكنها لا تحمل عتاباً له — صلوات الله وسلامه عليه — وإنما تحمل فى طياتها الرحمة والشفقة عليه ، ومن هذه الآيات قوله — تعالى — ﴿ المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤] .

---

[١] من الآية (٤٦) من سورة هود — عليه السلام.

[٢] تفسير التحرير والتنوير : ٢٠٦/٧.

[٣] تفسير القاسمى : ٢٢٩٥/٦ .

[٤] الآيتان (٢،١) من سورة الأعراف .

وقوله ـ جل شأنه ـ ﴿ فلعلّك تاركٌ بعْض ما يُوحَى إليْك وضَآئِقٌ بِه صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِل عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[١] .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[٣].

وغير ذلك من الآيات التى ذكر فيها الحديث عن ضيق صدر الرسول ـ ﷺ ـ وهذه الآيات كانت فى بداية مطلع الرسالة ، وكانت هذه الآيات على سبيل التوجيه والإرشاد للحبيب المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

وفى توجيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ للنبى ـ ﷺ ـ إنما هو إعداد له حتى لا يصدم بما يقوله الكفار مستقبلاً ، فهو تهيئة نفسية له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ باعتبار أنه مرسل إلى قوم مشركين لهم عاداتهم وتقاليدهم التى تتنافى ولا تتفق مع الدين الجديد .

يقول الخطيب الشربينى فى تفسير آية الأعراف السابقة : " أى : فلا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به مخافة أن تكذب ، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم وكان يضيق

---

[١] الآية (١٢) من سورة هود ـ عليه السلام ـ .

[٢] من الآية (٧٠) من سورة النمل .

[٣] من الآية (٩٧) من سورة الحجر .

صدره من الأذى ولا ينبسط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم "[١] .

وبالنظر فى هذه الآيات السابقة نرى أنها من أوائل ما نزل من القرآن الكريم . فكيف تكون هذه الآيات عتاباً والنبى ـ ﷺ ـ فى مطلع الدعوة . وهو فى حاجة إلى من يشد أزره ، لا أن يلومه ، ثم كيف يكون هذا عتاباً وليس فيه لوم أو مؤاخذه .

فكيف يكون هذا عتاباً مع أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يعقب بما يشعر بلوم أو مؤاخذه ، والعتاب من ضمن مدلولاته اللوم والمؤاخذة والتأنيب ، بل إن الله ـ عز وجل ـ أشفق على النبى ـ ﷺ ـ إزاء ما يبذله من مبالغة فى الجهد فى سبيل الدعوة حتى كاد أن يقتل نفسه ، وكان ذلك جهداً فوق طاقته ، فتلطف الله ـ سبحانه وتعالى ـ به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأنزل عليه آيات للكف عن المبالغة فى الجهد حتى لا يصيبه شئ من المشاق والمتاعب والنصب ، فقال ـ تعالى ـ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[٢].

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[٣]

وقال ـ عز من قائل ـ :﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[٤]

---

[١] السراج المنير : ٤٦٢/١ ، وينظر تفسير القاسمى : ٢٦٠٩/٧ .

[٢] الآية (٦) من سورة الكهف .

[٣] الآية (٣) من سورة الشعراء .

[٤] من الآية (٨) من سورة فاطر .

وقد خوطب الرسول ـ ﷺ ـ بـ (لعل) فى الآية الأولى ، لما فيها من الإشفاق عليه ، والتلطف به فيما يبذله من جهد وتعب فى سبيل تبليغ الدعوة .

وفى الآية الثانية قال سبحانه : ﴿ **باخع نفسك** ﴾ لبيان ما وصل إليه رسول الله ـ ﷺ ـ من جهد ومشقة فى تبليغ قومه وحرصه على هدايتهم ، لأن بخع النفس معناه فى اللغة (قتلها وإهلاكها غماً أو إضعافها)[١].

فهو من شدة حرصه على إيمانهم وإشفاقه عليهم وصل إلى حال من يقتل نفسه وجداً عليهم أو يضعفها بما يبذل من جهد فوق طاقته[٢].

وآية سورة الشعراء شبيهة بآية سورة الكهف فى لفظها وأسلوبها ، وأما قوله ـ تعالى ـ ﴿ **فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ﴾ أى : لا تتحسر عليهم ولا تحزن على عدم إيمانهم ، لأنك تعلم علم اليقين أن الهداية والضلال بيد الله تعالى .

وإذا اعتبرنا هذه الآيات عتاباً ، فهى عتاب له ـ ﷺ ـ لا عتاب عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وهناك فرق بينهما لمن ينعم النظر فى الفوارق الدقيقة بين الكلمات ، يقول الشيخ الشعراوى : " هناك فرق بين العتب على والعتب لى ، والعتب هو لون من اللوم على

---

(١) لسان العرب مادة (ب خ ع) ، وينظر : المفردات فى غريب القران مادة (ب خ ع) ص ٣٨ .

(٢) راجع ذلك فى : الكشاف : ٣٧٢/٣ ، وتفسير أبى السعود : ٢٣٣/٦ ، وحاشية الشهاب : ١٦٣/٧ ، وروح المعانى : ٥٩/١٩ .

ما حدث . وهذا اللوم معناه أولاً وقبل كل شئ هو وجود السود بينك وبين الشخص الذى تلومه . وعتاب الله — سبحانه — لرسوله — ﷺ — على أن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يحمل نفسه مالا يطيق ، ولماذا يحمل رسول الله نفسه ملا تطيق حباً فى دينه ورغبة فى أن يدخل الإيمان إلى كل نفس وفى كل قلب ، أى أن العتب له وليس عليه ، ورحمة به وليس عتاباً على إهمال ارتكبه"[١].

وإذا استمع النبى — ﷺ — إلى كلمات ربه وما تحمل من مواساة كريمة ، وعزاء جميل ، فقد وجب على النبى — صلوات الله وسلامه عليه — أن يطمئن قلبه ، وتسكن نفسه ، ويذهب حزنه وحسرته.

ولو أراد الله — سبحانه وتعالى — أن يدخل الناس جميعاً فى الإيمان لفعل ولوضع بين يدى المعاندين والكافرين والمشركين من الآيات القاهرة ما يحملهم على الإيمان ، حيث لا يجدون معها سبيلاً إلى الإنكار والجحود ولكنه — سبحانه — أراد أن يكون للإنسان تقديره وتفكيره ، فيما يحمل إليه رسل الله من آيات ، يرى فيها العقلاء دلائل الحق ، وأمارات الهدى ولا يرى فيها الضالون والمعاندون شيئاً يفتح لهم الطريق إلى الله — تعالى — وفى هذا ابتلاء وامتحان ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ [٢] ، ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾[٣] فما قوة فى هذا الوجود ترد مشيئة الله ، ونفاذ ما شاء ، ولكنه — سبحانه — وضع

---

[١] معجزة القران لفضله الشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٢٤٦ -٢٤٩ بتصرف

[٢] من الآية (٣٧) من سورة الأنفال .

[٣] من الآية (٣٥) من سورة الأنعام .

الإنسان بهذا الوضع الذى يكون له فيه مجال للاختيار : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١).

وفى هذا يقول الله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، وفى هذا وقاية للنبى ـ ﷺ ـ من أن تطرقه طوارق الأسى والحسرة على من تخلف عن الدعوة التى يدعو بها ولوى وجهه عن الحق الذى بين يديه ، من ذوى قرابته ، ومن يريد لهم الخير ممن يحبهم ، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٣)

الموضع الثالث : عتابه ـ ﷺ ـ حين همّ أن يحكم على اليهودى وهو برئ

يقول المولى ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ

---

(١) من الآية (٢٩) من سورة الكهف .

(٢) الآية (٩٩) من سورة يونس ـ عليه السلام ـ .

(٣) الآية (٥٦) من سورة القصص ، وراجع ذلك فى التفسير القرانى للقرآن : ١٦٣/٧ ، ١٦٤ .

إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[١].

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات مختلفة السياق إلا أنها متقاربة المعانى ، ومن ذلك ما ذكره الزمخشرى من أن رجلاً اسمه طعمة ابن ابيرق أحد بنى ظفر ــ سرق درعاً من جار له اسمه قتادة بن النعمان فى جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه ، وخبأ طعمة الدرع عند رجل من اليهود اسمه زيد بن السمين ، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد ، حلف ما أخذها وما له بها علم ، فتركوه ، واتبعوا أثر الدقيق حتى أنتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها ، فقال اليهودى : دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود ، فقالت بنو ظفر أقارب طعمة : انطلقوا بنا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فلما وصلوا إليه سألوه أن يجادل ــ أى يدافع ــ عن صاحبهم طعمة ، وقالوا : إن لم تفعل ملك وافتضح وبرئ اليهودى ، فهم رسول الله ــ ﷺ ــ أن يفعل وأن يعاقب اليهودى ، وقيل : هم أن يقطع يده فنزلت .. [٢].

وهذه الآيات الكريمة وإن كانت قد نزلت فى حادثة معينة ، إلا أن

---

(١) سورة النساء الآيات (١٠٥-١١٣) .

(٢) الكشاف : ٥٦١/١ ، وينظر : جامع البيان : ١٧١/٥ ، مفاتيح الغيب ٤٣٢/١٠ ، وغرائب القران : ١٠٤١/٢ ، وتفسير ابن كثير : ٥٥١/١ ، وتفسير أبى السعود : ٢٢٩/٢ ، وحاشية الشهاب ٣٤٤/٣ ، ٣٤٥ ، وروح المعانى : ١٣٨/٥، ١٣٩ .

توجيهاتها وأحكامها تتناول جميع المكلفين فى كل زمان ومكان ، وجاءت الآية الأولى تحث الرسول — ﷺ — على استمرار التزام الحق والعدل فى معاملة جميع الناس أعداء كانوا أم أصدقاء ، كفاراً كانوا أم مؤمنين كما هو سجيته — صلوات الله وسلامه عليه — فى جميع الأحوال ومع جميع الناس دون النظر إلى ما هم عليه من عقيدة ليكون ذلك منهجاً واجب السلوك لأمته من بعد .

ومن يتدبر الآيات يتضح له أن الله — تبارك وتعالى — وجه النبى — ﷺ — إلى الحكم بين الناس — بما أراه الله — عز وجل — من الوحى أو الإلهام أو الاجتهاد الصادق وأن يتحرى وجه الدقة والحيدة وألا تحمله خيانة الخائنين أن يكون مخاصماً لهم ، وقد ذهب العلماء إلى أن الآيات عتاب للنبى — ﷺ — وللمؤمنين الذين كان لهم شأن فى هذا الأمر .

يقول الإمام الطبرى : " إن الخائنين الذين عاتب الله — جل ثناؤه — نبيه — ﷺ — فى خصومته بنو بيرق "[١] .

ويقول الإمام الرازى : " اعلم أن فى الآية تهديداً ، وذلك لأن النبى — ﷺ — لما مال طبعه قليلاً إلى جانب طعمة وكان فى علم الله أن طعمة كان فاسقاً فالله عاتب رسوله — ﷺ — على ذلك القدر من إعانة المذنب "[٢].

---

[١] جامع البيان : ١٦٩/٥ .

[٢] مفاتيح الغيب : ٤٣٥/١٠ .

وسوطن العتاب فى هذه الآيات فى توجيه النهى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ألا يكون خصيماً للبرءاء لأجل الخائنين ، وهذا الأسلوب وإن كان لا يستلزم وقوع المنهى عنه من رسول الله ـ ﷺ ـ إلا أنه قد يشعر بحديث هجس فى نفسه قبل أن يبين الله له جلية الأمر.

يقول الدكتور عويد المطرفى:عن أسلوب العتاب فى هذه الآيات: " إنه من عتاب التحذير لاشتماله فى موضعية[١] على شدة الأسلوب الذى خرج مخرج التحذير مما يخشى فى ظاهر الحال إثر وقوعه لو تكرر "[٢].

وهذه الآيات تعليم للرسول ـ ﷺ ـ وللأمة من بعده ، يقول صاحب تفسير المنار : " ظاهر الروايات أن النبى ـ ﷺ ـ مال إلى تصديق المسلمين وإدانة اليهودى ، لما كان يغلب على المسلمين فى ذلك العهد من الصدق والأمانة ، وعلى اليهود من الكذب والخيانة ، فعلمه الله ـ تعالى ـ بهذه الآيات وعلمنا أن الاعتقاد الشخصى والميل الفطرى والدينى لا ينبغى أن يظهر لهما أثر ما فى مجلس القضاء"[٣].

ويقول الإمام القرطبى : " فى هذه الآية تشريف للنبى ـ ﷺ ـ ، وتكريم وتعظيم وتفويض إليه وتفويم أيضاً على الجادة فى الحكم

---

[١] الموضع الأول : إشارة إلى نهية أن يكون خصيما عن البراء ، والموضع الثانى : إشارة إلى نهية ـ ﷺ ـ من المجادلة عن الخائنين .

[٢] ايات عتاب المصطفى ـ ﷺ ـ ص ٢٠٤.

[٣] تفسير المنار : ٣٢٤/٥

وتأنيب على ما رفع إليه من أمر بنى أبيرق "[١] .

ونلمح كثير من دقائق التعبير فى هذه الآيات ومن ذلك قولـــه — عز وجل — ﴿ واستغفر الله ﴾ فإن الأمر باستغفار الله — تعالى — جـرى على أسلوب توجيه الخطاب إلى الرسول — ﷺ — فالمراد بالأمر غـيره ، أرشدهم إلى ما هو أنفع لهم وهو استغفار الله مما اقترفوه ، أو أراد : واستغفر الله للخائنين ليلهمهم إلى التوبة ببركة استغفارك لهم ، فذلـــك أجدر من دفاع المدافعين عنهم.

والخطاب فى قوله — تعالى — (ولا تجادل) للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — والمراد نهى الأمة عن ذلك ، لأن مثله لا يـــترقب صدوره من الرسول — عليه الصلاة والسلام — كما دل عليه قولـــه — تعالى — ﴿ ها أنتم جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ﴾[٢] .

ويرى الإمام الطبرى أن النهى فى قوله ﴿ ولاتكن للخائنين خصيماً ﴾ وفى قوله ﴿ ولا تجادل ﴾ للنبى — ﷺ — وهو نهى مما عسى أن يقع منـــه باعتبار ظاهر الأمر وهذا الهم من قبيل ما يهجس فى النفس من غـــير نزوع أو هم بالفعل .

والنهى وإن كان لا يدل على وقوع المنهى عنه إلا أنه لا ينفى أن يكون دار فى النفس منه متضمن النهى شئ فجاء الأمـــر بالاســـتغفار

---

(١) الجامع لأحكام القران : ٣٧٥/٥ .

(٢) من الآية (١٠٩) من سورة النساء ، وينظر التفسير الوسيط : ٣٩٤/٥ ، والتحريـــر والتنوير : ١٩٣/٥ .

ليمحو ذلك الأثر[١] .

ولقد بين النبى — ﷺ — أنه بشر وأنه يحكم بحسب ما يراه من حجة أو دليل فقال : (إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى فأقضى له بنحو ما أسمع منه فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ . فإنما أقطع له قطعة من النار)[٢].

وجاء سبحانه بلفظ (يختانون) بمعنى يخونون ، لقصد وصفهم بالمبالغة فى الخيانة ، لأن مادة الافتعال تدل على التكلف والمحاولة .

وجعلت خيانة هؤلاء لغيرهم خيانة لأنفسهم ،لأن سوء عاقبة هذه الخيانة سيعود عليهم ، ولأن المسلمين جميعاً كالجسد الواحد ، فمن تظاهر بأنه منهم ثم خان أحدهم فكأنما خان نفسه ، وأوردها موارد البوار والتهلكة باعتدائه على حقول الجماعة الإسلامية ، وزعزعة أمنها واستقرارها[٣].

وقال سبحانه ﴿ إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ﴾ بصيغة المبالغة لإفادة أن الخيانة والإثم صاراً وصفاً ملازماً لهؤلاء الخائنين الآثمين ، أى ان صيغة المبالغة هنا ليست للتخصيص ، حتى لا يتوهم متوهم أن الله — تعالى — يحب من عنده أصل الخيانة والإثم .

---

[١] أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الأقضية باب وجوب الحكم

[٢] أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الأقضية باب وجوب الحكم بشاهد ويمين ينظر : شرح صحيح مسلم للنووى : ٥/١٢ ح رقم ١٧١٣ .

[٣] راجع ذلك فى تفسير أبى السعود : ٢٢٩/٢ ، وحاشية الشهاب : ٣٤٦/٣ ، وروح المعانى ١٤٠/٥ ، ١٤١ .

ولقد أشار الزمخشرى إلى هذا المعنى بقوله : " فإن قلت : لم قيل خواناً أثيماً " على المبالغة ؟ قلت : كان الله عالماً من طعمة بالإفراط فى الخيانة وركوب المآثم ، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك فى حاله ، وقيل ، إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات وعن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه أمر بقطع يد سارق ، فجاءت أمه تبكى وتقول : هذه أول سرقة سرقها فأعف عنه فقال لها : كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده أول مرة "[1] .

وجملة (يستخفون من الناس) جاءت مفصولة عما قبلها ولم تعطف بالواو وسر الفصل كمال الاتصال ، حيث أن جملة (يستخفون من الناس) بمثابة عطف البيان لقوله (يختانون) ، ففصل بينهما لما بينهما من ربط داخلى معنوى فلا حاجة إلى مجئ الواو .

وجملة (ولا يستخفون من الناس) ذلك هو محل الاستغراب من حالهم وكونهم يختانون أنفسهم ، والاستخفاف من الله مستعمل مجازاً فى الحياء إذ لا يعتقد أحد يؤمن بالله ـ تعالى ـ أنه يستطيع أن يستخفى من الله .

والمعنى : أن هؤلاء الذين من طبيعتهم الخيانة والوقوع فى الآثام يستترون من الناس عندما يقعون فى المنكرات حياء منهم وخوفاً من ضررهم (ولا يستخفون من الناس) اى ولا يشعرون برقابة الله عليهم ، وإطلاعه على جميع أحوالهم ،بل يرتكبون ما يرتكبون من آثام بدون

---

[1] الكشاف : ٥٦٢/١ ، وينظر : روح المعانى : ١٤١/٥ .

حياء منه مع أنه ـ سبحانه ـ هو الأحق بأن يستحى منه ، ويخشى من عقابه[١] .

وقوله ـ تعالى ـ(وهو معهم) المعية هنا معية العلم والاطلاع ، والمراد بيان شمول علمه ـ سبحانه ـ بكل حركاتهم وسكناتهم ، أى أن هؤلاء الخائنين يرتكبون السوء بدون حياء من الله ـ سبحانه ـ مع أنه ـ تعالى ـ معهم فى كل حركاتهم وسكناتهم بعلمه وإطلاعه على أقوالهم وأعمالهم ن ولا يخفى عليه شئ من أمرهم حين (يبيتون) أى يضمرون ويدبرون ويقدرون فى أذهانهم ما لا يرضاه الله ـ تعالى ـ من القول كان يرتكبوا المنكرات ثم يمسحونها فى غيرهم حتى لا يفتضح أمرهم .

يقول جار الله الزمخشرى : " وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم ، مع علمهم ـ إن كانوا مؤمنين ـ أنهم فى حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح ... فإن قلت : كيف سمى التدبير قولاً وإنما هو معنى فى النفس ؟ قلت : لما حدث بذلك نفسه قولاً على المجاز ويجوز أن يكون المراد بالقول : الحلف الكاذب الذى حلف به طعمة بعد أن بيته وتوريكه الذنب على اليهودى "[٢]

وقوله ـ سبحانه ﴿ وكان بم يعملون محيطاً ﴾ تذييل قصد به التهديد

---

[١] راجع ذلك فى : التحرير والتنوير : ١٩٤/٥ ، والتفسير الوسيط : ٣٩٦/٥ .

[٢] الكشاف : ٥٦٢/١ ، وينظر : مفاتيح الغيب : ٤٣٦/١٠ ، وغرائب القران : ١٠٤٢/٢ ، وروح المعانى : ١٤١/٥ .

والوعيد أى : وكان الله ـ تعالى ـ محيطاً إحاطة تامة بما يعمله هؤلاء الخائنون وغيرهم ، ولا يغيب عن علمه شئ من تصرفاتهم ، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة .

وفصل جملة (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم ...) عما قبلها ، وسر الفصل شبه كمال الاتصال لأن جملة (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم ...) مثيرة لسؤال تصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عنه ففصل بينهما كما يفصل بين السؤال والجواب ، والمخاطب كل ما يصلح للمخاطبة من المسلمين ، والكلام جار مجرى الفرض والتقدير ، أو مجرى التعريض ببعض بنى ظفر الذين جادلوا عن بنى أبيرق .

و(أم) فى قوله (أمن يكون عليم وكيلاً) منقطعة للإضراب الانتقال والاستفهام إنكارى بمعنى النفى فى الموضعين ، أى لا أحد يجادل عنهم أمام الله ـ تعالى ـ ولا أحد يستطيع أن يقوم بتدبير أمورهم يوم القيامة ، والكلام فيه توبيخ[1].

والتعبير بـ (ثم) فى قوله ـ جل وعلا ـ ﴿ ومن يعمل سواء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله ﴾ للإشارة إلى ما بين المعصية والاستغفار الذى تصحبه التوبة الصادقة فيؤدى إلى الفلاح والسعادة .

وعمل السوء هو العصيان ومخالفة ما أمر به الشرع ونهى عنه ، وظلم النفس شاع إطلاقه فى القرآن الكريم على الشرك والكفر ،

---

[1] راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ٤٣٧/١٠ ، وتفسير أبى السعود : ٢٣٠/٢ وروح المعانى : ١٤١/٥ والتحرير والتنوير : ١٩٥/٥ ، والتفسير الوسيط : ٣٩٨/٥ .

واطلعه أيضاً على ارتكاب المعاصي وأحسن ما قيل في تفسير هذه الآية ان عمل السوء أريد به عمل السوء مع الناس ، وهو الاعتداء على حقوقهم ، وأن ظلم النفس هو المعاصي الراجعة إلى مخالفة المرء في أحواله الخاصة ما أمر به أو نهى عنه[١] .

ومعنى قوله ﴿ يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ أي : يتحقق ذلك ، فاستعير فعل (يجد) للتحقيق لأن فعل وجد حقيقته : الظفر بالشئ ومشاهدته ، فأطلق على تحقيق العفو والمغفرة على وجه الاستعارة التبعية في الفعل

ومعنى قوله (غفور رحيماً) شديد الغفران وشديد الرحمة ، وذلك كناية عن العموم والتعجيل ، فيصير المعنى : يجد الله غافراً له راحماً له ، لأنه عام المغفرة والرحمة فلا يخرج منها أحد استغفره وتاب إليه ، ولا يتخلف عنه شمول مغفرته ورحمته زمناً ، فكانت صيغة " غفوراً رحيماً " مع " يجد " دالة على القبول من كل تائب بفضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وذكر الخطيئة والإثم هنا يدل على أنهما متغايران ، فالمراد بالخطيئة المعصية الصغيرة ، والمراد بالإثم الكبيرة .

والرمي حقيقته قذف شئ من اليد ، ويطلق مجازاً على نسبة خبراً أو وصف لصاحبه بالحق أو الباطل ، وأكثر استعماله في نسبة غير الواقع ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾[٢] وهو كذلك

---

[١] راجع ذلك في الكشاف : ٥٦٣/١ ، ومفاتيح الغيب : ٤٣٨/١٠ ، والتحرير والتنوير ١٩٥/٥ ، ١٩٦ .

[٢] من الآية (٤) من سورة النور .

هنا ، ومثله فى ذلك القذف حقيقة ومجازاً ، ومعنى (يرم بـــه بريئـــاً) ينسبه إليه ويحتال لترويج ذلك فكأنه ينزع ذلك الإثم عن نفسه ويرمـــى به البرئ ، والبهتان : الكذب الفاحش وجعل الرمى بالخطيئة وبـــالإثم مرتبة واحدة فى كون ذلك إثماً مبيناً : لأن رمى البرئ بالجريمة فـــى ذاته كبيرة لما فيه من الاعتداء على حق الغير ، ودل على عظم هـــذا البهتان بقوله (احتمل) تمثيلاً لحال فاعله بحال عنـــاء الحـــامل ثقـــلاً ، والمبين الذى يدل كل أحد على أنه إثم ، أى : إثماً ظاهراً لا شبهة فـــى كونه إثماً[١] .

ويقول الإمام الرازى : " وأعمل أن صاحب البهتان مذموم فـــى الدنيا أشد الذم ومعاقب فى الآخرة أشد العقاب ، فقوله (فقـــد احتمـــل بهتاناً) إشارة إلى ما يلحقه من العقاب العظيم فى الآخرة "[٢]

ثم بين ــ سبحانه ــ مظاهر فضله على نبيه ــ ﷺ ــ فقال تعالى: **﴿ ولو لا فضل الله علي ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شئ وأنزل الله إليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلـــم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾** .

وهذا غاية التكريم والتشريف والحفظ والرعاية من الله ــ سبحانه وتعالى ــ لرسوله ــ ﷺ ــ بأن أنعم عليه بكل هذه النعم العظيمة بـــأن

---

(١) راجع ذلك فى : الجامع لأحكام القـــران : ٣٨١/٥ ، وحاشـــية الشـــهاب : ٣٤٧/٣ ، ٣٤٨ ، وروح المعانى : ١٤٢/٥ ، ١٤٣ ، والتفسير الوسيط : ٤٠٠/٥ ، والتحرير والتنوير : ١٩٦/٥ .

(٢) مفاتيح الغيب : ٤٣٩/١٠ .

عصمه من كيد الناس وأذاهم ، وأحاطه علماً بما يبيتونه من سوء ، ووهبه الله ـ تعالى ـ النبوة ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليك عظيماً .

ونلمح من دقائق التعبير فى هذه الآية أن قوله ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ معطوف على قوله ﴿ وما يضرونك من شئ ﴾ لزيادة التقرير ، ولزيادة بيان ما وهبه الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ من خير ورعاية وعصمة ، أى أن الله ـ سبحانه ـ قد امتن عليك يا محمد بأن أنزل عليك القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم ، وأنزل عليك الحكمة ، أى العلم النافع الذى يجعلك تصيب الحق فى قولك وعملك ، وعلمك ما لم تكن تعلم من أخبار الأولين والآخرين ، ومن خفيات الأمور ، ومن أمور الدين والشرائع ، وكان فضل الله عليك عظيماً عظماً لا تحده عبارة ، ولا تحيط به إشارة ، فالآية الكريمة فيما ما فيها من التنويه بشأن الرسول ـ ﷺ ـ ومن مظاهر فضل الله عليه ورحمته به [١] .

وهكذا نرى كيف كان عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ حين هم أن يحكم على اليهودى ، وفى هذا بيان رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإكرامه لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن ينبه إلى كذب من حاولوا أن يضلوه ، وفى هذا تعليم للأمة بأن يتنبهوا ويتقظوا لما يرفع إليهم من مسائل ، وألا يدافعوا عمن تأكدوا من إدانته ولا تحملهم

---

[١] راجع ذلك فى : مفاتيح الغيب : ١٠/٤٤١ ، ٤٤٢ ، وروح المعانى : ٥/١٤٤ ، والتحرير والتنوير : ٥/١٩٧ ، والتفسير الوسيط : ٥/٤٠٣ .

قرابتهم على الدفاع عنه والانتصار به ..

وبذلك يضرب الإسلام أروع الأمثلة فى العدل والإنصاف فى الوقت الذى تسرى فيه التعصب الأعمى للديانات الأخرى ضد الإسلام والعمل على تشويه صورته — خاصة فى وقتنا هذا بما يدور فى المحيط العالمى ، وليت هؤلاء الذين يتعصبون لدينهم وجنسهم ضد الإسلام ، بل يحملهم التعصب الأعمى إلى إدانة واضطهاد البرء من غير جنسهم بغير حق لأنهم مسلمون .

ليتهم يفهمون ويتدبرون ما جاء به الإسلام من حث على العدل والإنصاف حتى مع الأعداء قال تعالى :﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [١] ، وقال جل شأنه — ﴿ يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٢]

وبما أن رسول الله — ﷺ — مبلغ عن الله — عز وجل — فقد كان أول المنفذين المطبقين لتلك التعليم وتلك القيم والمبادئ الرشيدة التى يقع علها صلاح الأمة والمجتمع والحياة .

ثم إن الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين — كانوا مقتدين برسول الله — ﷺ — وفى تاريخهم وسيرتهم الكثير والكثير الذى يبين

---

[١] الآية (٩٠) من سورة النحل .

[٢] الآية (٨) من سورة المائدة .

أنهم عاملوا غير المسلمين بالعدل والإنصاف ، وضربوا أروع الأمثلة في العدل والمساواة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة التي اشتملت على أسلوب العتاب ، تهدى الناس إلى الحق الذى لا يميل مع الهوى ، ولا مع المعصية ، ولا يتأرجح مع الحب أو البغض حتى ولو كان الذى عليه الحق ممن يظهرون الإسلام ويعاملون معاملة المسلمين ، وكان الذى له الحق من اليهود الذين لم يتركوا مسلكاً لمعارضة الدعوة الإسلامية ومحاربتها إلا سلكوه ، والذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك أنكروه وحاربوه .

فهل رأيت — أخى القارئ — عدالة تقترب من هذه العدالة فى سموها ونقائها واستقامة منهجها ؟

إن هذه الآيات لتشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، لأن البشر مهما استقامت طبائعهم ، فإنهم ليس فى استطاعتهم أن يصلوا إلى هذا المستوى الرفيع الذى تشير إليه الآيات ، تلك هى عظمة القرآن وإعجازه ، والذى يكشف لكل عاقل أن هذا القرآن من عند الله — سبحانه وتعالى — ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾[1]

---

[1] من الآية (٨٢) من سورة النساء .

الموقف السابع

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الضعفاء من المؤمنين

الموضع الأول : عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ حين هم بطرد الضعفاء استجابة لطلب الكبراء

الموضع الثاني : الموضع الأول : عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ أن يحبس نفسه مع الضعفاء والفقراء ولا يتطلع إلى الكبراء

عتابه الله ـ تعالى ـ للنبى ـ ﷺ ـ فى أمر الضعفاء من المؤمنين

أمر الله ـ تعالى ـ النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بتبليغ الرسالة إلى الناس جميعاً فقال ـ سبحانه ـ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ [١]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ [٢] فبلغ الرسول ـ ﷺ ـ الرسالة إلى الناس، وسلك فى تبليغ رسالته كل مسلك، ولقد كان الناس أمام مهمة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فريقين:

فريق مؤمن مصدق بما جاء به ـ ﷺ ـ حريص على تلقى العلم منه، وحفظ القرآن الكريم، وكان أكثر هؤلاء فى بداية أمر الدعوة من الفقراء والضعفاء.

وفريق مكذب معاند، فكان هؤلاء المكذبون برسالته ـ ﷺ ـ كثيراً ما يطلبون أموراً تدل على كفرهم وعنادهم وبعدهم عن الإيمان، فكان من ضمن ما طلبوه من الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يطرد الضعفاء والفقراء عن مجلسه وأن يعين لهم مجلساً خاصاً بهم.

ولما كان النبى ـ ﷺ ـ بما جبل عليه من الرأفة والرحمة حريصاً على إسلامهم، لأنه بإسلامهم سيدخل ناس كثيرون فى الإسلام، هم النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يوافقهم على ذلك فعاتبه الله ـ عز وجل ـ على ذلك مبيناً له أن هؤلاء الضعفاء والفقراء لهم خير

---

[١] من الآية (٦٧) من سورة المائدة.

[٢] الآية (٩٤) من سورة الحجر.

عند الله ـ تعالى ـ من هؤلاء الأغنياء الكفرة. ولم يقف الأمر عند حد نهى الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن طردهم، بل أمره تعالى أن يزيد من حفاوته لهم وأن يحبس نفسه معهم حتى يشبعوا رغباتهم من حديثه والأخذ عن منهجه فى التربية والسلوك. وقد أكد الله ـ تعالى ـ ذلك بنهيه ـ ﷺ ـ أن تتجاوز عيناه النظر عن أولئك الصفوة من المؤمنين طلبا لإسلام الكبراء من العظماء والأعيان والأغنياء من أئمة الكفر ورؤوس الضلال وطمعا فى إيمانهم.

ولقد رأينا فى موقف العتاب الأول[1]، كيف عاتب المولى ـ عز وجل ـ نبيه محمدا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عتابا شديدا حين عبس فى وجه واحد من الضعفاء وهو عبد الله ابن أم مكتوم الذى جاء ليتعلم أمر دينه، ويأخذ من النبى ـ ﷺ ـ العلم النافع، والرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مشغول بالدعوة مع بعض المستغنيين، فنزل القرآن الكريم يعاتب الرسول ـ ﷺ ـ عتابا شديدا، ويقرر حقيقة القيم فى حياة الجماعة المسلمة فى أسلوب قوى حاسم.

هذا وقد جاء عتاب الله ـ تعالى ـ للنبى ـ ﷺ ـ فى شأن الضعفاء من المؤمنين فى موضعين آخرين بالإضافة إلى ما سبق من موقف عتابه ـ ﷺ ـ حينما أعرض عن عبد الله ابن أم مكتوم.

الموضع الأول: حين هم النبى ـ ﷺ ـ بطرد هؤلاء الضعفاء استجابة لطلب الكبراء والأعيان، فقال المولى ـ عز وجل ـ: ﴿ولا تطرد

---

[1] ينظر ص من هذا الكتاب.

الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ [١].

الموضع الثانى: حين أمر الله ـ سبحانه ـ نبيه ـ ﷺ ـ أن يحبس نفسه مع الضعفاء والفقراء ، ولا يتطلع إلى الكبراء فقال ـ تعالى ـ : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا* وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ [٢].

وفى الصفحات القادمة نتعرض بالدراسة والتحليل لبيان الخصائص البلاغية للنظم القرآنى فى هاتين الموضعين، ونرى مدى تكريم الله ـ تعالى ـ لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين الذى أخلصوا النية لله تعالى، واستجابوا لدعوته فأعزهم الله بالإسلام وأغناهم ورفع من مكانتهم لدرجة أنه عاتب نبيه ـ ﷺ ـ فيهم، وأمره أن يحبس نفسه معهم ولا يتطلع إلى هؤلاء الكبراء المعاندين الذى لم يرد الله ـ سبحانه وتعالى ـ هدايتهم إلى الطريق المستقيم.

الموضع الأول: عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ حين هم

---

[١] الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

[٢] الآيتان (٢٨، ٢٩) من سورة الكهف.

بطرد الضعفاء استجابة لطلب الكبراء.

قال تعالى: ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ (١).

لقد كان من جملة الأمور التى انتقدها المشركون على دعوة محمد — ﷺ — أن أتباعه هم الفقراء والضعفاء، أما الأشراف والزعماء فلم يدخلوا فى دينه، واتخذوا ذلك ذريعة لتهوين دين محمد — صلوات الله وسلامه عليه — والتقليل من شأنه، بل طلبوا منه أن يطرد هؤلاء الفقراء من مجلسه، لأنهم يأنفون أن يجالسوا أمثال المساكين.

فقد روى ابن مسعود — رضى الله عنه — أن رؤساء قريش مروا على رسول الله — ﷺ — وعنده "صهيب"، وبلال، وعمار" وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد! أرضيت بهؤلاء عن قومك؟ أفنحن نكون تبعا لهم؟ أهؤلاء هم الذين من الله عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم اتبعناك، فإننا نأنف أن نجالس أمثال هؤلاء الصعاليك، فأنزل الله — عز وجل — الآية ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم ... ﴾ (٢).

هذا هو منطق المشركين فى كل زمان ومكان، يعتبرون الجاه بالغنى والثراء، يعدون الفخر بالمراتب والمناصب الرفيعة، فهؤلاء

---

(١) الآية (٥٢٣) من سورة الأنعام.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٥٦/٦، وأسباب النزول للواحدى ص ١٦٢٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٣٤/٢، وأسباب النزول للسيوطى ص ١٢٨.

السفهاء الذين اغتروا بما منحهم الله من المال والجاه والثراء واعتبروا ذلك ميزة لهم خصهم الله لشرفهم ومكانتهم عند الله فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ [1] وهذه الآية رد على قول المشركين: أهؤلاء الضعفاء من الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا؟ فبين الله ـ تعالى ـ أن أمر الهداية ليس بالجاه والسلطان، ولا بالغنى والثراء، بل هو بالشكر والثناء، فمن شكر الله على نعمته وفقه وهداه، ومن كفر النعمة خذله وأشقاه، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ [2].

ومعنى الآية: لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله، فاتجهوا لعبادته ودعائه فى الصباح والمساء، يريدون وجهه ـ سبحانه ـ ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه، وهى صورة للتجرد، والحب، والأدب، فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء، وهو لا يبغى وجه الله إلا إذا تجرد، وهو لا يبغى وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب، وهو لا يفرد الله ـ سبحانه ـ بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب، وصار ربانيا يعيش لله وبالله.

فإن حسابهم على أنفسهم، وحسابك على نفسك، وكونهم فقراء مقدر عليهم فى الرزق هذا حسابهم عند الله لا شأن لك به، كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند الله لا شأن لهم به، ولا دخل لهذه القيم فى

---

(١) الآية (٥٣) من سورة الأنعام وهى التى تلى اية العتاب التى معنا مباشرة.

(٢) قبس من نور القرآن الكريم للشيخ الصابونى: ١٣٨/٢، ١٣٩.

قضية الإيمان والمنزلة فيه، فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان الله، ولا تقوم بقيمه، فكنت من الظالمين، وحاشا لرسول الله ـ ﷺ ـ أن يكون من الظالمين.

وهكذا بقى فقراء الجيوب أغنياء القلوب فى مجلس رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وبقى ضعاف الجاه الأقوياء بالله فى مكانهم الذى يؤهلهم له إيمانهم، والذى يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه، واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذى قرره الله ـ سبحانه وتعالى ـ [1]

فالآية عتاب من الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ على ما حدث به نفسه، وفى ذلك يقول الإمام القرطبى عند تفسيره لأول سورة "عبس": "نظير هذه الآية فى العتاب قوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾ [2] وكذلك قوله فى سورة الكهف: ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ [3].

والذى يدل على أن هذه الآية عتاب للنبى ـ ﷺ ـ أمران ذكرهما الدكتور عويد المطرفى فى كتابه "آيات عتاب المصطفى ـ ﷺ ـ فى ضوء العصمة والاجتهاد" هما:

الأول: تسليط النهى عن الطرد، والطرد إبعاد مشعر بالنفرة.

---

[1] راجع ذلك فى ظلال القران: ٢/١١٠٠.

[2] الآية (٥٢) من سورة الأنعام، وهى الآية التى نحن بصدد بيان أسلوب العتاب فيها.

[3] الآية (٢٨) من سورة الكهف، وينظر: الجامع لأحكام القران: ١٩/٢١٤.

والثانى: توجيه الخطاب فى جواب النهى فى قوله ـ تعالى ﴿فتكون من الظالمين﴾ مباشرة إلى النبى ـ ﷺ ـ بالكون من الظالمين إن وقع منه ذلك ـ وحاشاه أن يقع منه ﷺ ـ وفيه شدة تتناسب مع صدر الآية فى توجيه النهى إلى الطرد، فكانت الآية بصدرها وفاصلتها مشعرة بالشدة التى تحمل العتاب"[1].

وأورد الشيخ عبد الكريم الخطيب فى كتابه "التفسير القرآنى للقرآن" رأيا سديدا فى أسلوب العتاب فى هذه الآية حيث قال: "هنا سؤال: هل طرد النبى من يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه؟ أو هل هم بطردهم؟ وإلا فما معنى هذا النهى من الله ـ تعالى ـ للنبى الكريم؟

والجواب: أن النبى ـ ﷺ ـ لم يكن منه طرد لجماعة مؤمنة تدعوا ربها بالغداة والعشى، بل ولم يكن منه هم بهذا الأمر ... وكيف يساغ هذا؟ ورسالته ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائمة على دعوة الناس أن يدعوا ربهم بالغداة والعشى؟ فكيف يدعو إلى أمر ثم يقف هذا الموقف ممن يأتون هذا الأمر؟

وإذن فما معنى هذا النهى الموجه من الله ـ سبحانه ـ إلى النبى الكريم؟ الواقع أن هذا النهى، وإن كان فى ظاهره موجها إلى النبى ـ ﷺ ـ هو رد على المشركين من زعماء قريش،ـ الذين كانوا يأخذون على النبى أنه لا يألف إلا هؤلاء الفقراء المستضعفين، ولا يألفه إلا

---

[1] ايات عتاب المصطفى ـ ﷺ ـ فى ضوء العصمة والاجتهاد ص ٢١٤.

هؤلاء ... وأن مجلسا يضم مثل تلك الجماعة فى فقرهـــا، وضعفـــها، ليأنف زعماء قريش أن يكون لهم مكان فيه.

ولهذا جاء النهى إلى النبى الكريم، ليقـــرع أســـماع المشـــركين، وليريهم أن محمدا لن يتخلى أبدا عن هؤلاء الفقراء ... إذن فهذا النـــهى هو كبت لقريش، ولزعمائها خاصة، واستخفاف بهم، وأنهم أقل شـــأنا، وأخف ميزانا عند الله الذى يدعوهم محمد إليه، وأن حساب الناس فـــى هذا الدين الذى يدعو إليـــه، ليـــس بجاهـــهم وســـلطانهم، وأنســـابهم، وأحسابهم، وإنما هو مائدة ممدودة من الله لعباد الله، فمن أخـــذ مكانـــه منها،ـــ لم يكن لأحد أن يزحزحه عنه، إنه فى ساحة الله، وعلى مـــائدة الله، وعلى ما تطول يد الإنسان من هذه المائدة يكون حظه من الخـــير ومكانه من الله[1] .

ونلمح من دقائق التعبير فى الآية قوله ﴿يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾ أى: يعلنون إيمانهم بالله بالقول والاعتقاد، وقيـــل:ا لمـــراد بالدعـــاء، المحافظة على الصلاة وقال (بالغداة والعشى) لقصد استيعاب الزمـــان والأيام، كما يقصد بالمشرق والمغرب استيعاب الأمكنة، كمـــا يقـــال: الحمد لله بكرة وأصيلا، فالمراد أنهم يعبدون الله ـــ تعالى ـــ اليوم كله.

وقال القرطبى: خص الغداة والعشى بالذكر لأن الشـــغل غـــالب فيهما على الناس ومن كان فى وقت الشغل مقبلا على العبادة كان فـــى

---

[1] راجع ذلك فى : التفسير القرانى للقران: ١٩١/٧، ١٩٢.

وقت الفراغ من الشغل أعمل[١] .

وقوله (يريدون وجهه) أى: يدعون مخلصين يريدون وجه الله ـ تعالى ـ أى: لا يريدون حظا دنيويا، والوجه حقيقة الجزء من الرأس الذى فيه العينان والأنف والفم، ويطلق الوجه على الذات كلها مجازا مرسلا بعلاقة الجزئية، لأنه من أشراف الأجزاء وأهمها.

وقيل: الوجه هنا مستعار للذات على اعتبار مضاف، أى يريدون رضى الله، أى: لا يريدون إرضاء غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿**إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا**﴾[٢] وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾[٣]، فقوله (يريدون وجه الله) ثناء عليهم بكمال إيمانهم، وشهادة لهم بأنهم مجردون عن الغايات الدنيوية كلها.

وقيل إن الوجه كناية عن المحبة وطلب الرضا، لأن من أحب ذاتا أحب أن يرى وجهه، فرؤية الوجه من لوازم المحبة، ويمكن أن يكون ذكر الوجه للتعظيم كما يقال، هذا وجه الرأى وهذا وجه الدليل[٤] .

وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿**ما عليك من حسابهم من شئ**﴾ تعليل للنهى عن طردهم أو إبطال لعلة الهم بطردهم، أو لعلة طلب طردهم، فإن إبطال علة فعل المنهى عنه يؤول إلى كونه تعليلا للنهى، ولذلك جاءت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤٣٢/٦.

(٢) الآية (٩) من سورة الإنسان.

(٣) الآية (١١٥) من سورة البقرة.

(٤) راجع ذلك فى: المحرر الوجيز: ٥٧/٦، وروح المعانى: ١٦٠/٧، والتحرير والتنوير: ٢٤٧/٧.

هذه الجملة مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال، ففصل بينهما كما يفصل بين السؤال والجواب.

والحساب يطلق على إعمال النظر فى تمييز بعض الأحوال عن بعض إذا اشتبهت على طريق الاستعارة بتشبيه تتبع الأحوال بعد الأفراد، ومنه جاء معنى الحسبة، فالحساب هو تتبع الأعمال والأحوال والنظر فيما تقابل به من جزاء.

والمعنى: ما عليك من حساب المشركين على الإيمان بك أو عدم الإيمان شئ، فإن ذلك موكول إلى فلا تظلم المؤمنين بحرمانهم حقا لأجل تحصيل إيمان المشركين فيكون من باب قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾ [1].

وتقديم المسندين على المسند إليهما فى قوله تعالى : ﴿**ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليه من شئ**﴾ يمكن أن يكون لمجرد الاهتمام ويمكن أن يكون للاختصاص، وحيث تأتى معنى الاختصاص هنا فاعتباره أليق بأبلغ كلام، وهذا ما ذهب إليه الإمام الزمخشرى.

وعلى ذلك فمعنى الكلام قصر نفى حسابهم على النبى — ﷺ — ليفيد أن حسابهم على غيره وهو الله تعالى ، وذلك مفاد القصر الحاصل بالتقديم إذا وقع فى سياق النفى، وهو مفاد خفى على كثير لقلة وقوع القصر بواسطة التقديم فى سياق النفى، ومثاله المشهور قوله تعالى: ﴿**لا**

---

[1] الآية (١٣٥) من سورة النساء، وينظر : التحرير والتنوير : ٢٤٨/٧.

فيها غول﴾ [١]، فإنهم فسروه بأن عدم الغول مقصور على الاتصاف بفى خمور الجنة فالقصر قصر القلب.

ومن يدقق النظر فى هذا الجزء من الآية يجد أنه قد اجتمع فى هذا الكلام خمسة مؤكدات، وهى (من) البيانية، و (من) الزائدة، وتقديم المعمول، وصيغة الحصر فى قوله ﴿ ما عليك من حسابهم من شئ ﴾، والتأكيد بالتتميم [٢] بنفى المقابل فى قوله (وما من حسابك عليهم من شئ)، فإنه شبيه بالتوكيد اللفظى، وكل ذلك للتنصيص على منتهى التبرئة من محاولة إجابتهم لاقتراحهم وإنما جعل طردهم ظلما لأنه لما انتفى تكليفه بأن يحاسبهم صار طردهم لأجل إرضاء غيرهم ظلما لهم، وفيه تعريض بالذين سألوا طردهم لإرضاء كبريائهم بأنهم ظالمون مفرطون على الظلم[٣] .

وهكذا جاء أسلوب العتاب فى هذه الآية ليبين لنا أن هذا هو النبى الكريم ـ ﷺ ـ حامل رسالة السماء، ومبعوث رب العالمين، هو والناس عند الله ـ تعالى ـ فى ميزان العمل على سواء، كل مجزى بعمله، من إحسان أو إساءة.

---

[١] من الآية (٤٧) من سورة الصافات.

[٢] التتميم لون من ألوان الإطناب فى الكلام وهو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة، ينظر: الإيضاح: ٣١٣/٢، وتحرير التحبير: ١٢٧/١، وعلم المعانى فى لغة القران والأدب أ.د/ عبد الفتاح محمد سلامة: ٣١٣/٢، وعلم المعانى دارسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى أ.د/ بسيونى عبد الفتاح فيود: ٢٦٩/٢.

[٣] راجع ذلك فى: البحر المحيط: ١٣٨/٤، وحاشية الشهاب: ١٠٥/٤، ١٠٦.

فهؤلاء الفقراء المستضعفون الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى، يرجون رحمته، ويخشون عذابه، إنما يعملون لأنفسهم، كل يطلب لها السلامة والنجاة، فكيف يطردهم النبى — كما تتوهم قريش — من هذا الميدان الذى اختاروا العمل فيه، طالبين النجاة من عذاب الله والفوز برضوانه؟

إن النبى — ﷺ — لا يحمل عنهم ما يكون منهم من تقصير فى جانب الله، فكيف يطردهم؟ أيحمل عنهم وزرهم يوم القيامة؟ إنهم محاسبون على أعمالهم، وإنهم لمجزيون عنها، إذن دع هؤلاء يعملون لأنفسهم، وأنه لمن الظلم أن يرفع أحد يدهم عن العمل الذى يريدون به وجه الله وحسن المآب إليه.

ولا شك أن المشركين من زعماء قريش إذ يرون هذا الحساب الذى بين النبى — صاحب الرسالة — وبين أضعف الناس شأنا، وأنزلهم منزلة فى نظرهم — إنهم إذ يرون هذا الحساب، يجدون أنه قائم على العدل والإحسان، وإن الناس عند الله — حتى الأنبياء — بأعمالهم، وليس بمالهم أو رياساتهم، إنهم ليرون ذلك لو عقلوا، وقد عقل كثير منهم، وأسرع إلى الإسلام، يأخذ لنفسه مكانا مع السابقين الأولين إليه[1].

وهكذا يضرب لنا ديننا الحنيف، ورسولنا محمد — ﷺ — أروع الأمثلة فى العدل والمساواة بين الخلق جميعا، وأن العبرة فى التفوق والتفضيل بالتقوى والعمل الصالح والقرب من الله — تعالى — ويقرر

---

[1] ينظر: التفسير القرانى للقران: ١٩٣/٧، ١٩٤.

المبدأ العام ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [١].

الموضع الثانى: حين أمر الله ـ سبحانه ـ نبيه ـ ﷺ ـ أن يحبس نفسه مع الضعفاء والفقراء ولا يتطلع إلى الكبراء.

يقول المولى ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا* وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾[٢].

هذا الموضع من العتاب مكمل ومتمم للموضع السابق الذى ورد فى سورة الأنعام فى نهيه ـ ﷺ ـ عن طرد الضعفاء، فالقضية واحدة والموقف واحد يتعلق بطلب الكفار إبعاد الفقراء من المؤمنين عن مجلس النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فالآية السابقة (آية الأنعام) كانت بدءا للقصة بالنهى عن طرد الصفوة الضعفاء وإبعادهم عن مجلسه ـ ﷺ ـ وهذه الآيات (آيات الكهف) كانت ختاما للقصة بازدياد حفاوة الله ـ تعالى ـ وحفاوة رسوله ـ ﷺ ـ بالصفوة الضعفاء من المؤمنين، وأمر للرسول ـ ﷺ ـ أن يحبس نفسه معهم ولا تتطلع عيناه

---

[١] الآية (١٣) من سورة الحجرات.

[٢] سورة الكهف، الآيتان (٢٨، ٢٩).

إلى هؤلاء الكبراء والأشراف[١] .

وهذا الموقف من العتاب يمثل درسا عظيما كله تقرير للقيم فى ميزان العقيدة، إن القيم الحقيقية ليست هى المال، وليست هى الجاه، وليست هى السلطان، كذلك ليست هى اللذائذ والمتاع فى هذه الحياة، إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة، والإسلام لا يحرم الطيب منها، ولكنه لا يجعل منها غاية لحياة الإنسان، فمن شاء أن يتمتع بها فليتمتع، ولكن ليذكر الله الذى أنعم بها، وليشكره على النعمة بالعمل الصالح، فالباقيات الصالحات خير وأبقى.

ويروى أنها نزلت فى أشراف قريش، حين طلبوا إلى الرسول ﷺ — أن يطرد فقراء المؤمنين من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب وابن مسعود، إذا كان يطمع فى إيمان رؤوس قريش، أو أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس هؤلاء النفر، لأن عليهم جبابا تفوح منها رائحة العرق، فتؤذى السادة من كبراء قريش.

ويروى أن الرسول — ﷺ — طمع فى إيمانهم فحدثته نفسه فيما طلبوا إليه، فأنزل الله — عز وجل — ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ...**﴾ [٢].

أنزل الله — سبحانه — هذه الآيات تعلن عن القيم الحقيقية، وتقيم

---

[١] ينظر: العتاب فى القرآن الكريم أساليبه ومقاصده ص ٢٩٥.

[٢] راجع ذلك فى: مفاتيح الغيب: ١٩/٢٩٤، وأسباب النزول للواحدى ص ٢٢٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/٨٠، ٨١، وأسباب النزول للسيوطى ص١١٩، وروح المعانى: ١٥/٢٦٣.

الميزان الذى لا يخطئ، وبعد ذلك ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ فالإسلام لا يتملق أحدا، ولا يزن الناس بموازين الجاهلية الأولى، ولا أية جاهلية تقيم ميزانا غير ميزانه.

فهذه الآيات فيها عتاب رقيق لطيف للحبيب المصطفى ـ ﷺ ـ ويمكن أن نتلمس وجه العتاب فى هذه الآيات الكريمة فيما يلى:

أولا: فى أمر الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بحبس نفسه مع الصفوة من المؤمنين الذين بادروا بقبول دعوته ـ ﷺ ـ .

ثانيا: ما فى قوله ـ عز وجل ـ _ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) من المبالغة التى تفيد فى ظاهرها إلزام رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يغض بصره عن كل من عداهم كما يشعر به منطوق النهى ومتعلقه، وما فى قوله ـ تعالى ـ (تريد زينة الحياة الدنيا) من إفادته بظاهره أن مجاورة رسول الله ـ ﷺ ـ للصفوة الفقراء من المؤمنين إلى غيرهم إرادة لزينة الحياة الدنيا.

ثم نرى فى النظم القرآنى الكريم أنه عقب بعد ذلك بما هو كالمقابل بطرد الصفوة عن مجلسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وعدم حبس نفسه عليهم بما هو سمة الكفار الذين طلبوا من رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك فنهاه الله ـ عز وجل ـ عن طاعتهم ووصفهم بغفلة قلوبهم عن ذكر الله تعالى واتباعهم للهوى، والشهوات حتى كان أمرهم صائرا إلى البوار والهلاك، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه

عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ [١].

وقوله ـ جل وعلا ـ ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ... ﴾ هذا أمر للنبى ـ ﷺ ـ أن يحبس نفسه ويقصرها على مجالسة الفقراء وتعليمهم، ذلك لأنهم مخلصون لله فى إيمانهم وعبادتهم،ـ فلا تمل ولا تستعجل، فهؤلاء الفقراء الله غايتهم، يتجهون إليه دائما، لا يتحولون عنه، ولا يبتغون إلا رضاه، وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاب الحياة.

اصبر نفسك مع هؤلاء صاحبهم وجالسهم وعلمهم، ففيهم الخير، وعلى مثلهم تقوم الدعوات، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع، ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع، وليتجروا بها فى سوق الدعوات تشترى منهم وتباع إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التى تتجه إلى الله خالصة له، لا تبغى جاها ولا متاعا ولا انتفاعا، إنما تبتغى وجهه وترجو رضاه[٢] .

ونلمح من دقائق التعبير فى قوله (الذين يدعون ربهم ...) حيث عبر عنهم باسم الموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أى لأنهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله ـ تعالىـ فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة.

وقوله تعالى (ولا تعد عيناك عنهم) المقصود منه النهى لرسول

---

[١] ينظر: آيات عتاب المصطفى ـ ﷺ ـ ص ٢٢١.

[٢] راجع ذلك فى ظلال القرآن: ٤/٢٢٦٨.

الله ـ ﷻ ـ أن يذدرى فقراء المؤمنين . وأن تتطلع عيناه إلى الكبراء والصناديد الكفار، وهذا تعليم لأمته من بعده أن يكون مقياس الناس عندهم الإيمان والتقوى، وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ مقياس الأفضلية والأكرمية فى قوله ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[١] وقال النبى ـ ﷺ ـ (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[٢]، وقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ (رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره)[٣].

والتعبير بالعينين عن صاحبهما نهى للنبى ـ ﷺ ـ أن يصرف بصره عنهم، يقول أبو حيان: " وإنما جئ بقوله (عيناك) والمقصود هو لأنهما بهما تكون المراعاة للشخص والتلفت له"[٤] ويقول الشيخ الطاهر ابن عاشور: "ومعنى نهى العينين نهى صاحبهما، فيؤول إلى معنى: ولا تعدى عينيك عنهم، وهو إيجاز بديع"[٥] والمعنى: لا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التى يستمتع بها أصحاب الزينة، فهذه زينة الحياة الدنيا لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالى الذى يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه.

وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همهم

---

[١] من الآية (١٣) من سورة الحجرات.

[٢] رواه الإمام مسلم فى كتاب البر، ينظر: شرح صحيح مسلم للنووى: ١٢١/١٦.

[٣] رواه الإمام مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ١٧ينظر: شرح صحيح مسلم للنووى/١٨٧.

[٤] البحر المحيط: ١١٩/٦، وينظر: روح المعانى: ٢٦٣/١٥.

[٥] التحرير والتنوير: ٣٠٥/١٥.

وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة وجعلوا همهم الصور الظاهرة.

وقوله ــ جل وعلا ــ: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ أى لا تطعهم فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء، فلو ذكروا الله لشفوا من كبريائهم، وخففوا من غلوائهم، وخفضوا من تلك الهامات المتشامخة واستشعروا جلال الله الذى تتساوى فى ظله الرؤوس، وأحسوا رابطة العقيدة التى يصبح بها الناس إخوة، ولكنهم إنما يتبعون أهواءهم، أهواء الجاهلية، ويحكمون مقاييسها فى العباد، فهم وأقوالهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله تعالى.

والمقصود من قوله (أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته، وإلى ماله، وإلى أبنائه، وإلى متاعه، ولذائذه وشهواته، فلم يعد فى قلبه متسع إلى الله، والقلب الذى يشتغل بهذه الشواغل، ويجعلها غاية حياته لا جرم يغفل عن ذكر الله، فيزيده الله غفلة، ويملى له فيما هو فيه، حتى تفلت الأيام من بين يديه، ويلقى ما أعده الله لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم، ويظلمون غيرهم[1].

وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة وهى الذهول عن تذكر الشىء، والمراد بها هنا غفلة خاصة وهى الغفلة المستمرة المستفادة من جعل

---

[1] راجع ذلك فى ظلال القرآن: ٢٦٨/٤، ٢٦٩، والتحرير والتنوير: ٢٠٥/١٥، ٢٠٦.

الإغفال من الله تعالى كناية عن كونه فى خلقه تلك القلوب وما بالطبع لا يتخلف.

والأمر فى قوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ للتسوية المكنى بها عن الوعد والوعيد.

وجملة (إنا أعتدنا للظالمين نارا...) مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما دل عليه الكلام من إيكال الإيمان والكفر إلى أنفسهم وما يفيده من الوعيد كلاهما يثير فى النفوس أن يقول قائل: فماذا يلاقى من شاء فاستمر على الكفر، فيجاب بأن الكفر وخيم العاقبة عليهم.

والمراد بالظالمين: المشركون، قال تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ووصفهم بذلك ليسجل عليهم وصف الظلم، والتنوين فى (نارا) للتهويل والتعظيم.

نلمح كذلك فى الآية جمال الطباق بين (الغداة والعشى) وبين (فليؤمن ... فليكفر) وروعة المقابلة بين الجنة (نعم الثواب وحسنت مرتفعا) وبين النار (بئس الشراب وساءت مرتفقا) وجمال التشبيه (بماء كالمهل يشوى الوجوه) وهو تشبيه مرسل مفصل[١] .

وقوله جل وعلا ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بها سرادقها﴾ جاءت هذه الجملة لتبين مدى العذاب وكيفيته لمن يكفر بالله، أى أعددنا لهم نارا تشملهم جميعا، فهذا التعبير (أحاط بها سرادقها) أى سورها وهو كناية عن إحاطة النار بهم وشمولها لهم من كل جهة.

---

[١] راجع ذلك فى : روح المعانى: ٢٦٦/١٥، وصفوة التفاسير : ١٢٨/٢.

ويمكن أن يجعل السرادق هنا تخييل لاستعارة مكنية[١] بتشبيه النار بالدار ثم أثبت لها سرادق مبالغة فى إحاطة دار العذاب بهم، وشأن السرادق يكون فى بيوت أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية.

والإغاثة مستعار للزيادة مما استغيث من أجله على سبيل التهكم، وهو من تأكيد الشئ بما يشبه ضده.

والمهل له معان كثيرة أشبهها هنا أنه دردى الزيت، فإنه يزيدها التهابا قال تعالى ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ [٢]، والتشبيه فى سواد اللون وشدة الحرارة فلا يزيدهم إلا حرارة، ولذلك عقب بقوله (يشوى الوجوه)، لأن الوجه أكثر الأعضاء تألما من حر النار.

وقوله تعالى (وساءت مرتفقا) شأن المرتفق أن يكون مكان استراحة، فإطلاق ذلك على النار تهكم، كما أطلق على ما يزاد به عذابهم لفظ الإغاثة، وكما أطلق على مكانهم السرادق[٣] .

إن من يتأمل هذه الآيات يلمح أن فيها مقارنة بين حال الكافرين المعرضين وحال الفقراء المؤمنين، فحال الكافرين أنهم مقصرون فى

---

[١] راجع تعريف البلاغيين للاستعارة المكنية التخيلية فى : مفتاح العلوم ص ٣٧٨، ٣٨٩، والإيضاح/: ١٤٤/٢، والمطول ص ٣٨١،

[٢] الآية(٤٥) من سورة الدخان.

[٣] راجع ذلك فى: مفاتيح الغيب: ٣٠٣/١٩، ٣٠٤، وتفسير أبى السعود: ٢٢٠/٥، وحاشية الشهاب: ١٦٩/٦، ١٧٠، وروح المعانى: ٢٦٨/١٥، ٢٦٩، والتحرير والتنوير: ٣٠٨/١٥، ٣٠٩.

مهماتهم معرضون ومفرطون عما يجب عليهم من التدبر والتفكر في آيات الله ومخلوقاته.

وحال الفقراء المؤمنين المواظبين على ذكر الله، فهم يدعون ويتجهون إلى الله ـ عز وجل ـ في كل وقت، هم متجهون إلى الله ـ سبحانه ـ بالذكر والطاعة والعبادة، فهؤلاء الفقراء هم أحرى وأولى بأن تجلس معهم وأن تحبس نفسك معهم فلا تتطلع عيناك إلى غيرهم من الأشراف، لأن هؤلاء الفقراء أحب إلى الله ـ تعالى ـ وأقرب من هؤلاء المكابرين المعاندين الذين لم يشأ الله ـ تعالى ـ هدايتهم.

لقد جاء الإسلام ليسوى بين الرؤوس أمام الله ـ تعالى ـ فلا تفاضل بينهما بمال ولا نسب ولا جاه، فهذه قيم زائفة، وقيم زائلة، إنما التفاضل بمكانها عند الله سبحانه، ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له، وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان.

وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، بهذه العزة، وبهذه الصراحة، وبهذه الصرامة، فالحق لا ينثنى ولا ينحنى، إنما يسير في طريقه قيما لا عوج فيه، قويا لا ضعف فيه، صريحا لا مداورة فيه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ومن لم يعجبه الحق فليذهب، ومن لم يجعل هواه تبعا لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة، ومن لم يحن هامته ويطامن من كبريائه أما جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه.

إن العقيدة ليست ملكا لأحد حتى يجامل فيها، إنما هي ملك لله، والله غنى عن العالمين، والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها

لذاتها خالصه، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير، والذى يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشر يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين، فهذا الدرس كله تقدير للقيم في ميزان العقيدة الإسلامية[١] .

فالحمد لله ــ تعالى ــ على نعمة الإيمان والإسلام، ونسأل الله ــ تعالى ــ أن يجعلنا من عباده الفقراء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه.

---

[١] راجع ذلك في ظلال القرآن: ٤/٢٢٦٨، ٢٢٦٩، والعتاب في القرآن الكريم أساليبه ومقاصده ص ٢٩٩.

الموقف الثامن

عتاب الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - في أمر الاستثناء

عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ـ ﷺ ـ فى أمر الاستثناء

لقد اختص الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده بعلم المغيبات وجعل أمر المستقبل مستورا بالنسبة للإنسان ، ولا يعلم الإنسان ماذا يصنع الله ـ تعالى ـ فيه ، وربما يدبر الإنسان أمرا ثم يحدث ما يمنع هذا الأمر.

لذا أرشد الله ـ سبحانه ـ المؤمنين أن لا يقولوا قولا ، وأن لا يفعلوا فعلا ألا يكون مقرونا بمشيئته وإرادته ن وقد جاء هذا الإرشاد فى صورة عتاب للحبيب المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حين سئل عن أمور فقال : غدا سأخبركم ولم يستثن نسيانا ، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا التوجيه والعتاب فى قوله :

﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا * إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾[1].

يروى المفسرون فى سبب نزول هذى الآية أن اليهود قد طلبوا من قريش أن يسألوا محمدا عن مسائل ثلاث : عن الروح وعن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، فسألوه ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : " أجيبكم عنها غدا ولم يستثن ـ أى لم يقل أن شاء الله ـ تعالى ـ فاحتبس الوحى عنه خمس عشرة ليلة ، وقيل : أربعين يوما ، ثم نزل قوله ـ جل وعلا ـ ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا * إلا أن

---

[1] الآيتان (٢٣، ٢٤) من سورة الكهف .

يشاء الله ... ﴾[١].

وأخرج الإمام الترمذى عن ابن عباس قال : قالت قريش ليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح ، قال فسألوه عن الروح فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[٢].

يقول الإمام القرطبى : " قال العلماء : عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه ـ عليه السلام ـ على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين غدا أخبركم بجواب اسئلتكم ولم يستثن فى ذلك فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه وأرجف بالكفار به فنزلت عليه هذه السورة مفرجة وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور أنى أفعل غدا كذا وكذا إلا أن يعلق ذلك بمشية الله عز وجل"[٣].

وقال القاسمى : " فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب ما يؤمن إليه النهى من رقيق العتاب"[٤].

ويرى الشيخ الطاهر بن عاشور ان هذا عتاب صريح للنبى ـ

---

(١) ينظر : جامع البيان : ١٥/١٥١ ، ومفاتيح الغيب : ١٩/٢٨٤ ، وغرائب القرآن : ٣/٢١٣٦ ، وتفسير ابن كثير : ٣/٦٠ ، وتفسير أبى السعود : ٥/٢١٧ .

(٢) الآية (٨٥) من سورة الإسراء ، والحديث أخرجه الترمذى ، فى كتاب التفسير : ١١/٢٩٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ١٠/٣٨٥ .

(٤) تفسير القاسمى " المسمى محاسن التأويل " : ١٠/٣٠٤٥ .

صلوات الله وسلامه عليه ـ فقال " كان هذا عتابا صريحا فإن رسول الله ـ ﷺ ـ لما سئل عن أهل الكهف وعد بالإجابة ونسى أن يقول (إن شاء الله)[١].

وعبر بعض المفسرين عن العتاب فى هذه الآية بالتأديب ن قال الزمخشرى عن قوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشئ إنى فاعل ذلك غدا ﴾ : " وهذا نهى تأديب من الله لنبيه "[٢].

ولفظ العتاب أحسن وألطف وأحن وألين بالنسبة لحبيبه المصطفى ـ ﷺ ـ لأن لفظ العتاب يكون بين أهل المودات ، وقد أبدع الحافظ ابن كثير فى التعبير عن هذا فقال : " هذا إرشاد من الله ـ تعالى ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ إلى الأدب فيما إذا عزم على شئ ليفعله فى المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان "[٣].

وأورد الإمام الرازى اعترضا لبعض العلماء على كون نزول الآية على السبب الذى ذكره المفسرون ، وهذا الاعتراض من وجهين:

الأول : أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان عالما بأنه إذا أخبر عن أنه سيفعل الفعل الفلانى غدا فربما جاءته الوفاة قبل الغد ، وربما عاقه عائق آخر من الإقدام على ذلك الفعل غدا وإذا كان كل هذه الأمور محتملا فلو لم يقل إن شاء الله ربما خرج الكلام مخالفا لما عليه الوجود

---

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٢٩٥/١٥ .

(٢) الكشاف : ٤٨٠/٢ .

(٣) تفسير القران العظيم لابن كثير : ٧٨/٣ .

، وذلك يوجب التغيير عنه وعن كلامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، أما إذا قال إن شاء الله كان متحرزا من هذا المحذور وإذا كان كذلك كان من البعيد أن يعد بشئ ولم يقل فيه إن شاء الله .

الثانى : أن هذه الآية مشتملة على فوائد كثيرة وأحكام جمة ، فيبعد قصرها على هذا السبب .

ثم يقول الإمام الرازى :" ويمكن أن يجاب عن الأول أنه لا نزاع أن الأولى أن يقول إن شاء الله إلا أنه ربما اتفق له أنه نسى هذا الكلام لسبب من الأسباب فكان ذلك من باب ترك الأولى والأفضل وأن يجاب عن الثانى اشتماله له الفوائد الكثيرة لا يمنع من أن يكون سبب نزوله واحدا منها"[1].

وقوله عز وجل ﴿ **ولا تقولن لشئ أنى فاعل ذلك غدا** ﴾ نهى وإرشاد وعتاب من الله ـ سبحانه ـ لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهو عتاب لتركه ـ ﷺ ـ الاستثناء نسيانا ، وإرشاد لما يأتى من أقوال وأفعال أن تكون مرتبطة بالمشيئة ، ونهى يفعل مثل الذى عوتب عليه.

هذا وإذا كان الخطاب فى الآية موجها للرسول ـ ﷺ ـ إلا أن الأمة مأمورة بهذا التوجيه ، وهذا الإرشاد وهذا النهى من باب أولى .

وقوله (غدا) مستعمل فى المستقبل مجازا وليس المراد به اليوم الذى يلى يومه ، ولكن مستعمل فى معى الزمان المستقبل ، كما

---

[1] راجع ذلك : مفاتيح الغيب : ١٩/٢٨٤، ٢٨٥ .

يستعمل اليوم بمعنى زمان الحال ، والأمس بمعنى زمن الماضى[١]

وقوله (إلا أن يشاء الله) ارتباط الاستثناء بالنهى محتمل على وجهين :

الأول : "لا تقولن ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله بأنه بإذن لك فيه" ، وهذا المعنى وإن كان صحيحا فى ذاته ولكنه غير مراد ، لأن المراد هنا النهى عن القول الأمر مرتبطا بالقول (إن شاء الله) ، وهذا هو الوجه .

الثانى : ولا تقولن إلا بأن يشاء الله ، أى إلا بمشية الله وهو فى موقع الحال يعنى : لا متلبسا بمشية الله قائلا [٢]

وقد أوضح ابن المنير الوجه المراد هنا فقال : " إنما الغرض النهى عن هذا القول إلا مقرونا بقول المشيئة "[٣].

وقوله تعالى : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ اختلف العلماء فى المراد بهذه الجملة إلى أقوال :

الأول : إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له .

الثانى : أن قوله تعالى ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ ليس له تعلق بما قبله بل هو كلام مستأنف وعلى هذا يمكن أن يكون معناه على عدة وجوه وهى :

---

[١] ينظر : روح المعانى : ٢٤٧/١٥ ، والتحرير والتنوير : ١٩٧/١٥ .

[٢] راجع ذلك فى : الكشاف : ٤٨٠/٢ ، وتفسير أبى السعود : ٢١٧/٥ .

[٣] الإنصاف على الكشاف : ٤٨٠/٢ ، وينظر : تفسير القاسمى : ١٠٤٤/١٠ .

١-واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء، والمراد منه الترغيب فى الاهتمام بذكر هذه الكلمة.

٢-واذك ربك إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى.

٣-جملة بعض المفسرين على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها.

وهذا القول بما فيه من الوجوه الثلاثة بعيد، لأن تعلق هذا الكلام بما قبله يفيد إتمام الكلام فى هذه القضية، وجعله كلاما مستأنفا يوجب صيرورة الكلام مبتدأ منقطعا وذلك يجوز[١] .

وقد ذكر ابن كثير رأيا اعتقد أنه هو الأرجح لأنه يتعلق بما قبله وفى الوقت نفسه تعليم له ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ولأمته فى المستقبل فقال: "ويحتمل فى الآية وجه آخر وهو أن يكون الله ــ تعالى ــ قد أرشد من نسى الشئ فى كلامه إلى ذكر الله ــ تعالى ــ لأن النسيان منشؤه من الشيطان كما قال فتى موسى: ﴿**وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره**﴾ [٢]، وذكر الله ــ تعالى ــ يطرد الشيطان فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان فذكر الله سبب للذكر، ولهذا قال ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ [٣].

ونلمح من دقائق التعبير فى قوله (واذكر ربك) تعريف الجلالة بلفظ الرب مضافا إلى ضمير المخاطب دون اسم الجلالة العلم من كمال الملاطفة والترقيق فى العتاب، كأنه يقول له إن ربك الذى رباك

---

[١] راجع لك فى: مفاتيح الغيب: ٢٨٨/١٩، وروح المعانى: ٢٥٦/١٥.

[٢] من الآية (٦٣) من سورة الكهف.

[٣] تفسير القران ا لعظيم: ٧٩/٣.

وتعهدك بالرعاية والحفظ هو الأولى بذكرك دائما فى كل لحظة.

وقوله تعالى ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا﴾ لما أبر الله وعد نبيه ـ ﷺ ـ الذى وعده المشركين أن يبين لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إلهي وأوقفهم عليه، أعقب ذلك بعتابه على التصدى لمجاراتهم فى السؤال عما هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله، وأمره أن يذكر نهى ربه، ويعزم على تدريب نفسه على إمساك الوعد ببيان ما يسأل منه بيانه دون أن يأذنه الله به.

أمره هنا أن يخبر سائليه بأنه ما بعث للاشتغال بمثل ذلك، وأنه يرجو أن الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من بيان أمثال هذه القصص وإن كانت هذه القصة تشتمل على موعظة وهدى، ولكن الهدى الذى فى بيان الشريعة أعظم وأهم، والمعنى: وقل لهم عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا.

وعسى مستعملة فى الرجاء تأدبا، واسم الإشارة عائد إلى المذكور من قصة أهل الكهف بقرينة وقوع هذا الكلام معترضا فى أثنائها، ويجوز أن يكون المعنى وارج من الله أن يهديك فيذكرك أن لا تعد وعدا ببيان شئ دون إذن الله تعالى[1] .

والآيتان فيهما تلطف فى العتاب على ترك الاستثناء نسيانا، ولا شك أن فى هذا العتاب من لكف الإرشاد والتعليم لسيدنا رسول الله ـ

---

[1] راجع ذلك فى: الجامع لأحكام القران: ٣٨٦/١٠، وتفسير ابن كثير: ٧٩/٣، والتحرير والتنوير: ٢٩٨/١٥، ٢٩٩.

صلوات الله وسلامه عليه ـ ما يجعله مثلا فى الأسوة به لاقتداء أمته ـ ﷺ ـ به فى ربط قولها وفعلها بمشيئة الله تعالى.

وبالرغم من أن هاتين الآيتين فيهما عتاب للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلا أن فيهما تكريما وتبجيلا له ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ثلاث جهات:

ـ **الأولى:** أنه أجاب سؤاله فبين لهم ما سألوه إياه على خلاف عادة الله مع المكابرين.

ـ **الثانية:** أنه علمه علما عظيما من آداب النبوة.

ـ **الثالثة:** أنه ما علمه ذلك إلا بعد أن أجاب سؤاله استئناسا لنفسه أن لا يبادره بالنهى عن ذلك قبل أن يجيبه كيلا يتوهم أن النهى يقتضى الإعراض عن إجابة سؤاله كذلك شأن تأديب الحبيب حبيبه المكرم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ[1] .

وهكذا يعلمنا هذا العتاب الرقيق اللطيف للمصطفى ـ ﷺ ـ أن كل حركة، بل كل نفس من أنفاس الحى، مرهون بإرادة الله ، والغيب يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة، وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المسدل، وعقله مهما علم قاصر كليل، فلا يقل إنسان: إنى فاعل ذلك غدا، وغدا فى غيب الله وأستار غيب الله دون العواقب.

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان، لا يفكر فى أمر المستقبل ولا

---

[1] تفسير التحرير والتنوير: ٢٩٦/١٤.

يدبر له، وأن يعيش يوما بيوم، لحظة بلحظة، وألا يصل ماضى حياته بحاضره وقابله، كلا. ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التى تدبره، وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يد الله فوق يده، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فبها، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس، لأن الأمر لله أولا وأخيرا.

فليفكر الإنسان وليدبر، ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله، ويدبر بتوفيق الله، وأنه لا يملك إلا ما يمده الله به من تفكير وتدبير، ولن يدعو هذا إلى كسل أو تراخ، أو ضعف أو فتور، بل على العكس يمده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة، فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير لله غير تدبيره، فلتقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام، لأنه الأصل الذى كان مجهولا له فكسف عنه الستار[1] .

هذا هو المنهج الذى يأخذ به الإسلام قلب المسلم، فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر، ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح، ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويخفق، بل يبقى فى كل أحواله متصلا بالله، قويا بالاعتماد عليه، شاكرا لتوفيقه إياه، مسلما بقضائه وقدره، غير متبطر ولا قنوط، إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فأذكر ربك وأرجع إليه، وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا، من هذا النهج الذى يصل القلب دائما بالله ـ سبحانه

---

[1] راجع ذلك فى ظلال القران: ٤/٢٢٦٥.

وتعالى ـ : ﴿ وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾[١]

﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ [٢]

---

[١] من الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

[٢] من الآية (٨٨) من سورة هود ـ عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين حمدا يوافى نعمه ويكافئ مزيد فضله وإحسانه ، الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنتهدى لو لا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم .

وبعد ،،

فمن خلال هذه الصحبة المباركة العطرة من عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ـ ﷺ ـ وما يشع به العتاب الربانى من أنوار وقيم ، وما يستشرف من آفاق عليا ، وما يستلهم ويتذوق المتلقى والمتذوق لبلاغة القرآن الكريم ، يمكن أن نجلى ونشير ـ فى إيجاز وتركيز ـ أهم الخصائص والسمات التى تميز بها هذا اللون البديع من النظم القرآنى .

وهذه السمات وتلك المميزات والخصائص منها ما هو عام فى أغلب مواقف العتاب ، نراه يتدفق فى ثنايا كل موقف منها ، ومنها ما هو خاص بكل موقف يتجلى من سياق وجو العتاب .

أما السمات والخصائص العامة التى نراها تشع وتتدفق فى أغلب مواقف العتاب فهى :

أولا : أن موقف العتاب يستهدف إعلاء مثالية من المثاليات التى ينبغى أن يتحلى بها رسول الله ـ ﷺ ـ مهما يكن من مشقة نفسية ، أو يستهدف تقرير قيمة من قيم هذا الدين يحرص الله على أن تسود ، أو يستهدف إحداث تغيير فى المجتمع بما يشـــرعه الله مـــن تشريع لم يكن قائماً فيما قبلهم من جاهلية ، فالعتـــاب للنبـــى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يستهدف أن يكون ـ ﷺ ـ علـــى الوجه الأمثل ، وأن يكون القدوة والأسوة للناس جميعاً .

ثانياً : كذلك من السمات التى تتجلى فى أسلوب العتاب ، وكأنها تغلـب فى هذا الأسلوب سمة الإيجاز وتكثيف المعانى ، مع ما يحفل به التعبير ـ على إيجازه ـ من مؤثرات فقد رأينا فى أكـثر مـن موقف كيف أن آية واحدة لا تتجاوز عدة جمل محدودة تحكـــى موقفاً يبعث على العتاب ، وتحمل فى طياتها توجيهاً نحو قيـــم مثالية، وأحاسيس كثيرة، وتجلى لنا موقفاً كاملاً مـــن مواقـف العتاب، وتشريعاً جديداً من التشريعات الإسلامية العظيمة.

ثالثاً: تجلى لنا من خلال دراسة خصائص النظم القرآنى فى مواقـــف العتاب أن هذا الأسلوب من النظم القرآنى ينطوى على كثير من أساليب الاستفهام، وكثيراً ما يأتى الاستفهام من وسائل عرضـه، بما يحمله أسلوب الاستفهام من معنى اللوم، ولأنـــه الأسـلوب الأكثر طواعية لجو العتاب، وظهر ذلك جليـــاً مـــن اللطـائف التعبيرية لأسلوب الاستفهام، ومطابقته التامة لموقف العتاب.

ورأينا كيف كان للاستفهام فى أسلوب العتاب موقعه، فيأتى وكأنه الأسلوب الأكثر ملائمة لجو العتاب، وذلك لأن الاستفهام من أكثر الأساليب طواعية فى الخروج إلى أهداف خطابية متنوعة، فهو يصلح للتعظيم والتحقير، وللتهويل والتهوين، وللتقريع، والتقرير، وللنفى والإنكار، وهو بذلك يعكس مشاعر شتى: يعكس الرضا والغضب، ويعكس الإعجاب والدهشة، كما يعكس التفجع والأسى.

ولعلنا لا نكون متسرعين إذا قلنا من وراء ما لاحظناه فى أسلوب المعاتبة أن من المرامى التى يستهدفها أسلوب الاستفهام، خروجه إلى العتاب، فهو قادر على تجسيد مشاعر المعاتب حين يجد شيئاً يدفعه إلى لوم أو تأنيب، وهو قادر على حفز من يوجه إليه العتاب على استرضاء من عاتبه، فما أكثر أن يستجيب إلى نداء الود، ويعطى العتبى ويترضى من عاتبه بالعدول عن أسباب عتبه، فتجرى حياة الأصفياء على عهدها من حرارة القلب وصفاء الود.

رابعاً: عظمة النظم القرآنى فى دقة واختيار المفردات المعبرة والموحية فى أسلوب العتاب، وما لمفردات موقف العتاب من دلالات كاشفة عن المشاعر النفسية، وما لها من إيحاءات معبرة ومترجمة لهذا الموقف من العتاب، وهذا ما يحسه ويتنبه إليه المتلقى والمتذوق لبلاغة القرآن فى مفرداته وتراكيبه.

خامساً: تجلى لنا فى أعظم صورة كيف كان المولى ـ عز وجل ـ رحيماً لطيفاً برسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث لم

يخاطبه ـ عز وجل ـ بالعتاب وكأنه يخاطب نبيا آخر سواه فقال تعالى: ﴿عبس وتولى * إن جاءه الأعمى﴾ وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى﴾، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ... ﴾،وهكذا فى أكثر مواقف العتاب، وذلك غاية الترفق والتلطف مع الحبيب المصطفى ـ ﷺ ـ.

سادساً: كذلك رأينا عظمة وبلاغة النظم القرآنى فى صياغة هذا اللون من العتاب، ومدى إعجازه، من تلاحم النظم، وتآلف الصياغة على نحو يبدو فيه الترابط الواضح، والبناء المتماسك فى التعبير مما له أثر كبير فى انتظام المتابعة وارتياح المتلقى والمتذوق لبلاغة القرآن.

سابعاً: كذلك تجلى لنا كيف أوحى التعبير القرآنى بدلالات متنوعة، كل قد استلهمها بما لديه من حاسة وتذوق، والتعبير القرآنى لأسلوب العتاب وغيره فيه من الثراء الذى يفى بأكثر من هذه الدلالات المتنوعة، وسيبقى مع الزمن متجدداً، كل يحاول أن يستشرف ويستلهم، ويتذوق من هذه الآفاق العليا، ومع كل استشراف واستلهام وتذوق يأتى بجديد وبديع، فهو لا يزال بكراً إلى يوم القيامة، وهذا من أعظم أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم.

تلك هى أهم السمات العامة والخصائص المشتركة التى يمكن أن نلمحها فى أكثر مواقف العتاب، وأما من حيث السمات الخاصة بكل

موقف من مواقف العتاب فى النظم القرآنى فيمكن أن نشير إليها فيما يلى:

أولا: عندما عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه محمدا ـ ﷺ ـ فى إعراضه عن عبد الله ابن أم مكتوم، تجلى لنا أن هذا العتاب الرقيق اللطيف كان منطلقا ملائما لغرس القيم الإسلامية، وتربية الجماعة الإسلامية الناشئة على قيم ومبادئ سامية وسديدة، تقوم على أساس المساواة بين الخلق جميعا، لا فرق بين إنسان وآخر، وطائفة وأخرى إلا بالتقوى والعمل الصالح، وتقرر المبدأ العام (إن أكرمكم عند الله اتقاكم)[1] .

إن من ينعم النظر فى أسلوب هذا العتاب يجد أنه يحتوى على نظم بديع عالى، حيث عدل النظم القرآنى عن التعبير بضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة فى قوله ﴿ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى ﴾ وذلك للتلطف فى عتابه ـ ﷺ ـ مراعاة لفضله، وتعظيما لقدره، وتعليما للخلق جميعا كى يتأدبوا معه ويعلموا مدى قدره ومكانته عند الله ـ تعالى ـ.

كذلك تجلى لنا ـ فى أعظم صورة ـ ما لمفردات هذا العتاب من دلالات كاشفة عن المشاعر النفسية، فالكلمات (عبس ـ تولى ـ يزكى ـ استغنى ـ تصدى ـ يسعى ـ تلهى) كلها لها إيحاءات معبرة ومترجمة لهذا الموقف من العتاب، وهذا ما يحسه ويتنبه إليه المتلقى والمتذوق لبلاغة القرآن.

---

[1] من الآية (١٣) من سورة الحجرات.

كذلك من الظواهر التى ينفرد بها النظم القرآنى فى هذا العتاب، ذلك الإيقاع الموسيقى المتميز، وهذا اللون من السجع البديعى الموحى المعبر والمناسب لسياق الكلام ومقامه.

فالآيات ذات مقاطع متوازنة تملك على النفس أقطارها، وتتجلوز حاسة السمع، فتصل إلى شغاف القلوب، فتمسها مساً لطيفاً، وتهزها ممتعة لها، فتؤثر فيها غاية التأثير، فتخضع لها جميع الجوارح تعظيماً لجلال وجمال بلاغة القرآن.

ثانياً: وعندما عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه ـ ﷺ ـ على قبوله أخذ الفداء من الأسرى رأينا كيف كان هذا العتاب موجهاً ومقصوداً به طائفة المؤمنين الذين أشاروا بأخذ الفداء، فالآية الكريمة عتب على المؤمنين، لأنهم آثروا الفداء على القتل والإثخان فى الأرض، وذلك لأن غزوة بدر كانت أول معركة حاسمة بين الشرك والإيمان، وكان المسلمون فيها قلة، والمشركون كثرة، فلو أن المسلمين آثروا المبالغة فى إذلال أعدائهم عن طريق القتل، لكان ذلك أدعى لكسر شوكة الشرك وأهله، وأظهر فى إذلال قريش وحلفائها،ـ وأصرح فى بيان أن العمل على إعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ كان عند المؤمنين فوق متع الدنيا وأعراضها.

وقد حصل من هذا العتاب تحذير للمسلمين من العود للفداء فى مثل هذه الحالة وبذلك كانت تشريعاً للمستقبل، وهذه أهم أهداف أسلوب العتاب فى القرآن الكريم.

ورأينا كيف جاء هذا العتاب فى أبلغ صورة وفى أدق تعبير، حيث لم يخاطب الله ـ تعالى ـ نبيه بالعتاب مباشرة، وإنما وجه عتابه إليه على سبيل الغيبة، وكأنه يعاتب نبيا آخر سواه، وذلك غاية الترفق والتلطف فى عتابه ـ ﷺ ـ.

ثالثا: عندما عاتب الله ـ سبحانه ـ نبيه ـ ﷺ ـ فى إذنه للمنافقين أن يتخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك، رأينا كيف جاء العتاب فى أبدع صورة وأجلاها حيث جاء العتاب مصدرا بقوله (عفا الله عنك) ورأينا فى تصدير الخطاب بهذا التعبير تعظيما لقدر النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتوقيرا له، وتوقيرا لحرمته ـ ﷺ ـ حيث افتتح العتاب بالإعلام بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب، وفى ذلك تكريم وتشريف عظيمين لمكانة الرسول ـ ﷺ ـ عند الله تعالى .

ورأينا كذلك مدى التناسب والتناسق العجيب بين موقف العتاب وأسلوبه، بالإضافة إلى هذا الإيجاز البديع فى الآية، فآية قصيرة لا تتجاوز ثلاث عشرة كلمة، حملت إلينا معانى وأحاسيس كثيرة، وجلت لنا موقفا كاملا من مواقف العتاب فى القرآن الكريم، وسمة الإيجاز ـ كما سبق ـ من السمات الغالبة فى أسلوب العتاب.

رابعا: عندما عاتب المولى ـ عز وجل ـ نبيه ـ ﷺ ـ حين حرم على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه، فى قوله ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ رأينا كيف جاء العتاب فى نظم عال

بديع، يبدأ بالنداء (يا أيها النبى)، والنداء بطبعه يوحى بالتشويق والاهتمام والترقب، فهو من طرق التشويق إلى المعنى فى القرآن الكريم.

كذلك تجلى لنا ما لاختيار لفظ النبوة من دلالة وإيحاء، حيث بدأ بخطاب الرسول ـ ﷺ ـ بقوله (يا أيها النبى) مع أن الموقف عتاب ولوم، ودلالة هذا على ما للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من مكانة فى التكريم والتعظيم، حيث باداه بأشرف وصف (النبوة) وكم يوحى بحسن التلطف والتنويه بشأنه ـ ﷺ ـ.

ولقد كان الوصف بالنبوة فى هذا الموضع له دخل فى العتاب، من حيث إنه نبى وأزواجه من أتباعه، فلم يشق على نفسه مع أنه نبى، والكل فى مرضاته، لا أن يشق على نفسه ابتغاء مرضاة أحد من أتباعه، وهذا يدل على مدى عظمة وبلاغة النظم القرآنى فى اختيار اللفظة المفردة الموحية المعبرة، ووضعها فى سياقها ومقامها الملائم والمناسب لجو العتاب.

كذلك من يدقق النظر فى هذا الموقف من العتاب، يجد أن فيه تعظيماً لشأن النبى ـ ﷺ ـ بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى الكريم يعد كالذنب، وإن لم يكن فى نفسه كذلك، وأن عتاب الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليس إلا لمزيد الاعتناء بشأنه ومكانته ـ ﷺ ـ.

ورأينا ضرورة أن تقوم جماعة مسلمة تتواصى بالإسلام،

وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراته كلها، ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى.

خامساً: عندما عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه ـ ﷺ ـ فى قصه زواجه من السيدة زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها، رأينا كيف جاء التعبير فى ثوب الحكاية، وما تجرى عليه من سرد فيه تشويق يدعو إلى المتابعة والاهتمام، وفيه تعليم للناس أن يكون ظاهرهم كباطنهم، وتحذير لهم بأن يخفوا شيئاً أراد الله له الإظهار والإعلان، بل عليهم أن يعلنوا وألا يخافوا فى الله لومة لائم.

وظهر لنا أن الذى أخفاه النبى ـ ﷺ ـ فى نفسه، وهو يعلم أن الله مبديه فى قوله (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) هو ما ألهمه الله ـ تعالى ـ أن سيفعله، ولم يكن أمراً صريحاً من الله، وإلا ما تردد فيه ولا أخره، ولا حاول تأجيله، ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه، وهذا يهدم كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث والتى تشبث بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات.

ورأينا كيف تمثل الإيجاز فى أعلى مراتبه فى هذا الموقف من العتاب، فآية واحدة لا تتجاوز خمس جمل نحوية نراها تحكى موقفاً يبعث على العتاب، وتتضمن عتاباً ذا وقع شديد على الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتحمل فى طياتها توجيهاً نحو قيم مثالية، وتعلن عقداً سماوياً علوياً بالزواج، وتصدر تفسيراً لهذا الزواج الذى

يحمل فى جملته تشريعاً جديداً يغير وصفاً سائداً فى المجتمع الجاهلى.

سادساً: عندما عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه محمداً ـ ﷺ ـ فى أمر الكفار، رأينا كيف كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رؤوفاً رحيماً، فكان من رحمته وشفقته على أمته أنه كان حريصاً على هدايتهم واستنقاذهم من العذاب، لذلك كان يبذل كل طاقته فى سبيل الدعوة وتبليغها.

كذلك عاتبه الله ـ تعالى ـ على شدة حزنه وتحسره عليهم، وحرصه المبالغ فيه على إيمانهم، وأنه بذلك يكلف نفسه فوق طاقتها، وألا يذهب نفسه حسرة عليهم، فإذا استمع النبى ـ ﷺ ـ إلى كلمات ربه، وما تحمل من مواساة كريمة، وعزاء جميل، فحينئذ يطمئن قلبه، وتسكن نفسه، ويذهب حزنه وحسرته، وفى هذا وقاية للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه من أن تطرقه طوارق الأسى والحسرة على من تخلف عن الدعوة التى يدعو بها، ولوى وجهه عن الحق الذى بين يديه، من ذوى قرابته، ومن يريد لهم الخير ممن يحبهم ﴿**إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين**﴾ [1].

ورأينا كيف عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه ـ ﷺ ـ حين هم أن يحكم على اليهودى وهو برئ وكيف يضرب الإسلام أروع الأمثلة فى العدل والإنصاف فى الوقت الذى تسرى فيه التعصب الأعمى للديانات الأخرى ضد الإسلام، والعمل على تشويه صورته ـ خاصة فى وقتنا

---

[1] الآية (٥٦) من سورة القصص.

الحاضر بما يدور فى المحيط العالمى ـ وليت هؤلاء الذين يتعصبون لدينهم وجنسهم ضد الإسلام، بل يحملهم التعصب الأعمى إلى إدانة واضطهاد البراء من غير جنسهم بغير حق لأنهم مسلمون.

ليتهم يتفهمون ويتدبرون ما جاء به الإسلام من حث على العدل والإنصاف حتى مع الأعداء، وكيف كان الرسول ـ ﷺ ـ من أول المنفذين والمطبقين لتلك التعاليم، وتلك القيم والمبادئ الرشيدة التى يقع عليها صلاح الأمة والمجتمع والحياة، ولا توجد عدالة تقترب من عدالة الإسلام فى سموها ونقائها واستقامة منهجها.

سابعاً: كذلك عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه ـ ﷺ ـ فى شأن الضعفاء من المسلمين، حيث عاتبه عتاباً شديداً حين عبس فى وجه واحد من الضعفاء، وهو عبد الله ابن أم مكتوم، الذى جاء ليتعلم أمر دينه، ويأخذ من النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ العلم النافع، والرسول مشغول بالدعوة مع بعض المستغيين، فنزل القرآن الكريم يعاتب الرسول ـ ﷺ ـ عتاباً شديداً ويقرر حقيقة القيم فى حياة الجماعة المسلمة فى أسلوب قوى حاسم.

كذلك بين لنا المولى ـ عز وجل ـ أن هؤلاء الفقراء والضعفاء لهم خير عند الله ـ تعالى ـ من هؤلاء الأغنياء الكفرة، ولم يقف الأمر عند حد نهى النبى ـ ﷺ ـ عن طردهم، بل أمره تعالى أن يزيد من حفاوته لهم، وأن يحبس نفسه معهم حتى يشبعوا رغباتهم من حديثه، والأخذ عن منهجه فى التربية والسلوك، وقد أكد الله ـ تعالى ـ ذلك

بنهيه ـ ﷺ ـ أن تتجاوز عيناه النظر عن أولئك الصفوة من المؤمنين طلبا لإسلام الكبراء من العظماء والأعيان والأغنياء من أئمة الكفر ورؤوس الضلال طمعا فى إيمانهم.

وهكذا يضرب لنا ديننا الحنيف، ورسولنا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أروع الأمثلة فى العدل والمساواة بين الخلق جميعا، وأن العبرة فى التفوق والتفضيل بالتقوى والعمل الصالح، والقرب من الله ـ تعالى ـ ويقرر المبدأ العام: ﴿**يأ أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[1].

ثامنا: كذلك عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه محمدا ـ ﷺ ـ فى أمر الاستثناء، حين سئل عن أمور فى علم المغيبات، وهى الروح وأصحاب الكهف وذو القرنين، فقال رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ غدا سأخبركم ولم يستثن نسيانا، وفيه بين مكانة المصطفى ـ ﷺ ـ حيث أجابه بما سأل عنه، ثم عاتبه بعد ذلك بعتاب لطيف.

ولذا أشده الله ـ سبحانه ـ أن لا يقول قولاً وأن لا يفعل فعلاً إلا ويكون مقروناً بمشيئته وإرادته، وقد جاء هذا الإرشاد فى صورة عتاب للحبيب المصطفى ـ ﷺ ـ.

فقد اختص الله سبحانه ، وحده بعلم المغيبات، وجعل أمر المستقبل

---

[1] الآية (١٣) من سورة الحجرات.

مستوراً بالنسبة للإنسان، فمقام الأدب مع الله ـ تعالى ـ يقتضى أن يرد الإنسان كل شئ إلى مشيئة الله ـ تعالى ـ علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

فهذا هوا لمنهج الذى يأخذ به الإسلام قلب المؤمن، فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر، ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح، ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويخفق، بل يبقى فى كل أحواله متصلاً بالله، قوياً بالاعتماد عليه، شاكراً لتوفيقه إياه، مسلماً بقضائه وقدره، غير متبطر ولا قنوط، فإذا نسى الإنسان هذا التوجيه فليذكر ربه وليرجع إليه وليقل: (عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا)، فهذا هو المنهج الذى يصل القلب دائماً بالله سبحانه وتعالى.

وأخيراً هذا شئ مما أفاض الله تعالى على وألهمنى إياه ووفقنى إليه من الوقوف على بعض أسرار النظم القرآنى فى عتاب النبى ـ ﷺ ـ بما يشع من النور الربانى والنور النبوى.

(وسع ربنا كل شئ علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين)

(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم.

دكتور
بدر عبد العال حسين
فى ٢٠٠٣/٤/٢٨

فهرس المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم ـ جل من أنزله ـ .

٢ـ أساليب الاستفهام فى القرآن ، د/ عبد العليم فودة ، ط : المجلس الأعلى للفنون والآداب .

٣ـ أسرار البلاغة . للشيخ عبد القاهر الجرجانى ، ت/ هـ ريتر ط: دار المسيرة " بيروت " ط ثالثة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٤ـ أسرار البيان . د/ على محمد حسن العمارى ، ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية سنة ١٩٧٤م .

٥ـ الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة ، لمحمد بن على الجرجانى ، ت: د/ عبد القادر حسين ، ط : دار نهضة مصر .

٦ـ الأمثال القرآنية دراسة تحليلية . د/ محمد بكر إسماعيل ط: الأمانة ط أولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٦م .

٧ـ الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير الاسكندرانى ط : الحلبى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٦ م .

٨ـ الإيضاح فى علوم البلاغة . للخطيب القزوينى ، ت د/ محمد عبد المنعم خفاجى ط : دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ط ثالثة : ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١ .

٩ـ البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ط دار الفكر ط ثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٧١م .

١٠ـ بدائع الفوائد ، لابن القيم الجوزية ، ط دار الكتاب العربى " بيروت "

١١ـ البديع فى ضوء أساليب القرآن ، دكتور / عبد الفتاح لاشين ط : دار المعارف .

١٢ـ البديع فى نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تح د / أحمد أحمد بدوى ، د/ حامد عبد المجيد ، ط : الحلبى ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م .

١٣ـ البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى ، تح د/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : دار التراث ١٩٧٦م .

١٤ـ البيان فى ضوء أساليب القرآن دكتور / عبد الفتاح لاشين ط : دار المعارف ١٩٨٥م .

١٥ـ تجريد البنانى على مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى ، ط : مطبعة صبيح ، الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ .

١٦ـ تحرير التحبير ، لابن أبى الأصبع المصرى ، تح د/ حفنى محمد شرف ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٨٣م .

١٧ـ التصوير البيانى ، دكتور / حفنى محمد شرف ، ط: المطبعة العثمانية ط أولى ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

١٨ـ التصوير الفنى فى القرآن ، للمرحوم الشيخ سيد قطب ، ط : دار الشروق .

١٩ـ تفسير أبى السعود . المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . ط : دار إحياء التراث العربى " بيروت " ط ثانية ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

٢٠ـ تفسير البيضاوى ، المطبوع بهامش حاشية الشهاب ط : دار صادر بيروت .

٢١ـ تفسير التحرير والتنوير ، للشيخ الطاهر بن عاشور ط : الدار التونسية .

٢٢ـ تفسير الخازن المسمى " لباب التأويل فى معالم التنزيل " نشر : مكتبة محمد امين دمج " بيروت " .

٢٣ـ تفسير سورة المائدة د. محمد عبد العال شافع ط : دار الطباعة المحمدية ط أولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م .

٢٤ـ تفسير الشيخ الشعراوى . ط : دار أخبار اليوم ط أولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

٢٥ـ تفسير الشيخ المراغى . ط : مصطفى الحلبى ط خامسة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

٢٦ـ تفسير القاسمى ، المسمى " محاسن التأويل " ط : دار إحياء الكتب العربية " عيسى الحلبى " ط أولى ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م .

٢٧ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير ، ط : دار إحياء التراث العربى.

٢٨ـ التفسير القرآنى للقرآن . للشيخ عبد الكريم الخطيب ط : دار الفكر العربى .

٢٩ـ تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٠ـ تفسير النسفى المسمى " مدارك التـــنزيل وحقـــائق التـــأويل " ط: دار الكتاب العربى ، بيروت .

٣١ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم . للشيخ محمد سيد طنطاوى ط: مطبعـــة السعادة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٣٢ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ت / لجنة من العلماء بإشراف مجمـــع البحوث الإسلامية ط : الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ط أولـــى ١٤١١هـ ١٩٩٠م .

٣٣ـ جامع البيان عن تأويل أى القرآن ، للإمام الطـــبرى ط : الحلبـــى ط ثالثة ١٩٦٨م .

٣٤ـ الجامع لأحكام القرآن . للإمـــام القرطبـــى ، تـــح / محمـــد إبراهيـــم الحفناوى ط : دار الحديث ط أولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

٣٥ـ الجواهر الحسان فى تفسير القرآن الكريم . للشيخ طنطاوى جوهـــر ط : الحلبى ط ثانية ١٣٥٠ هـ .

٣٦ـ حاشية الدسوقى على مختصر سعد الدين التفتازانى ضمـــن شـــروح التلخيص ط : دار السرور بيروت

٣٧ـ حاشية السيد الشريف الجرجانى على الكشاف ط : الحلبـــى الطبعـــة الأخيرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م .

٣٨ـ حاشية السيد الشريف الجرجانى على المطول ط : مطبعة أحمد كـــامل ١٣٣٠هـ ـ ١٩١٠م .

٣٩ـ حاشية الشهاب المسماه " عناية القاضى وكفاية الراضى على تفســـير

البيضاوى " ط دار صادر بيروت .

٤٠ـ حاشية الشيخ محمد الخضرى على شرح الملوى على السمرقندية ط : المطبعة الأزهرية بمصر ط ثانية ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣١م .

٤١ـ حاشية الشيخ محيى الدين زادة على تفسير البيضاوى ط : المكتبة الإسلامية بتركيا .

٤٢ـ الخصائص لابن جنى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤٣ـ خلاصة المعانى للحسن بن عثمان المفتى تح د/ عبد القادر حسين ط : دار النصر للطباعة الإسلامية ١٩٩٣ م .

٤٤ـ دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل ، والتقديم والتأخير ، د/ عبد الهادى العدل ، تح :د/ عبد السلام سوحان ط:دار الطباعة المحمدية ط ثالثة ١٣٧٨هـ ١٩٨٥م

٤٥ـ دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجانى تح : محمود محمد شاكر ، نشر مكتبة الخانجى ط ثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢ م .

٤٦ـ دلالات التراكيب . أ.د/ محمد محمد أبو موسى ط : دار التضامن / نشر : مكتبة وهبة ط ثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .

٤٧ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للإمام الألوسى ط: دار إحياء التراث العربى بيروت ط رابعة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٤٨ـ شرح التلخيص للشيخ أكل الدين البابرتى تح: د/ محمد مصطفى رمضان صوفيه ط: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان طرابلس ، ليبيا ط أولى ١٣٩٢هـ ١٩٨٣م .

٤٩ـ شرح السعد المسمى مختصر المعانى علـــى التلخيـــص ط : صبيـــح ١٩٣٨م .

٥٠ـ الشواهد القرآنية فى كتاب مفتاح العلوم للسكاكى . مواطن الاستشـــهاد ومسائل الخلاف . بدر عبد العال حسين " ماجستير " مخطوط بكليـــة اللغة العربية .

٥١ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلـــوى ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٢م .

٥٢ـ عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكى ضمـــن الشروح ط: دار السرور ، بيروت .

٥٣ـ علم البديع بين النظرية والتطبيق أ.د/ عبد الفتاح محمد ســـلامة : دار الهلال .

٥٤ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، للنيسابورى تح / إبراهيـــم عطـــوة عوض ط : الحلبى ط أولى ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

٥٥ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى تـــح / طـــه عبد الرؤوف سعد ط: دار الغد العربى ط أولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

٥٦ـ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، للجمـــل ط : عيسى الحلبى .

٥٧ـ فن البلاغة . أ.د/ عبد القادر حسين ط : دار نهضة مصر .

٥٨ـ الفنون البديعية فى دائرة البحث البلاغى . د/ فوزى السيد عبد ربـــه ط : مطبعة الحسين الإسلامية ط أولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٥٩ـ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، لابن القيم الجوزيـــة ، تح / محمد عثمان الخشت ط : مكتبة القرآن ١٩٩٤م .

٦٠ـ فى ظلال القرآن للشيخ المرحوم سيد قطب ط : دار الشروق الطبعـــة الثانية عشرة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

٦١ـ القاموس المحيط للفيروزأبادى ط: الهيئة المصريـــة العامـــة للكتـــاب ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ .

٦٢ـ قبس من نور القرآن الكريم للشيخ / محمد علـــى الصـــابونى ط : دار القلم دمشق ط ثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٦٣ـ القرآن والصورة البيانية أ.د/ عبد القادر حسين ط : عالم الكتب ســـنة ١٩٧٥م .

٦٤ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للعلامـة جار الله الزمخشرى ط : الحلبى الطبعـــة الأخـــيرة ١٣٨٥ هـــ ـ ١٩٦٦م .

٦٥ـ لسان العرب . لابن منظور ط " دار صادر بـــيروت ١٤١٠هـــ ـ ١٩٩٠م .

٦٦ـ مجلة لواء الإسلام . العدد الثالث من السنة (٢١) .

٦٧ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين ابن الأثير ،تـــح/ أحمد الحوفى ، د/ بدوى طبانة ، ط: دار نهضة مصر .

٦٨ـ المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية تـــح / المجلـــس

الأعلى بفاس طبع وتوزيع مكتبة ابن تيمية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

٦٩ـ مختار الصحاح ، لأبى بكر الرازاى ط : دار الحديث .

٧٠ـ مذكرات فى الفصل والوصل والقصر ، للشيخ سليمان نوار ط : مطبعة العلوم ط ثانية ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٤ م .

٧١ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ط : المكتب الإسلامى فى بيروت ط ثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

٧٢ـ المصباح فى المعانى والبيان والبديع ، لبدر الدين بن مالك تح د/ حسنى عبد الجليل يوسف ط : مطبعة الآداب ط أولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م .

٧٣ـ المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازانى ط مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ ١٩١٠ م .

٧٤ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ت / محمد فؤاد عبد الباقى ط : دار الحديث ط / ثالثة ١٤١١هـ ١٩٩١م .

٧٥ـ المعجم الوسيط ، لمجمع اللغة العربية ط : دار الفكر العربى .

٧٦ـ مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، للفخر الرازى ط : دار الغد العربى ط أولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .

٧٧ـ مفتاح العلوم للسكاكى ، تح / نعيم زرزور ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ط ثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٧م .

٧٨ـ المفردات فى غريب القرآن ، للراغب الأصفهانى ط: مكتبة

الجمهورية .

٧٩ـ من الدراسات البلاغية فى القرآن الكريم أ.د/ يحيى محمد يحيى ط : مطبعة الأمانة ط أولى ١٤٠٨هـ ١٩٧٨م .

٨٠ـ مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يقوب المغربى ضمن مجموعة شروح التلخيص ط : دار السرور " بيروت "

٨١ـ نظرات فى البيان أ.د/ محمد عبد الرحمن الكردى ط : مطبعة السعادة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

٨٢ـ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعى تح / عبد الرازق غالب المهدى ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ط أولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
المقدمة :	٧
التمهيد	١٥
أولاً: معنى العتاب والفرق بينه وبين الأساليب الأخرى.	١٧
ثانياً : مواقف عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ فى القـــرآن الكريم	٢١
الموقف الأول عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى إعراضـــه عـــن عبد الله بن أم مكتوم.	٣٥
الموقف الثانى عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى موقفه من أسرى بدر وقبوله أخذ الفداء منهم.	٧١
الموقف الثالث عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى إذنه للمنافقين أن يتخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك	٩١
الموقف الرابع عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى حين حرم علـــى نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه.	١٠٧

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الموقف الخامس عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى قصة زواجه من السيدةزينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ	١٢٧
الموقف السادس عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فـــى أمـــر الكفـــار والمنافقين وأهل الكتاب.	١٦٧
الموضع الأول عتابه ـ ﷺ ـ على استغفاره للمشركين وبيان أنه لا يهدى من يحب ولكن الله يهدى من يشاء.	١٦٩
الموضع الثانى عتابه ـ ﷺ ـ على شدة حزنه على عدم إيمـــان قومـــه وتحسره عليهم وشدة حرصه على هدايتهم.	١٧٩
الموضع الثالث عتابه ـ ﷺ ـ حين هم أن يحكم على اليهودى وهوبرئ.	١٩٥
الموقف السابع عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الضعفاء من المؤمنين.	٢١١

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الموضع الأول عتابه ـ ﷺ ـ حين طلب منه كبراء قريـــش أن يطـرد هؤلاء الضعفاء من المؤمنين.	٢١٢
الموضع الثانى عتابه ـ ﷺ ـ حين أمره الله ـ تعالى ـ أن يحبس نفسـه مع الفقراء ولا يتطلع إلى الكبراء.	٢١٣
الموقف الثامن عتاب الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ فى أمر الاستثناء.	٢٣٥
الخاتمة	٢٤٥
فهرس المصادر والمراجع	٢٥٨
فهرس محتويات البحث	٢٦٧